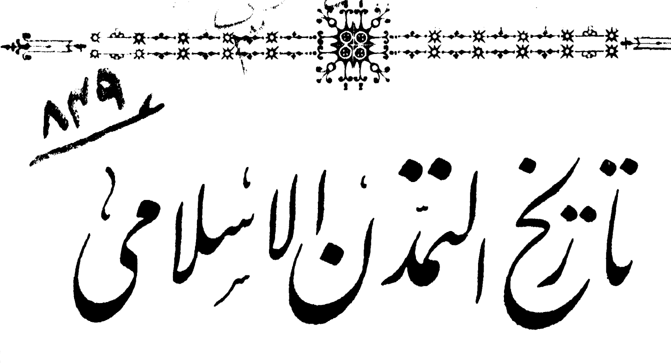


تاريخ التمدن الاسلامي

وهو يبحث في نشوء الدولة الاسلامية
وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والجندية وبيان ثروتها
وتاريخ العلم والادب والتجارة والصناعة فيها ونظام
الهيأة الاجتماعيـة وآدابها والعادات
والاخلاق الخ

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الجزء الثالث

في العلم والادب وما كان منهما عند العرب قبل الاسلام وما أحدثهُ
الاسلام من التغيير في القرائح والعقول وما نقل عن اللغات الاجنبية
من العلوم وما كان من تأثير التمدن الاسلامي في كل ذلك

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

سنة ١٩٠٤

المقدمة

العلم أعظم أركان الحضارة واقوى اسبابها والبحث في علوم الامم وادابهم من أهم واجبات المؤرخين وخصوصاً في الاسلام لعلاقة العلوم الاسلامية باحوال الدول وسياستها . ولذلك كانت ابحاث هذا الجزء من تاريخ التمدن الاسلامي اهم ابحاث هذا الكتاب . و يزيد اهميته ارتباط تاريخ العلوم في الاسلام بتاريخها قبلهُ لان المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما انتجته عقول البشر من أول عهد المدنية الى ايامهم في العقليات والنقليات فورثوا علوم الكلدانيين والفينيقيين والمصريين والفرس واليونان والهنود . فجرَّنا النظر في ما نقله العرب من علوم تلك الامم الى البحث في تاريخ تلك العلوم عند كل منها . فكأن هذا الجزء من تاريخ التمدن الاسلامي يشتمل على خلاصة تاريخ العلم والفلسفة والادب من أول عهد العمران الى ظهور الاسلام فضلاً عن تاريخها فيه

وقد رسخ في اعتقاد بعض الكتبة من الافرنج وغيرهم ان المسلمين أو العرب قلما افادوا العلم لانهم نقلوه عن اليونان ولم يزيدوا فيه شيئاً من عند انفسهم . وذهب آخرون الى ان نقلهم لم يقتصر على استبقاء علم اليونان كما كان بل هم شوهوا ما نقلوه فأضروا العلم وافسدوه . وقد نشأ هذا الاعتقاد في زمن التعصب وتوالى وتنوقل الى أوائل هذا العصر . ولم يتعرض لتحقيقهِ او نقده احد من العرب او المسلمين

على ان المنصفين من مستشرقي الافرنج ذكروا للتمدن الاسلامي افضالاً على العلم اشاروا اليها باختصار . وقد توسع بعضهم في تعدادها بكلام اجمالي اذا قرأهُ العربي انشرح صدره فاذا اراد تحقيقهُ ذهب اكثر سعيهِ عبثاً . ووجه التحقيق ان نجد تلك المآثر مثبتة في كتب العرب القدماء لانها المصدر الوحيد لتاريخ الاسلام والمسلمين والآداب الاسلامية . واكثر ما كتبه الافرنج في هذه المواضيع مرجعهُ الى كتب العرب . فاذا رأينا في كتب الافرنج مأثرة منسوبة الى العرب ولم نجد لها ذكراً في كتبهم ضعفت ثقتنا في صحتها . اذ قد تكون منقولة عن بعض الرحلات الافرنجية في

العصور الوسطى وأكثرها يحتاج الى تمحيص . كرحلة بنيامين التودلي اليهودي التي وصف فيها القسطنطينية ومصر وسوريا وفارس الى حدود الصين في القرن الثاني عشر الميلاد فقد ضمنها من الحوادث والاخبار ما يخالف التاريخ فضلاً عما فيها من المبالغات والغرائب . كتبها الرحالة المذكور في اللغة العبرانية ثم نقلت الى اللاتينية في القرن السادس عشر والى الفرنساوية في القرن الثامن عشر والى الانكليزية في القرن التاسع عشر

ومن أمثلة ما جاء فيها انه كان في الاسكندرية على عهد الفاطميين عشرون مدرسة علمية وفي القاهرة عدد عظيم من المدارس الكلية وسترى في كلامنا عن تاريخ المدارس انها لم تبن بمصر الا بعد انقضاء عصر الفاطميين . ومع ذلك فاننا نرى كتابنا ينقلون هذه الاخبار على علاتها فرحاً بتعداد مآثر العرب ولو نقبوا عن اساسها لذهب فرحهم . وهذا ما نبهنا اليه صديقنا النعماني العالم الهندي في كتابه الذي نشرنا خلاصته في مقدمة الجزء الماضي اذ اقترح علينا ان نذيل صفحات كتابنا هذا بالمآخذ التي ننقل عنها وقد اطعناه . وأصبحنا لكثرة ما يعرض لنا من مغالط المؤرخين في هذا الصدد لا نثق الا بما يؤيد بالاسناد الى النصوص التاريخية او بقرينة لا تقل قوة عنه

على اننا لا نرى بدًّا من تصديق كتاب الافرنج فيما هو متعلق بادابهم او تاريخهم كحكاية الساعة التي يقولون ان هارون الرشيد اهداها الى شارلمان مثلاً وكقولهم ان عرب الاندلس علموهم الرقاص . وقول الباحثين في تاريخ الكيمياء مثلاً ان العرب استحضروا المركب الفلاني او اكتشفوا المادة الفلانية . واما في ما خلا ذلك فلا بدَّ من الرجوع الى المصادر العربية من كتب التاريخ والادب وهي كثيرة وفيها فوائد مهمة تظهر بالمطالعة والامعان . ولا ينبغي لنا ان ننسى فضل جماعة المستشرقين في نشر الكتب العربية التي لولاهم لضاعت أو ظلت في زوايا الاهمال . ونذكر منها على الخصوص كتاباً كثير الفائدة في هذا الموضوع نعني كتاب الفهرست لابن النديم والفضل في نشره للمستشرق غوستاف فلوغل وقد علق عليه ملاحظات جزيلة الفائدة ومقابلات مهمة شغلت مجلداً كاملاً

فجعلنا معوّلنا في استخراج الحقائق التاريخية التي بنينا عليها بحثنا في هذا الكتاب على الكتب العربية بعد التمحيص والانتقاد . واستيفاء لاسباب البحث تصفحنا ما كتبه في هذا الشأن افاضل الافرنج وغيرهم في الانكليزية والفرنساوية والالمانية وغيرها . ووقفنا على كتاب في اللغة الهندستانية (الاوردية) للنعماني المشار اليه سماه « رسائل شبلي » ذكر فيه فصولاً في مدارس العرب ومارستاناتهم ومكاتبهم وكتبهم ذيلها بالاسناد وهو كتاب جليل . وبعد الاطلاع على آراء العلماء وابحاثهم في هذا الموضوع رجعنا الى المصادر العربية فتصفحناها بامعان وتدقيق فعثرنا فيها على ما ادهشنا من ضخامة ذلك التمدن وخصوصاً في العلم والادب مما ستراه مفصلاً في هذا الجزء

موضوع هذا الجزء

وقد قسمنا الكلام في موضوع هذا الجزء الى علوم العرب قبل الاسلام وعلومهم بعده . فذكرنا أولاً خلاصة ما كان عند العرب الجاهلية من العلوم والآداب كالنجوم والانواء والميثولوجيا والكهانة والعرافة والطب والشعر والخطابة واندية الأدب والانساب والتاريخ و بحثنا في مصادر تلك العلوم بحثاً فلسفياً . وقسمنا الكلام في علوم العرب بعد الاسلام الى ثلاثة اقسام : أولاً العلوم التي اقتضاها الاسلام وسميناها العلوم الاسلامية . ثانياً العلوم التي كانت في الجاهلية وارتقت في الاسلام وهي الآداب العربية الجاهلية . ثالثاً العلوم التي نقلت من اللغات الاخرى وهي العلوم الدخيلة

وقبل النظر في هذه الاقسام قدمنا الكلام بمقدمات تمهيدية : (١) في الاسلام والعلوم الاسلامية وكيف تدرج العرب في وضعها واستلزمت بعضها بعضاً (٢) العرب والقرآن والاسلام وما كان من تأثير القرآن في نفوس العرب واكتفائهم به دون سواه (٣) ما جرّ اليه ذلك الاكتفاء من احراق ما عثروا عليه من كتب الاقدمين وخصوصاً مكتبة الاسكندرية (٤) في الرومان والاسلام والعلم وان الذين يقابلون بين الرومان والعرب في أسباب التمدن يظلمون العرب وانه يجب ان يقابل بين الرومان والاسلام (٥) ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم والسبب في ذلك (٦) تدوين العلم في الاسلام وعلة امساك العرب عن تدوينه الى آخر القرن الأوّل للهجرة (٧) الخط

العربي وتاريخه ووضع الحركات والاعجام وما الذي دعا الى ذلك

ولما فرغنا من هذه المقدمات انتقلنا الى البحث في العلوم الاسلامية وقسمناها الى العلوم الشرعية الاسلامية اي الدينية والعلوم اللسانية او اللغوية والعلوم التاريخية . وأبتدأنا من العلوم الشرعية بالقرآن وتاريخ جمعه وتدوينه وقراءته وتفسيره وتأثير أسلوبه في النفوس . ثم الحديث وما دعا الى وضعه واسناده وعدده . ثم الفقه ومصدره والفقهاء والرأي والقياس ومنزلة الفقهاء عند الخلفاء وكيف ترتبت تلك العلوم بعضها على بعض . ثم انتقلنا الى العلوم اللسانية وبينا انها مما اقتضاه الاسلام وفصلنا الاسباب التي دعت الى وضع النحو وذكرنا تاريخ الادب واللغة في البصرة والكوفة وبغداد وعلاقة ذلك بالسياسة . ونشرنا فصلاً في بلاغة الانشاء وتاريخها ومصيرها وأسبابها الفلسفية . ثم أتينا الى التاريخ والجغرافية فبينا الاسباب التي دعت الى وضعها ومزيتها في اللسان العربي عما في سائر الالسنة

ثم ذكرنا الآداب العربية الجاهلية وهي الخطابة والشعر وما كان للاسلام من التأثير فيهما وما نسبة الخطابة عند المسلمين الى خطابة الامم الاخرى . وما كان من حال الشعر وطبقاته واسلوبه ورواته وتأثيره في الدولة وعدد الشعراء واشعارهم

ثم تقدمنا الى العلوم الدخيلة التي نقلها المسلمون الى العربية وتمهيداً لفهم الموضوع قدمنا الكلام في تاريخ آداب الامم التي نقلت تلك العلوم عن ألسنتهم وأهمهم اليونان والفرس والهنود والكلدان . فذكرنا أولاً تاريخ آداب اللغة اليونانية منذ اقتبس اليونان العلوم من الكلدان والمصريين والفينيقيين حتى وضعوا التاريخ والفلسفة والنجوم وغيرها الى زمن الاسلام وتوسعنا خصوصاً في تاريخ الفلسفة ومامرّت به من الادوار الى سقراط فافلاطون فارسطو وتاريخ مؤلفات ارسطو . ثم تاريخ مدرسة الاسكندرية في عصريها اليوناني والروماني الى الفتوح الاسلامية . ثم ذكرنا آداب اللغة الفارسية وما كان من تأثير آداب اليونان عليها في مدرسة جنديسابور وغيرها . وبينا نحو ذلك في آداب الهنود والسريان باسباب متسلسلة مترابطة

ثم انتقلنا الى الكلام في العرب والعلوم الدخيلة وما الذي حملهم على نقلها واول

من اشتغل فيها قبل الدولة العباسية . ثم اشتغال المنصور في نقل النجوم والطب عن الهند والفرس والاسباب التي حملته على نقلها ثم المهدي والرشيد . وأسهبنا الكلام في المأمون والفلسفة والمنطق وما الذي حمله على نقلها . وأتينا بفصل خاص عن نقلة العلم في العصر العباسي وملخص تراجمهم وكلهم من غير المسلمين وفيهم النصراني واليهودي والصابي والمجوسي والسامري وفيهم النقلة من اليوناني او من الفارسي او الهندي او النبطي . وفصل في السوريين ونقل العلم بيّنا فيه ان السوريين ما زالوا منذ القدم ينقلون العلوم بين الامم

ثم تقدمنا الى ذكر الكتب التي ترجمت في تلك النهضة بالتفصيل عن كل لغة على حدة باعتبار المواضيع والمؤلفين وبازاء كل كتاب اسم ناقله . فذكرنا مانقل عن اليونانية فالفارسية فالهندية فالنبطية فالعبرانية فالقبطية وهي تعد بالمئات . وقد نقلت بسرعة لم تتفق لأُمة من الامم فذكرنا الاسباب التي ساعدت على تلك السرعة وفي جملتها محاسنة الخلفاء للعلماء غير المسلمين . ثم بحثنا في انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الاسلامية ونبوغ الفلاسفة والاطباء في الانحاء المتباعدة واشتغال الخلفاء والامراء انفسهم في العلم وتنشيط العلماء وتأليف الكتب لهم وما كانوا يبذلونهُ في هذا السبيل ثم بحثنا في المؤلفين وكثرتهم والمؤلفات وتعدادها وضخامتها

ثم نظرنا في تأثير التمدن الاسلامي في هذه العلوم . فبدأنا بالفلسفة وما ترتب عليها من علم الكلام وتاريخ تنقلها في ممالك المشرق وما كان من اضطهاد الخلفاء لاصحابها بعد النهضة العباسية حتى تألفت الجمعيات السرية ومن جملتها جمعية اخوان الصفا وكيف انتقلت رسائلهم الى الاندلس وما كان من تاريخ الفلسفة هناك . ثم تاريخ الطب الاسلامي والفرق بينه وبين الطب اليوناني او الفارسي او الهندي وانه جامع بينها كلها واحصينا الاطباء المسلمين وتاريخ المارستانات في الاسلام . ثم نظرنا في ما ادخله المسلمون من عند انفسهم في الطب وفروعه كالكيمياء والصيدلة والنبات وغيرها . ثم تاريخ النجوم او الفلك في الاسلام وتاريخ المراصد عندهم والفرق بين التنجيم والنجوم ومن نبغ من علماء الفلك في الاسلام وما احدثوه من الآراء الجديدة وآلات الرصد

الجديدة وما يلحق بذلك من الرياضيات كالحساب والجبر والهندسة . ثم تاريخ الفنون الجميلة وان المسلمين لم يقصروا فيها كما ظن الاكثرون . وختمنا الكلام في المدارس وتاريخ تأسيسها وأسبابه . ثم المكاتب عندهم وعدد ما حوته من الكتب مما يدل على فخامة العلم في ذلك التمدن العجيب . وبذلنا الجهد في تحقيق كل عبارة وتمحيص كل رأي بما يبلغ اليه الامكان ويأذن به المكان

ونغتنم هذه الفرصة للثناء على العلماء الافاضل الذين تلقوا خدمتنا بالرضى وذكروها بما هم أهله . ونخص منهم كبار المستشرقين في أوربا ممن وصل اليهم كتابنا المذكور فقد جاءتنا كتبهم ورسائلهم بعبارات الاستحسان والتنشيط وكتب بعضهم التقاريظ في المجلات الافرنجية . فاستحثنا ذلك على الاقتداء بهم في خدمة هذه اللغة التي سبقونا الى احياء علومها وآدابها ومهدوا لنا سبيل البحث فيها . فنستأذن الذين تفضلوا منهم بالكتابة الينا ان ندون أسماءهم في صدر هذا الجزء اقرارًا بفضلهم . وهذه اسماؤهم بالترتيب الهجائي :

الاستاذ دي كويه	في ليدن
« ديرنبرج	« باريس
« روزن	« بطرسبرج
« غولد تزير	« بودابست
« غويدي	« رومية
« مرجليوث	« اكسفورد

وسنغتنم فرصة أخرى لنشر ما جادت به قرائحهم في هذا الشأن . ونرجو ان يقع هذا الجزء موقع القبول لديهم

وأما الجزء الرابع من هذا الكتاب فسيصدر في السنة القادمة ان شاء الله . وموضوعه طبقات الناس والآداب الاجتماعية في المملكة الاسلامية والله الموفق في كل حال

علوم العرب قبل الاسلام

تمهيد في جزيرة العرب وأهلها

جزيرة العرب شحيحة المياه كثيرة الصحاري والجبال فلم يشتغل أهلها بالزراعة لجدب الارض • والانسان صنيعة الاقليم فنشأ العرب على ما تقتضيه البلاد المجدبة من الارتزاق بالسائمة والرحيل في طلب المرعى • فغلبت البداوة على الحضارة فيهم وانصرف اكثر همهم الى تربية الماشية وهي قليلة بالنظر الى احتياجاتهم منها فنشأ بينهم التنازع عليها وجرّهم التنازع الى الغزو واضطرهم الغزو الى الانتقال بخيامهم وانعامهم من نجع الى نجع ومن صقع الى صقع ليلاً ونهاراً وجوُّهم صافٍ وسماؤهم واضحة فعولوا في الاهتداء الى السبل على النجوم ومواقعها • واحتاجوا في مطاردة اعدائهم الى استنباط الادلة للكشف عن مخابئهم فاستنبطوا قيافة الأثر والجأهم ذلك أيضاً الى توقي حوادث الجو من المطر والاعاصير ونحوها فعنوا في التنبؤ عن حدوث الامطار وهبوب الرياح قبل حدوثها وهو ما يعبرون عنه بالانواء ومهاب الرياح

ودعاهم الغزو من الجهة الاخرى الى العصبية لتأليف الاحزاب فعمدوا الى الانساب يترابطون بها • والارتحال في الغزو ونحوه يقتضي العناية بالسلاح والخيل ولو كانوا أهل حضارة لاتقنوا صنع السلاح واما الخيل فبرعوا في تربيتها وانتقائها ومعالجة امراضها

والعرب اخوان الكلدانيين والبابليين والفينيقيين وغيرهم من اركان التمدن القديم فهم اهل ذكاء وتعقل لو سكنوا وادي الفرات او وادي النيل لكان منهم ما كان من أولئك او ما كان من جيرانهم التبابعة ولكنهم أقاموا في بادية صفا جوها واشرقت سماؤها فصفت اذهانهم وانصرفت قرائحهم الى قرض الشعر يصفون به وقائعهم او يبينون به انسابهم او يعبرون به عن عواطفهم • وقويت فيهم ملكة البلاغة فبرعوا في القاء الخطب يستنهضون بها الهمم او يدعون الى الحرب او السلم او للمفاخرة او المنافرة • ولولا ما في فطرتهم من الذكاء والتعقل لما ظهر منهم اكثر مما ظهر من جيرانهم في العدوة الغربية من البحر الاحمر فانهم ما زالوا من حيث المدنية على نحو ما كانوا عليه منذ قرون • وشأن جاهلية العرب من هذا القبيل شأن جاهلية اليونان في عصر هوميروس فلما تمدن العرب اتوا بمثل ما أتى به أولئك

على ان العرب لم يسلموا مما وقع فيه معاصروهم من الامم العظمى من اعتقاد الكهانة والعرافة وزجر الطير وخط الرمل وتعبير الرؤيا مما ينجم عن جهل الاسباب مع رغبة الناس في تعليل الحوادث ولذلك فقد كثر عندهم الكهان والعرافون ونحوهم

فالعلوم التي كانت شائعة في جزيرة العرب قبل الاسلام ضرورية باعتبار طبيعة ذلك الاقليم وطبائع اهله • وقد سميناها علوماً بالقياس على ما يماثلها عند الامم الاخرى في عصر العلم والا فالعرب لم يتعلموها في المدارس ولا قرأوها في الصحف ولا الفوا فيها الكتب لانهم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون وانما هي معلومات تجمعت في محفوظهم بتوالي الاجيال بالاقتباس او الاستنباط وتنوقلت في الاعقاب وهي تنمو وتتزايد حتى بلغت عند ظهور الاسلام بضعة عشر علماً بعضها من قبيل الطبيعيات والبعض الآخر من قبيل الرياضيات او الادبيات او الكهانة او ما يتعلق بذلك ولو أردنا التوسع في وصفها لضاق بنا المقام فنذكرها على سبيل الاختصار

واذا أمعنا النظر في مصادر تلك العلوم رأينا بعضها خاصاً بالعرب وقد نشأ عندهم والبعض الآخر دخيل اقتبسوه من الامم الاخرى — فالعلوم العربية الانساب والشعر والخطابة • والدخيلة النجوم والطب والانواء والخيل ومهاب الرياح والميثولوجيا والكهانة والعيافة والقيافة وغيرها كما سترى في ما يلي :

١ — علم النجوم عند العرب

الكلدان اساتذة العالم في علم النجوم وهم وضعوا أساساته ورفعوا اعمدته ساعدهم على ذلك صفاء سمائهم وجفاف هوائهم واستواء آفاقهم فرصدوا الكواكب وعينوا اماكنها ورسموا الابراج ومنازل القمر والشمس وحسبوا الخسوف والكسوف بآلات فلكية منذ بضعة واربعين قرناً وعنهم اخذ اليونان والهنود والمصريون وغيرهم من أهل التمدن القديم

وما زال الكلدان أوالبابليون اهل دولة وسلطان الى اوائل القرن الثامن قبل الميلاد فسطا عليهم الاشوريون فلم يؤثر ذلك شيئاً في ادابهم الاجتماعية لتشابه الشعبين لغة وديناً فلما كان القرن الخامس (ق ب) سطا عليهم الفرس وفتحوا بلادهم واستبدلوا الهتهم واستبدوا فيهم فثقل ذلك عليهم وضاقت الارض بهم فهاجر كثيرون منهم الى ما جاورهم من البلاد وخصوصاً بلاد العرب لانها كانت حمى المهاجرين من العراق ومصر والشام لامتناعها على الجنود بالصحاري الرمضاء ولسهولة الاقامة عليهم هناك لقرب لسان العرب من لسانهم

وكان في جملة المهاجرين اليها جماعة من الكهان واصحاب النجوم فتعلم العرب منهم احكامها وأخذوا عنهم اسماءها وتعلموا منهم مواقع الابراج ومناطقها ومنازل القمر والشمس وربما كان لهم علم بشيء من احكامها من عند انفسهم او مما وصل اليهم من طريق الهند أو غيرها • ولكن يقال بالاجمال ان العرب مديونون بعلم النجوم للكلدان وهم يسمونهم الصابئة — والصابئة ان لم يكونوا الكلدان انفسهم فهم خلفاؤهم او تلامذتهم (١) وكان الصابئة كثيرين في بلاد العرب وهم مثل منزلة النصارى أو اليهود • فاخذ العرب عنهم علم النجوم باصطلاحاته واسمائه وان كان معظم أسماء السيارات لا يردُّ الى أصله الكلداني فربما كان له أسباب عارضة ضاعت أخبارها

على ان بعضها لايزال أصله الكلداني ظاهراً فيه كالمريخ مثلاً فانها تقابل «مرداخ» الكلدانية لفظاً ومعنى • ولكن معظم تلك الاسماء قد ضاعت المشابهة اللفظية بينها وبقيت المشابهة المعنوية • فان «زحل» معناه في العربية الارتفاع والعلو وهي نفس دلالة «كاون» اسم هذا السيار في الكلدانية • واما الابراج ومنازل القمر فلا تزال كما كانت عند الكلدان لفظاً ومعنى — واليك اسماء الابراج عند كليهما

اسماؤها العربية	اسماؤها الكلدانية	اسماؤها العربية	اسماؤها الكلدانية
الحمل او الكبش	امرا	الميزان	ماساثا
الثور	تورا	العقرب	عقربا
الجوزاء او التوأمين	تامي	القوس اوالرامي	قشتا
السرطان	سرطان	الجدي	كديا
الاسد	اريا	الدلو	دولا
السنبلة	شبلتا	الحوت او السمكة	نونا

واما منازل القمر والشمس فقد تبدل بعض اسمائها كما اصاب السيارات • ولكن العبرة بالاكثر في قواعد هذا العلم ومصطلحاته فانها عند العرب كما كانت عند الكلدان تماماً حتى لفظ «منازل القمر» و «منازل الشمس» فان هذا التعبير هو نفس ما كان يعبر به الكلدان عن هذه المنازل وقد ابدلته الامم الاخرى التي اخذت هذا العلم عن الكلدان

---

(١) مختصر الدول ٢٦٦

مضت مدة نوء ولم يكن فيه مطر او حر او برد او ريح[1] ومن امثالهم « اخطأ نوءك » يضرب لمن طلب حاجة فلم يقدر عليها[2]

وكانوا اذا امطرت السماء نسبوا المطر الى تأثير النجم المتسلط في ذلك الوقت فيقولون مثلاً مطرنا بنوء المجرة او هذا نوء الخريف مطرنا بالشعرى . وقالوا ان النوء سقوط نجم ينزل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه في الشرق من انجم المنازل ولذلك كانت الانواء ٢٨ نوءًا او نجماً كانوا يعتقدون انها هي علة الامطار والرياح والحر والبرد . وفي اشعارهم امثلة كثيرة تدلُّ على علاقة احوال الجو او فصول السنة باقترانات الكواكب او طلوعها وقد نظموها شعراً ليسهل حفظها على الناس لقلة الكتابة عندهم — من ذلك قولهم :

اذا ما قارن القمر الثريا لثالثة فقد ذهب الشتاء

وقول الآخر

اذا ما البدر تمّ مع الثريا اتاك البرد اوله الشتاء

وقول الآخر

اذا ما قارن الدبران يوما لاربع عشرة قمر التمام
فقد حفّ الشتاء بكل ارض نوارس مؤذنات باحتدام
وحلق في السماء البدر حتى يقاص ظلال اعمدة الخيام
وذلك في انتصاف الليل شطراً ويصفو الجو من كدر الغمام

وقول الآخر

اذا ماهلال الشهر اول ليلة بدا لعيون الناس بين النعائم
اتتك رياح القر من كل وجهة وطاب قبيل الصبح كور العمائم

وقول الآخر

وقد برد الليل التمام باهله واصبحت العواء للشمس منزلا[3]

وكان عندهم لمطلع كل كوكب او منزل وصفٌ يدلُّ على تأثير ذلك في الطقس على اعتقادهم ومن هذا القبيل اعتقادهم تأثير النجوم في اعمال البشر على ما كان عند الكلدان[4] على انهم كثيراً ما كانوا يستدلون على المطر ايضاً بالوان الغيوم واشكالها فاقلُّ الغيوم مطراً

(١) البيروني ٣٣٩ (٢) الميداني ٢٠٢ ج ١ (٣) البيروني ٣٣٦

(٤) Rawlinson's Ancient Monarchies III. 425

عندهم البيضاء ثم الحمراء ثم السوداء ومن اقوالهم « السحابة البيضاء جفل والحمراء عارضٌ والسوداء هطلة » [1]

وكان العرب في حاجة الى معرفة مهاب الرياح للاهتداء في اسفارهم ولذلك فقد وضعوا لها الاسماء ولكنهم اختلفوا في عدد جهاتها فحسبها بعضهم ستة والبعض الآخر اربعة فاصحاب القول الثاني يعدّونها (١) مهب الصبا من الشمال (٢) مهب الشمال من المغرب (٣) مهب الدبور من الجنوب (٤) مهب الجنوب من المشرق و يزيد عليها اصحاب القول الاول النكباء بجانب الشمال والمحوة بجانب الجنوب واليك قول ذي الرمة في ذلك

اهاضيب انواء وهيفان جرّتا على الدار اعراف الجبال الاعافر
وثالثة تهوي من الشام حرجف لها سنن فوق الحصى بالاعاصر
ورابعة من مطلع الشمس اجفلت عليها بدقعاء المعا فقراقر
تحنّ بها النكب السوافي فاكثرت حنين اللقاح القاريات العواشر [2]

٣ — الميثولوجيا

ومما يلحق بعلم النجوم ايضاً ما يعبر عنه الافرنج بالميثولوجيا وهي عبارة عما كانوا يزعمون وقوعه بين الكواكب أو هي الآلهة عندهم من الحروب او الزواج او نحو ذلك من حوادث البشر على نحو ما ذكروهُ عن آلهة اليونان . فالعرب الهوا الاجرام وعبدوها وقد ضاع خبر ذلك لعدم تدوينه على اننا نستدل عليه من بعض ما وصل الينا من اسماء اصنامهم وعبادة بعض رجالهم . فاللات اسم للزهرة وقد اشتهر كثيرون بعبادتها وعبادة الشمس والقمر والشعرى وكانوا يتناظرون في افضلية بعضها على بعض قالوا « وابو كبشة اول من عبد الشعرى وكان يقول الشعرى تقطع السماء عرضاً ولا ارى في السماء شمساً ولا قمراً ولا نجماً يقطع السماء عرضاً غيرها » [2]

أما تشخيص تلك الاجرام وانزالها منزلة البشر فقد كان معروفاً عند العرب . ومن الاقاصيص الميثولوجية التي كانوا يتناقلونها ان الدبران خطب الثريا وأراد القمر ان يزوجه فابت عليه وولت عنه وقالت للقمر ما أصنع بهذا السبروت الذي لامال له فجمع الدبران قلاصه يتمول بها فهو يتبعها حيث توجهت يسوق صداقها قدامه يعنون القلاص . وان

(١) الميداني ١٠٩ ج ١ (٢) البيروني ٣٤٠ (٣) الخميس ٦٥ ج ١.

الجدي قتل نعشاً فبناته تدور به تريده • وان سهيلاً ركض الجوزاء فركضته برجلها فطرحته حيث هو وضربها هو بالسيف فقطع وسطها • وان الشعرى اليمانية كانت مع الشعرى الشامية ففارقتها وعبرت المجرة فسميت الشعرى العبور فلما رأت الشعرى اليمانية فراقها اياها بكت عليها حتى غمصت عيناها فسميت الشعرى الغميصاء(١)

ومن هذا القبيل تأليهم بعض المشاهير من الملوك او القواد او الاسلاف واعتبار البعض الاخر من نتاج الملائكة او الجان • فعندهم مثلاً ان بلقيس كانت أمها جنية وان جرهما كان من نتاج الملائكة وبنات آدم • وكذلك كان ذو القرنين عندهم أمه ادمية وأبوه من الملائكة(٢) واما أصل هذه الاعتقادات فاما هندي او يوناني او مصري أما الكلدان فقلما كانت لهم عناية بامثال ذلك

٤ — الكهانة والعرافة

هما لفظان لمعنى واحد وفرق بعضهم بينهما فقال الكهانة مختصة بالامور المستقبلة والعرافة بالامور الماضية • وعلى كل حال فالمراد بهما التنبؤ واستطلاع الغيب • على ان العرب كانوا يعتقدون في الكاهن القدرة على كل شيء فكانوا يستشيرونه في حوائجهم ويتقاضون اليه في خصوماتهم ويستطبونه في امراضهم ويستفتونه في ما أشكل عليهم ويستفسرون منه رؤاهم ويستنبئونه عن مستقبلهم • وبالجملة فالكهان عندهم هم أهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين شأن تلك الطبقة من البشر عند سائر الامم القديمة في بابل وفينيقية ومصر وغيرها

والكهانة من العلوم الدخيلة على العرب جاءتهم من بعض الامم المجاورة لهم والغالب في اعتقادنا ان الكلدان حملوها اليهم مع علم النجوم • ويؤيد ذلك ان الكاهن يسمى في العربية أيضاً « حازي » او « حزّاء » وهو لفظ كلداني معناه الاشتقاقي الناظر او الرائي او البصير وهو يدل عندهم على الحكيم والنبي • واما لفظ « الكاهن » فقد اقتبسه العرب بعدئذ من اليهود الذين نزحوا اليهم على أثر ما أصابهم من النكبات في أورشليم وخصوصاً بعد خرابها على يد طيطس سنة ٧٠ للميلاد وقد أخذ عنهم العرب كثيراً من الآداب والعادات مما لا يدخل في بحثنا

(١) الميداني ٣١٢ ج ٢ (٢) الدميري ١٨ ج ٢

وأما الكهانة فاصلها من عند الكلدان ولعل الذين حملوا علم النجوم الى العرب هم الكهنة الكلدانيون انفسهم فكانت الكهانة في جملة ما حملوه اليهم ويؤيد ذلك ان العرب كانوا يطلقون لفظ الحزاء على الكاهن والمنجم [1] على ان اهل بابل ما زالوا يتواردون الى بلاد العرب الى ما بعد الاسلام والعرب يجلونهم لعلمهم وتعقلهم

فالعرب كانوا يعتقدون في الكهنة العلم بكل شيء وان ذلك يأتيهم بواسطة الارواح فمن كان منهم يعتقد التوحيد نسب ذلك الى استطلاع الغيب عن أفواه الملائكة • واذا كان من عبدة الاصنام اعتقد احتلال الارواح في الاصنام واباحتها اسرار الطبيعة للكهان والسدنة فيقول العرب ان الاصنام تدخلها الجن (اي الارواح) وتخاطب الكهان وان الكاهن يأتيه الجني بخبر السماء وربما عبروا عنه بالهاتف • ومن اقوالهم «الاحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب »

فكل ما كان يصنعه الكاهن انما مصدره الغيب فاذا استطبه مريض من ريح او صداع عالجه بالرقى واذا استشاره في معضلة خط له في الرمل او نفث في العقد • واذا حكمه متخاصمان رمى لهما بالقداح واذا استطلعه سرقة أخذ قمقمة جعلها بين يديه ونفث فيها ونحو ذلك من الحركات الوهمية واذا استفسره برؤيا تمم وتظاهر باستطلاع الغيب

قلنا ان الكهانة اتت العرب من بين النهرين فالكهان القدماء كانوا في الغالب كلدانيين (او صابئة في قولهم) وكان العلم كله عندهم ثم تعدد الكهنة من اليهود وغيرهم ثم ما لبث العرب انفسهم ان أخذوا ذلك عنهم فنشأ الكهان منهم • على ان بعض العرب اقتصروا في ما تناولوه على علم دون آخر فكان بعضهم يتعاطى الطب فقط وبعضهم تعبير الرؤيا او القيافة او القضاء

(الكهان) واشتهر في بلاد العرب جماعة كبيرة من الكهان والكواهن اقدمهم شق وسطيح وحكاياتهما أشبه بالخرافات منها بالحقائق • فعندهم ان الأول كان شق انسان (اي نصفه) بيد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة وان سطيحاً كان لحماً يطوى كما يطوى الثوب لاعظم فيه غير الجمجمة ووجهه في صدره • ويزعمون ان هذين الكاهنين عاشا بضعة قرون الى غير ذلك من الاوهام • ومن الكهان الذين نبغوا في النهضة العربية قبل الاسلام خنافر بن التوأم الحميري وسواد بن قارب الدوسي • وفيهم من يعرفون بما ينسبون اليه من

---

(١) السيرة الحلبية ٤٨ ج ١

البلاد او القبائل كقولهم كاهن قريش وكاهن اليمن وكاهن حضرموت وغيرهم
ويقال نحو ذلك في العرافين واكثرهم ينسبون الى بلدانهم وقبائلهم كعراف هذيل وعراف نجد واشهرهم عراف اليمامة شهره عروة بن حزام ببيت قاله فيه — وكذلك الشعراء يشهرون ممدوحيهم — وهو قوله

أقول لعراف اليمامة داوني فانك ان داويتني لطبيب

وأما الكواهن من النساء فانهن عديدات منهن طريفة كاهنة اليمن وهي اقدمهن واليها ينسبون الانذار بخراب سد مأرب واتيان سيل العرم • وزبراء بين الشحر وحضرموت وسلمى الهمدانية الحميرية وعفيراء الحميرية وفاطمة الخثعمية بمكة وزرقاء اليمامة وغيرهن وينسبن الى القبيلة او المدينة ككهنة بني سعد يزعمون انها أقدم عهداً من شق وسطيح وانها استخلفتهما [1] وما زالت الكهانة في العرب حتى جاء الحديث في ابطالها وهو « لا كهانة بعد النبوة » [2]

وكان للكهان عند العرب لغة خاصة تمتاز بتسجيع خصوصي يعرف بسجع الكهان مع تعقيد وغموض • ولعلهم كانوا يتوخون ذلك للتموية على الناس بعبارات تحتمل غير وجه كما يفعل بعض مشايخ التنجيم في هذه الايام حتى اذا لم يصدق تكهنهم جعلوا السبب قصور الناس في فهم قول الكاهن • ومن أمثلة سجع الكهان مايروونه عن طريفة كاهنة اليمن حين خاف أهل مأرب سيل العرم وعليهم مزيقياء عمر بن عامر فانها قالت لهم « لا تؤموا مكة حتى أقول وما علمني ما أقول الا الحكم المحكم رب جميع الامم من عرب وعجم » قالوا لها « ما شأنك يا طريفة » قالت « خذوا البعير الشذقم تخضبوه بالدم تكن لكم ارض جرهم جيران بيته المحرم» [3]

(القيافة) ومن قبيل الكهانة أيضاً القيافة لكنها تختص بتتبع الآثار والاستدلال منها على الاعيان وهي قسمان قيافة الاثر وقيافة البشر • والاولى تختص بتتبع آثار الاقدام او الحوافر او الاخفاف والاستدلال من آثارها في الرمال أو التراب على أصحابها • والفائدة من ذلك الاهتداء الى الفارّ من الناس او الضال من الحيوان وقد أتقن العرب ذلك حتى فرق بعضهم بين أثر قدم الشاب والشيخ وقدم الرجل والمرأة والبكر والثيب • وأما قيافة البشر فهي

---

(١) السيرة الحلبية ٣٦ ج ١ (٢) كشف الظنون ٣٣٩ ج ٢
(٣) الاغاني ١١٠ ج ١٣

الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما في النسب والولادة وسائر أحوالهما وهي من قبيل الفراسة

وكانت القيافة شائعة في العرب ثم اختصت بعض القبائل بها دون البعض الآخر · واشهر العرب بقيافة الاثر بنو مدلج و بنو لهب · ولا تزال هذه القيافة شائعة الى اليوم في بعض قبائل نجد و يقال انهم بنو مرة وهم اعلم الناس بها حتى لقد يعرف احدهم الانسان من اثره وربما نظر الى اثر بعير فقال هذا بعير فلان وكثيرون منهم يميزون بين العراقي والشامي والمصري والمدني

والفراسة كانت شائعة في العرب وكانت لهم فيها براعة يستدلون بهيئة الانسان واشكاله والوانه واقواله على اخلاقه ومناقبه وهي من قبيل الذكاء وسرعة الخاطر وسجية طبيعية

ومن قبيل الكهانة تعبير الرؤيا وكان معروفًا عند العرب وكانوا يفزعون الى الكهان في تفسير الاحلام على ان كثيرين من غير الكهان كانوا يتعاطونها اشهرهم ابو بكر الصديق (١)

ومن هذا القبيل زجر الطير وخط الرمل وقد اغضينا عنهما لضيق المقام

٥ — الطب في الجاهلية

الطب من جملة العلوم التي وضع اساسها الكلدان كهنة بابل وهم اول من بحث في علاج الامراض فكانوا يضعون مرضاهم في الازقة ومعابر الطرق حتى اذا مرَّ بهم احد اصيب بذلك الداء فيعلمهم بسبب شفائه فيكتبون ذلك على الواح يعلقونها في الهياكل ولذلك كان التطبيب عندهم من جملة اعمال الكهان · وعن الكلدان اخذت سائر الامم القديمة وفي جملتها العرب وهو متشابه عند تلك الامم في مصر وفينيقية واشور · ثم تناوله اليونان فاتقنوهُ ورتبوا ابوابه وعنهم اخذ الرومان والفرس · ونظرًا لمعاصرة العرب لهذه الدول فقد اقتبسوا شيئًا من طبها اضافوه الى ما جاءهم به الكلدان والى ما استنبطوه من عند انفسهم بالاختبار فتالف من ذلك ما عبرنا عنه بالطب في الجاهلية ولا يزال كثيرٌ منه باقيًا الى اليوم في قبائل البادية · وكان للتطبيب عندهم طريقتان الاولى طريقة الكهان والعرافين والثانية طريقة العلاج الحقيقية · فالكهان كانوا يعالجون بالرقي والسحر كما تقدم او بذبح الذبائح في الكعبة والدعاء فيها او بالتعزيم او نحو ذلك

(١) السيرة الحلبية ٢٩١ ج ١

وكان التطبيب بالرقى شائعاً في الامم القديمة كلها وقد وجدوا في الآثار المصرية كثيراً من العزائم التي كانوا يصفونها لمعالجة المرضى . وجاء من اخبارهم ان كاهنهم كان اذا سار لمعالجة مريض صحبه خادمان احدهما يحمل كتاب العزائم والثاني يحمل صندوق العقاقير الطبية وهم يعالجون بالاثنين جميعاً . وكانوا يوجهون كلامهم في العزيمة او الرقي الى احد آلهتهم وخصوصاً ايزيس واوزيرس ورع ولهم عبارات يقولونها عند صنع الادوية وعند مناولتها للمريض فمن امثلة العزائم التي كانوا يتلونها عند تناول الدواء « هذا هو كتاب الشفاء لكل مريض فهل لايزيس ان تشفيني كما شفت حوريس من كل الم اصابه من اخيه ست حينما قتل اباه اوزيريس فيا ايزيس انت الساحرة الكبيرة اشفيني وخلصيني من كل شيء مكدر رديء شيطاني ومن امراض اللبسة والامراض القاتلة والخبيثة بانواعها التي تعتريني كما خلصت ابنك حوريس . . . »[1] وكان عندهم عزائم لاخراج الارواح الشريرة التي تسبب الامراض في زعمهم . فعلى هذه الكيفية كان العرب يتلون العزائم لاصنامهم ويرقون لاخراج الجان او الشياطين . وكان اعتقادهم من هذا القبيل انهم اذا خافوا وباءً نهقوا نهيق الحمار يزعمون ان ذلك يمنعهم من الوباء وان دماء الملوك يشفي من الخبل

واما معالجاتهم العقارية فشبيهة بما كان عند المصريين وغيرهم من الامم القديمة فقد كانوا يعالجون بالعقاقير البسيطة او الاشربة وخصوصاً العسل فانه كان قاعدة العلاج في امراض البطن — على ان اعتمادهم في معالجة الامراض كان معظمه عائداً الى الجراحة كالحجامة والكي ومن اقوالهم « كل داء حسم بالكي آخر الامر وآخر الطب الكي » وكثيراً ما كانوا يعالجون بالقطع او البتر والغالب ان يكون ذلك بالنار فان النار عندهم كانت تقوم مقام مضادات الفساد عندنا . فاذا ارادوا فصل عضو احموا شفرة بالنار وقطعوه بها كما فعلوا بصخر بن عمرو اخي الخنساء لما نتأت قطعة من جوفه مثل الكبد على اثر طعنة فاحموا له شفرة وقطعوها[2]

وكانوا يعالجون حول البصر بادامة النظر الى حجر الرحى في دورانه ويزعمون ان العين تستقيم به . ومن معالجاتهم التي نعدها اليوم خرافة ان المجروح اذا شرب الماء مات[3] واذا خافت المرأة حتى برد قلبها سقوها ماء حاراً[4]

(١) بغية الطالبين ٢٥٨ (٢) الاغاني ١٣٧ ج ١٣

(٣) الاغاني ١٣١ ج ١٤ (٤) الاغاني ٣٢ ج ١٠

الاطباء واما الاطباء فقد كانوا في اول الامر من الكهنة ثم تعاطى الطب جماعة من العرب ممن خالطوا الروم والفرس واخذوا الطب عنهم فاشتهروا بهذه الصناعة واكثرهم من اهل النهضة الاخيرة قبل الاسلام حوالي القرن السادس للميلاد . على ان بعضهم اقدم من ذلك كثيرًا واقدم اطبائهم لقمان وهو حكيمهم وفيلسوفهم وفي اصله وزمن وجوده اختلاف . يليه رجل من تيم الرباب يقال له ابن حذيم ويضربون به المثل بالحذاقة في الطب فيقولون لمن ارادوا وصفه بذلك اطبُّ من ابن حذيم وفيه يقول اوس بن حجر :

فهل لكم فيها اليَّ فانني بصير بما اعيى النطاسي حذيما

ومن احدث اطباء الجاهلية الحرث بن كلدة توفي سنة ١٣ للهجرة وهو من بني ثقيف من اهل الطائف رحل الى ارض فارس واخذ الطب من جنديسابور وتعاطى صناعة الطب هناك واكتسب مالاً ثم عاد الى بلاده واقام في الطائف ونال شهرة واسعة وقد ادرك الاسلام وكان النبي يأمر من كان به علة ان يأتيه فيستوصفه — ومنهم ابن ابي رومية التميمي والنضر بن الحرث بن كلدة

واكثر هؤلاء الاطباء تناولوا الطب من بلاد الفرس او الروم وبعضهم اخذهُ عن الكهان او الاحبار من الاديار ونحوها . وربما اخذوا عنهم شيئًا من الفلسفة القديمة كما فعل النضر المذكور . والظاهر ان بعضهم كان يخصص نفسه للاعمال الجراحية فيغلب عليه لقب الجراح واشهر جراحي الجاهلية ابن ابي رومية التميمي فقد كان جراحًا مزاولاً لاعمال اليد [1]

ونظرًا لعناية العرب بخيولهم وابلهم كان بعض الاطباء يخصص نفسه لمعالجتها مما يعبرون عنه اليوم بالبيطرة . ومن بياطرة الجاهلية العاص بن وائل [2]

٦ — الشعر في الجاهلية

الشعر عند العرب الكلام المقفى الموزون وهو تعريف النظم وليس تعريف الشعر . لان النظم غير الشعر اذ قد يكون الرجل شاعرًا ولا يحسن النظم وقد يكون ناظمًا وليس في نظمه شعرٌ — وان كان النظم يزيد الشعر طلاوة ووقعًا في النفس . فالنظم هو القالب الذي يسبك فيه الشعر . واما الشعر باعم معانيه فيصعب الاختصار في تعريفه لما ينطوي تحته من اساليب التعبير وما يؤثره في النفس مما لا يستطيع تاثيره الكلام المرسل . والفرق بينهما

(١) طبقات الاطباء ١١٦ ج ١ (٢) المعارف لابن قتيبة ١٩٤

انما نعبر بالكلام المرسل عما نشاهده او نستنتجه من اعمال الحياة بالقياس او البرهان واما الشعر فنعبر به عن شعورنا بالانفعالات النفسية بلا قياس ولا برهان · فالكلام المرسل « لغة العقل » والشعر « لغة النفس او القلب » وقال بعضهم « الشعر صورٌ ظاهرة لحقائق غير ظاهرة »

ولذلك فالشعر قديم لم تخل منه امة من امم العالم قديماً ولا حديثاً وهو مرآة آداب الناس وصحيفة اخلاقهم وديوان اخبارهم ومصحف اديانهم · لان الانسان ارتقت نفسه وتحرك قلبه قبل ان ارتقى عقله وتهذبت مداركه فتكلم بالشعر قبل ان تكلم في العلم ولذلك كان اقدم اخبار الناس من قبيل الخيال واقدم المحفوظ من مدونات الامم كتب الشعر وقد دونوا فيها شعائرهم الدينية والادبية او الحماسية او غير ذلك من صور الانفعالات النفسية · فالمهابهاراتة والرامايانة عند الهنود والالياذة والاوديسية عند اليونان والانياذة عند الرومان وبعض اسفار التوراة عند اليهود والشهنامة عند الفرس انما هي شعر حفظت فيها عادات تلك الامم واخلاقهم واخبارهم وخصوصاً من حيث العبادة والآلهة · وذلك طبيعي لان الشعر كما قلنا لغة النفس تعبر به عن انفعالها وتطلب به مشتهاها لا تقدم على ذلك برهاناً ولا تطلب دليلاً · والدين اكثر اعمالها حاجة الى التسليم والطواف في عالم الخيال

الشعر العبراني والشعوب الساميّة اكثر الامم اعراقاً في عالم الخيال ولذلك كانوا اميل الناس الى اعتقاد التوحيد والتدين بما لا يقع تحت الحواس ولهذا السبب ايضاً كانوا اقرب الناس طبعاً الى التصورات الشعرية وترى ذلك واضحاً في ما خلفوه من الآثار الشعرية · واقدم آثار الساميين من هذا القبيل التوراة وقد وجدوا التصورات الشعرية في اقدم اسفارها · فما كلام لامك لامرأتيه عادة وصلة في سفر التكوين (ص ٤ ع ٢٣) الاّ جزء من نشيد ضاع ولم يبق منه الاّ مطلعه وفي اصله العبراني ما يدل على انه شعرٌ موزون ومقفى · فهو اقدم منظومات العبرانيين بل اقدم الشعر المقفى في العالم على الاطلاق

وفي التوراة امثلة كثيرة من التصور الشعري كقول يشوع لموسى لما سمع جلبة الشعب عند نزول موسى من الجبل ولوحا الشهادة معه (خروج ٣٢ : ١٧) « صوت حرب في المحلة » فقال موسى « ليس ذلك صياح ظفر ولا صياح هزيمة بل صوت غناء انا سامع » والمظنون ان هذه الفقرة بيتٌ قديم تمثل به موسى في تلك الحال وقس عليه

وهناك اسفار كلها شعر كسفر ايوب ويقال ان اصله عربي وسفر اشعيا ومزامير داود وغيرها مما هو مشهور · وقد بلغ الشعر العبراني اسمى درجاته في ايام سليمان الحكيم لاستتباب الامن وسعة الملك ورخاء العيش وهو العصر الذهبي عند اليهود مثل عصر المأمون عند

العرب . وكان سليمان نفسه حكيماً وشاعراً كما كان المامون ايضاً

﴿ الشعر العربي ﴾ والعرب كالعبرانيين في استعدادهم الفطري لقرض الشعر والاستغراق في عالم الخيال لانهم ساميون مثلهم . واللغة العربية اكثر استعداداً للتعبير الشعري من العبرانية لما فيها من المترادف والمتوارد واساليب المعاني والبيان . واذا اعتبرنا الاقليم والبيئة رأينا العرب اولى بالتصور الشعري من اليهود نظراً لانطلاقهم في الصحاري واستقلالهم في احكامهم وافكارهم وسائر احوالهم . ولذلك كان شعرهم اكثره من قبيل الحماسة والفروسية واما اليهود فالذل والانكسار والتدين هي الصفات المميزة لاشعارهم

على ان الغالب في الشعر ان يكون منظوماً وان اختلفت الامم في كيفية نظمه فاكتفى بعضهم ان يكون موزوناً غير مقفى والبعض الآخر مقفى غير موزون او مقفى وموزون معاً . والعرب يشترطون في شعرهم الوزن والتقفية والا فهو ليس من قبيل الشعر عندهم خلافاً لما هو عند اخوانهم السريان والعبران . فقد كان السريانيون القدماء ينظمون بلا قافية اي بلا التزام قافية واحدة كافرام السرياني واسحق الانطاكي وغيرهما [1] . والعبرانيون لم يكونوا يشترطون هذا ولا ذاك وربما اشترطوا القافية دون الوزن — ولذلك لما سمعوا آيات القرآن بما فيها من التصور الشعري الديني مع التزام القافية قالوا هذا شعرٌ بالقياس على الشعر في لسانهم

ولا ريب ان للوزن والقافية رنة تزيد المعنى الشعري تاثيراً في النفس لا انها هي تجعله شعراً . فالخطابة تؤثر في النفوس وتهيج العواطف وكلاهما غير موزون ولا مقفى وهي من قبيل التصورات الشعرية وسيأتي الكلام عليها

﴿ كيف توصلوا للنظم ﴾ فالتصورات الشعرية فطرية في العرب اما النظم فحادثٌ عندهم . وربما صاغوا الشعر اولاً بعبارات قصيرة تحفظ وتتناقل على سبيل الامثال ومنها الامثال الحكمية ونحوها . والظاهر انهم قضوا اجيالاً والنظم عندهم على سبيل الامثال حتى اتفق لبعضهم وهو يقول المثل انه جعله شطرين مسجوعين في مثل واحد او مثلين متآلفين فرأى في ذلك رنة فترنم به واخذه عنه الناس وجعلوا يتغنونه في حدوهم وانشادهم وراء ابلهم — والغناء لسان طبيعي — فاعجبتهم رنة القافية والوزن فزادوا شطراً او شطرين او اكثر على قافية واحدة وهو الرجز في ابسط احواله : وظلوا دهراً طويلاً يقول شاعرهم من الرجز البيتين او الثلاثة اذا هاجت فيه قريحة الشعر لمفاخرة او مشاتمة او منافرة وكانوا كلما نبغ

(١) شعراء السريان ا

فيهم نابغة ادخل في النظم تحسيناً ٠ وقد ذكروا ممن حسنوا نظم الرجز العجاج والاغلب العجلي [1] ولم يعينوا زمنه

اما القصيد فاشهر من اطلق سراحه امرؤ القيس امام الشعراء وجده المهلهل من اهل القرن الخامس للميلاد ٠ فالمهلهل يقولون انه اول من قصد القصائد وامرؤ القيس اول من اطالها وتفنن في نظمها وفتح الشعر وبكى ووصف وهو اول من شبه الخيل بالعصا واللقوة والسباح والظباء [2] ورقة النسيب وغير ذلك ولعله تنبه لهذا التفنن في اثناء اسفاره في بلاد الروم فسمع اشعارهم او اشعار اليونان والنبيه تنتبه قريحته بالاختلاط فزاد اختباره فادخل في الشعر ما ادخله ٠ وكان الشعراء الجاهلية قلما يدخلون بلاد الروم وانما كانوا يقفون على الحدود في البلقاء عند بني غسان او في الحيرة عند بني لخم المناذرة الاّ قليلاً

فالعرب مطبوعون على الشعر (١) لانهم ساميون اهل خيال من فطرتهم (٢) لانهم سكنوا البادية وتعودوا الحرية والاستقلال (٣) لان نشؤ نهم البدوية قضت بينهم بالتنازع والتنافر والتفاخر مما يشحذ الاذهان ويستحث البدائه (٤) لان لغتهم تساعدهم على النظم ٠ والعرب امة قديمة ولذلك وجب ان تنظم الشعر من قديم الزمان والحال ان اقدم ما وصل الينا من اشعارهم لا يتجاوز القرن الثاني قبل الهجرة فهل كان العرب قبل ذلك ينظمون؟ والغالب في اعتقادنا انهم نظموا كما نظم العبرانيون ولا يبعدان يكون سفر ايوب من بقايا شعرهم القديم وقد حفظ في العبرانية وضاع اصله العربي ٠ ولو لم يحفظ في العبرانية لضاع كما ضاع غيره من منظومات العرب لجهلهم الكتابة ولانقطاعهم عن الامم التي كانت تعرفها في ذلك العهد

كثرة شعر العرب على اننا نكتفي في الاستدلال على كثرة ما نظمه العرب باعتبار ما وصل الينا من اشعارهم في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام [3] فقد نظموا في قرن واحد او قرنين مالم يجتمع عند امم العالم المتمدن في عدة قرون وخصوصاً في العصر الجاهلي فالياذة هوميروس هما معظم شعر جاهلية اليونان ولا يزيد عدد ابياتهما على ٣٠,٠٠٠ بيت وكذلك واوذ يسيته مها بهاراتة الهنود ٣٠,٠٠٠ بيت وراماياناتهم ٤٨,٠٠٠ بيت [4] واما العرب فيؤخذ مما بلغنا من اخبارهم عما نظموه في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام انه يربو على اضعاف اضعاف ذلك ٠ فهم يعدون منظوماتهم بالقصائد وليس بالابيات فقد

(١) المزهر ٢٤٣ ج ٢ (٢) الشعر والشعراء ٥٢

(٣) تاريخ التمدن الاسلامي ٢٢ ج ١ (٤) Litt. Hist. of India 213

ذكروا ان ابا تمام صاحب كتاب الحماسة كان يحفظ من اشعار العرب (الجاهلية) ١٤,٠٠٠ ارجوزة غير القصائد والمقاطع [1] وكان حماد الراوية يحفظ ٢٧,٠٠٠ قصيدة [2] على كل حرف من حروف الهجاء الف قصيدة . وكان الاصمعي يحفظ ١٦,٠٠٠ ارجوزة [3] وكان ابو ضمضم يروي اشعاراً لمائة شاعر كل منهم اسمه عمرو [4] . ومع ما يظن في ذلك من المبالغة فانه يدلُّ على كثرة ما خلفه العرب من المنظومات . وخصوصاً اذا اعتبرنا ان ما وصل الى رواة الشعر في الاسلام انما هو بعض اشعار الجاهلية لان كثيرين من رواة الشعر الجاهلي قتلوا في الفتوح الاسلامية فضاع ما كان في محفوظهم من الاشعار — قال ابو عمرو ابن العلاء « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » [5]

وزد على ذلك ان العرب نظموا الشعر الكثير وابدعوا فيه وهم يكادون يكونون فوضى لا دولة لهم ولا جامعة ولا دين ولا شيء مما حمل اليونان او الهنود او غيرهم على النظم وانما اندفعوا اليه بفطرتهم . ولولا ذلك لتأخروا في النظم حتى قامت دولتهم ونضجت قرائحهم كما حدث للرومانيين فان الشعر لم ينظم بلسانهم الا بعد تأسيس دولتهم ببضعة قرون . ولم يبلغ الشعر اللاتيني عصره الذهبي الا في ايام اوغسطس وطيباريوس نحو القرن الثامن من تأسيس رومية (القرن الاول للميلاد) ثم اخذ في التقهقر . ويقال نحو ذلك في دول اوربا الحالية فان الشعر لم ينضج عندهم الا بعد نشوء دولهم وتقدمهم في العلم والادب

اقسام الشعر والشعر من حيث موضوعه ينقسم الى قسمين كبيرين الاوّل ما يعبر به الشاعر عن عواطفه وعواطف ذويه والثاني ما يصف به احوال الآخرين والاوّل هو الذي يسميه الافرنج Lyric اي الغنائي او الموسيقي من Lyre العود ويدخل فيه حكاية كل ما تشعر به النفس من الحب والشوق والوجد والرثاء والحماسة والفخر والانتقام . او ما علمته بطول الاختبار والتعقل كالامثال والحكم ونحوها . والثاني يشمل سائر ضروب الشعر ويدخل فيه الشعر القصصي الذي يسميه الافرنج Epic وهو عبارة عن نظم الحوادث والوقائع شعراً والشعر الوصفي والتمثيلي Drama . فاشعار الامم الساميّة اكثرها من النوع الاوّل وخصوصاً العبرانيون فانهم ارثى اهل الارض وابكاهم واشكاهم . فالمزامير والمراثي

(١) ابن خلكان ١٢١ ج ١ (٢) النجوم الزاهرة ٤٢٠ ج ١
(٣) ابن خلكان ١٢١ ج ١ وطبقات الادباء ١٥١
(٤) الشعر والشعراء ٤ (٥) المزهر ٢٣٧ ج ٢

ونحوها من قبيل العواطف . والامثال والجامعة من الحكم . ويقال بالاجمال ان الخيال الشعري منصرف في العبرانيين الى الاحساس الديني كالتعبد والشكوى والاستسلام

ويقال نحو ذلك في العرب غير ان الخيال الشعري فيهم منصرف الى ما تدعو اليه احوالهم من المفاخرة والحماسة والتشبيب وذكر السيف والفرس . وقد عدوا من اشعارهم بضعة عشر نوعًا معظمها من قبيل الشعر الموسيقي الذي يعبر به عن العواطف كالغزل والفخر والمدح والهجاء والعتاب والاعتذار والزهد والرثاء والتهاني والوعيد والتحذير والحماسة وبعضها من قبيل الوصف كالزهريات والخمريات وبعضها من قبيل العظة كالادب والحكم . ولو تدبرت معانيها لرأيتها ترجع الى التعبير عن عواطف الشاعر او عواطف قبيلته

واما الشعر الوصفي او القصصي فلا نقول انه معدوم في العربية ولكنه قليل وخصوصًا في الجاهلية واكثر ما عثروا عليه منه لايخرج عن وصف بعض الادوات او الحيوانات او بعض الوقائع القصيرة . واما الشعر القصصي على نحو ما في الياذة هوميروس او شاهنامة الفردوسي فلا وجود له عندهم . ولا يدلُّ ذلك على انهم لم ينظموا مثلها بل يغلب على ظننا انهم نظموا كثيرًا من اخبار حروبهم المشهورة بين قبائلهم ونظرًا لعدم تدوينها ضاعت من محفوظهم الا قطعًا بقيت الى زمن تدوين الشعر في الاسلام تقتصر القصيدة منها على وصف وقعة او بعض وقعة من تلك الحروب والمقام لا يساعدنا على زيادة البحث

وكان الشعر فطريًّا في العرب يندر فيهم من لا يستطيعه حتى المجانين واللصوص [1] ناهيك بالنساء فقد نبغ منهنَّ جماعة كبيرة من الشواعر . ومن لم يستطع الشعر لم يفته الاجتماع في المجالس العمومية لسماعه او مناشدته . وكثيرًا ما كانت النساء يعقدنَ المجالس لمناشدة الاشعار وذكر الشعراء ونقد اقوالهم وبيان ما يتفاضل به بعضهم على بعض [2] وكان اكثرهم ينظمون الشعر وهم اطفال لم ينظروا في الادب او الشعر [3] فمن شبَّ ولم تتفتق قريحته عدُّوا ذلك نقصًا فيه وعيبًا على اهله

منزلة الشعر فكانوا يثيرون بذلك غيرة ابنائهم على اتقان الشعر ويحرضونهم على نظمه . لان الشعراء كانوا حماة الاعراض وحفظة الآثار ونقلة الاخبار وربما فضلوا نبوغ الشاعر فيهم على نبوغ الفارس ولذلك كانوا اذا نبغ فيهم شاعرٌ من قبيلة اتت القبائل الاخرى فهنأتها به وصنعت الاطعمة واجتمع النساء يلعبنَ بالمزاهر كما يصنعنَ في الاعراس

(١) البيان والتبيين ١٦٤ ج ٢ (٢) الاغاني ١٥٠ ج ١ (٣) ابن خلكان ٢٣ ج ٢

وتتباشر الرجال والولدان لاعتقادهم انه حماية لاعراضهم وذب عن احسابهم وتخليد لمآثرهم واشادة لذكرهم [1] وفي الواقع ان ما بقي لنا من اخبار العرب الجاهلية وآدابهم وعلومهم واخلاقهم انما هو منقول عن اشعارهم

فمن شعرهم استخرج الناس اخبار ايامهم وحروبهم ومنه الف السجستاني كتاب المعمرين ومنه استخرجوا احوال الشعراء المتقدمين وألفوا الكتب كابن قتيبة وغيره . ومن شعرهم استخرجوا وصف البلاد والجبال والاودية والوهاد ومنه ألفوا ما ألفوه في الحيوان والنبات ككتاب الحيوان للجاحظ والنبات لابي حنيفة الدينوري . ومن اشعارهم استطلعوا اديانهم في ايام جاهليتهم وقس على ذلك كل ما عرفوه من عاداتهم وآدابهم في الضيافة والفروسية والاعراس والمآتم وغيرها

وقد ذكروا شعراء حموا اعراض قبائلهم ببلاغة شعرهم كما حمى زياد الاعجم قبيلة عبد القيس من لسان الفرزدق وكما حمى عتبة بن ربيعة بني قصي وغيرهما كثيرون [2]

وقد بلغ من احترام العرب للشعر والشعراء انهم عمدوا الى سبع قصائد اختاروها من الشعر القديم وكتبوها بماء الذهب في القباطي (التيل المصري) بشكل الدرج الملتف وعلقوها في استار الكعبة وهي المعلقات ولذلك يقال لها المذهبات ايضاً كمذهبة امرء القيس ومذهبة زهير [3] و بعضهم يجعل المذهبات غير المعلقات . ونخبة اشعار الجاهلية ٤٩ قصيدة لتسعة واربعين شاعراً تقسم الى سبعة مجاميع كل مجموع سبع قصائد تعرف بلقب خاص وهي : المعلقات والمجمهرات والمنتقيات والمذهبات والمراثي والمشوبات والملحمات . وهي مجموعة في كتاب جمهرة اشعار العرب لابي زيد الانصاري

تأثير الشعر اما تاثير الشعر في حماية الاعراض فسببه ما فطر عليه العرب من الحماسة والخيال فيتأثرون بالكلام البليغ وربما اقامهم البيت الواحد واقعدهم . ولذلك كانوا يخافون هجو الشعراء و يفتخرون بمدائحهم حتى عمر بن الخطاب فانه كان اذا عرض عليه الحكم بين شاعرين كره ان يتعرض للشعراء واستشهد رجالاً للفريقين مثل حسان بن ثابت وغيره [4] وقد اشترى اعراض المسلمين من الحطيئة بثلاثة آلاف درهم ليؤكد الحجة عليه [5] وبلغ من شدة خوفهم الهجاء لئلاّ يبقى ذلك محفوظاً في الاعقاب انهم اذا اسروا

(١) المزهر ٢٣٦ ج ٢ (٢) بلوغ الارب ٩١ ج ٣ (٣) العقد الفريد ٩٣ ج ٣
(٤) البيان والتبيين ٩٧ ج ١ (٥) فوات الوفيات ٩٩ ج ١

الشاعر أَخذوا عليه المواثيق . وربما شدوا لسانه بنسعة لئلاً يهجوهم كما صنعوا بعبد يغوث بن وقاص الحارثي حين اسره بنو تيم يوم الكلاب . وهو الذي يقول :

اقول وقد شدوا لساني بنسعة   امعشر تيم اطلقوا من لسانيا
وتضحك مني شيخةٌ عبشمية   كأن لم ترَ قبلي اسيرًا يمانيا (١)

فكانوا يبذلون قصارى الجهد في ان يمدحهم الشعراء . ومن مدحوه ارتفعت منزلته واذا كانت له بنات تزوجن كما فعل الاعشى الاكبر بالمحلق اذ مدحه الاعشى بقصيدة انشدها في سوق عكاظ فاشتهر وخطبت بناته . وكما فعل مسكين الدارمي في انفاق الخُمُر السود بعد كسادها ببيتين وصف بهما مليحة عليها خمار اسود وهما :

قل للمليحة في الخمار الاسود   ماذا اردت بناسك متعبد
قد كان شمّر للصلاة ثيابه   حتى قعدت لهُ بباب المسجد

فرغب الناس بلبس الخمر السود فاشتروا منها ما كان عند ذلك التاجر (٢) وسيأْتي باقي الكلام على تأْثير الشعر في النفوس في كلامنا عن العصر الاسلامي

القاب الشعراء وكان الشاعر يلقب بلفظ ورد في بعض اشعاره . كعوف بن سعد بن مالك لقب بالمرقش لقوله

الدار قفرٌ والرسوم كما   رقش في ظهر الاديم قلم

وجرير بن عبد المسيح الضبعي لقب بالمتلمس لقوله

فهذا اوان العرض حتى ذبابه   زنابيره والازرق المتلمس

وزياد بن معاوية الذبياني لقب بالنابغة لقوله

وحلّت في بني القين بن جسر   وقد نبغت لنا منهم شؤون

ويقال نحو ذلك في سائر القابهم كالمخرق وافنون وتأَبط شرًّا واعصر والمستوعر والاعسر وطرفة وذي الرمة والمزرد وعويق وجران العود والعجاج وموسى الشهوات والرقيات وصريع الغواني وغبار العسكر ومقبل الريح وغيرهم (٣)

وكانت قبائل العرب تتفاوت في شاعريتها واشعرها ربيعة ومنهم المهلهل والمرقشان الاكبر والاصغر وطرفة بن العبد وعمرو بن قميئة والحارث بن حلزة والمتلمس والاعشى

(١) البيان والتبيين ١٧١ ج ٢   (٢) ابن خلكان ٤٤٦ ج ١
(٣) لطائف المعارف ١٧

والمسيب ثم انتقل الشعر الى قيس ومنهم النابغتان وزهير بن ابي سلمى وربيعة ولبيد والحطيئة والشماخ وغيرهم . ثم استقر الشعر في تميم ومنهم اوس بن حجر شاعر مضر ويليهم هذيل وغيرها وكان في حمير جماعة من الشعراء(1) ومن الغريب ان العرب كانت تقر لقريش بالتقدم عليها في كل شيء الا الشعر فانها كانت لا تقرُّ لها به(2) والظاهر ان اختلاط العرب بالاعاجم كان يفتق قرائحهم ويحملهم على النظم ولذلك كان اكثر القبائل شاعرية اقربهم الى العراق واشعرهم من اختلط بالفرس واشعر من كليهما من عاشر الفرس والروم

وبالجملة فقد كان الشعر شائعاً في العرب ولم تخلُ قبيلة من شاعر او غير شاعر يحمي ذمارها ويصف عواطفها وكان الشعر عندهم مستودع الاخبار وخزانة الآداب والاخلاق ولذلك قيل الشعر ديوان العرب . ومن قبيل الشعر الامثال فانها مرآة العادات والاخلاق والآداب واستخرج الناس كثيراً من آداب العرب الجاهلية من امثالها

٧ — الخطابة في الجاهلية

الخطابة تحتاج الى خيال وبلاغة ولذلك عددناها من قبيل الشعر او هي شعرٌ منثور وهو شعرٌ منظوم وان كان لكل منهما موقف . فالخطابة تحتاج الى الحماسة ويغلب تأثيرها في ابناء عصر الفروسية واصحاب النفوس الابية طلاب الاستقلال والحرية مما لا يشترط في الشعر . ولذلك تشابهت جاهلية العرب وجاهلية اليونان من هذا الوجه لان كليهما اهل شعر وخطابة واهل اباء واستقلال . ولذلك ايضاً كانت الخطابة رائجة عند الرومان مع تأخر الشعر عندهم ولنفس هذا السبب قصّر العبرانيون في الخطابة مع تقدمهم في الشعر لغلبة الذل والضعف على طباعهم فتحول خيالهم الشعري الى الشكوى والتضرع وانصرفت قرائحهم الى نظم المراثي والحكم

اما العرب فقد قضى عليهم الاقليم بالحرية والحماسة وهم ذوو نفوس حساسة مثل سائر اهل الخيال الشعري فاصبح للبلاغة وقعٌ شديد في نفوسهم فالعبارة البليغة قد تقعدهم او تقيمهم بما تثيره في خواطرهم من النخوة . واقتضت المنازعات بينهم ان يتفاخروا ويتنافروا فاحتاجوا الى الخطابة في الاقناع وتأليف الاحزاب وان غلب في مواضيع خطبهم المفاخرة بالاحساب والآداب في المجالس والاندية العمومية والخصوصية . وكانوا يخطبون وعليهم

(١) بلوغ الارب ٩٣ ج ٣ (٢) الاغاني ٣٥ ج ١

العمائم وهم وقوف في ايديهم المخاصر و يعتمدون على الارض بالقسي و يشيرون بالعصي والقنا وقد يخطبون وهم جلوس على رواحلهم(١) . ومما يدل على تشابه الشعر والخطابة ان الغالب في الشعراء ان يخطبوا والخطباء ان ينظموا فيكون الواحد شاعراً وخطيباً فاذا غلب عليه الشعر سموه شاعراً او الخطابة سموه خطيباً . والقبائل التي كثر خطباؤها هي غالباً التي كثر شعراؤها . ومن اقوالهم في تاريخ الشعر والخطابة ان عبد القيس بعد محاربة اياد تفرقوا فرقتين ففرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين وهم من اشعر القبائل ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي معدن الفصاحة(٢) و يدل ذلك على ماقدمناه من نتائج احتكاك الافكار عند الاختلاط بالاعاجم ولهذا السبب كثر الخطباء ايضاً في اليمن لاختلاطهم بالفرس وكان الفرس اهل خطابة مثل العرب

مواضيع الخطب وكان العرب يخطبون بعبارة بليغة فصيحة وهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون وانما كانت الخطابة فيهم قريحة مثل الشعر وكانوا يدربون فتيانهم عليها من حداثتهم(٣) لاحتياجهم الى الخطباء في ايفاد الوفود مثل حاجتهم الى الشعراء في حفظ الانساب والدفاع عن الاعراض . ولكنهم كانوا يقدمون الشاعر على الخطيب في الجاهلية فلما جاء الاسلام صار الخطيب مقدماً لحاجتهم اليه في الاقناع وجمع كلمة الاحزاب . ولكن نظراً لحاجة العرب الى الخطباء في ارسال الوفود فقد كان خطيب القبيلة عندهم عميدها وزعيمها وهو واحد يعدل قبيلة ولسان يعرب عن السنة

اما ايفاد الوفود فقد كان شائعاً في تلك العصور فكانت دول الروم والهند والصين والفرس يتبادلون الوفود لمبادلة العلائق او للمفاخرة . ولم يكن للعرب دولة تستوفد من قبلها ولكن المناذرة ملوك العرب في العراق كانوا يذكرون فصاحة العرب بين يدي الاكاسرة وخصوصاً كسرى انو شروان فكان يميل الى مشاهدتهم . فاتفق مرة ان النعمان خاطبه في ذلك فطلب اليه ان يريه واحداً منهم فاستقدم جماعة من خطباء العرب اختار من كل قبيلة اثنين او ثلاثة هم بالحقيقة حكماؤهم ووجهاؤهم ومنهم اكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة من قبيلة تميم والحرث بن ظالم وقيس بن مسعود من قبيلة بكر وخالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل من بني عامر وغيرهم . فقدموا على كسرى وخطب كل منهم بين يديه

(١) البيان والتبيين ٣٠ ج ٢ (٢) البيان ٤٢ و١٣٩ ج ١

(٣) البيان ٥٨ و ٩٨ ج ١

خطاباً ذكره ابن عبد ربه مفصلاً في الجزء الثالث من العقد الفريد

على ان عرب اليمن وشرقي جزيرة العرب كانوا يقدمون على كسرى للشكوى من عماله هناك وكان غيرهم من العرب يفدون عليه بالهدايا من الخيل ونحوها على سبيل الاستجداء كما فعل ابو سفيان والد معاوية

وكانوا يفدون على الامراء من العرب وغيرهم كوفود حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر بالحيرة وعلى آل جفنة في البلقاء . ووفود وجهاء قريش على سيف بن ذي يزن في اليمن بعد قتله الحبشة وفدوا عليه للتهنئة بالنصر وكان في جملة خطباء ذلك الوفد عبد المطلب جد النبي . ومن هذا القبيل وفود القبائل على النبي بعد ان استتب له الامر فقد جاءه من كل قبيلة وجهاؤها وخيرة بلغائها لاعتناق الاسلام او للاستفهام او غير ذلك . ومن هذا القبيل وفود العرب على الخلفاء للتسليم والتهنئة كوفود جبلة بن الايهم وعمرو بن معدي كرب على عمر بن الخطاب ووفود اهل اليمامة على ابي بكر وغيرهم مما يطول شرحه

الخطباء وجملة القول ان الخطباء كانوا عديدين في النهضة الجاهلية كالشعراء والغالب فيهم ان يكونوا امراء القبائل او وجهاءها او حكماءها . وكان لكل قبيلة خطيب او غير خطيب كما كان لها شاعر او غير شاعر . واشهر خطباء الجاهلية قس بن ساعدة من بني اياد وقد ادركه النبي فرآه في سوق عكاظ على جمل احمر وهو يقول في خطابه « ايها الناس اجتمعوا فاسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت »(1)

ومنهم سحبان وائل الباهلي الذي يضرب المثل بفصاحته فيقال « هو اخطب من سحبان وائل » وكان اذا خطب يسيل عرقاً ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ . ومنهم جماعة كبيرة من حمير كدويد بن زيد وزهير بن خباب ومرثد الخير وغيرهم من سائر القبائل كالحارث بن كعب المذحجي وقيس بن زهير العبسي والربيع ضبيع الفزاري وذو الاصبع العدواني واكثم بن صيفي التميمي وعمرو بن كلثوم التغلبي وكثيرون غيرهم

وكانوا يتخيرون في خطبهم الالفاظ الرقيقة المعاني المألوفة . وكانت خطبهم على ضربين الطوال والقصار والقصار اكثر عدداً لانهم كانوا يفضلونها لسهولة حفظها . وكانوا لشدة عنايتهم بالخطب يتوارثونها ويتناقلونها في الاعقاب ويسمونها باسماء خاصة كالعجوز اسم خطبة لآل رقية والعذراء خطبة قيس بن خارجة والشوهاء خطبة سحبان وائل (2)

---

(1) البيان والتبين ١١٩ ج ١ (2) البيان ١٣٣ ج ١

٨ — مجالس الادب وسوق عكاظ

كان العرب يعقدون المجالس لمناشدة الاشعار ومبادلة الاخبار والمسامرة او البحث في بعض الشؤون العامة وكانوا يسمون تلك المجالس الاندية ومنها نادي قريش ودار الندوة كانت بجوار الكعبة • على انهم كانوا حيثما اجتمعوا على فراغ من العمل عمدوا الى المناشدة والمفاخرة والمسامرة وخصوصاً في المواسم المعبر عنها بالاسواق

(الاسوق) والمراد بالسوق مكان يجتمع فيه اهل البلاد او القرى في اوقات معينة يتبايعون ويتداولون ويتقايضون • ولا تزال امثـال هذه الاسواق تقام الى اليوم في القرى او في البلاد البعيدة عن التمدن الحديث • على ان في بعض المدن الكبرى كالقاهرة مثلاً اسواقاً تنعقد في بعض ايام الاسبوع وتعرف بها كسوق السبت او السبتية وسوق الثلاثاء او الاربعاء • فيجتمع اليها الناس من الضواحي للبيع والشراء

ومن هذه الاسواق ما ينعقد كل اسبوع ومنها ما لا ينعقد الا مرة في الشهر او في السنة ومنها ما ينعقد مرة كل بضع سنين • فان للهنود سوقاً يقيمونها في هردوار على ضفاف الكنج كل سنة ويبلغ عدد المجتمعين هناك في الموسم ٣٠٠,٠٠٠ نفس • ويقيمون في ذلك المكان حجاً مرة كل ١٢ سنة يبلغ عدد الحاجين اليه نحو مليون نفس وهو اكبر اسواق العالم • وامثال هذه الاسواق كثيرة في روسيا وبلاد الدولة العلية وفي جرمانيا وفرنسا وانكلترا واميركا • ففي روسيا سوق تقام في مدينة نوفكرود مرتين في السنة يبلغ عدد الذين يؤمونها ١٢,٠٠٠ نفس يجتمعون هناك من سائر بلاد روسيا ومن شرقي اوربا ويقدرون قيمة ما يباع من البضائع في اسواق روسيا بنحو ١٢,٠٠٠,٠٠٠ روبل في العام وقس على ذلك سائر الاسواق الكبرى

وقد كان كثير من امثال هذه الاسواق في العالم القديم • ولكن الاقدام لا تتزاحم فيها الا اذا كان الغرض من الاجتماع حجاً دينياً • فاذا اجتمع الناس في مكان الحج وتكاثروا احتاجوا الى من يبيعهم الاطعمة والاشربة وغيرها فتقام الاسواق لهذه الغاية — كذلك كان شأن العرب في سوق عكاظ وغيرها من اسواق الجاهلية

(اسواق العرب) كان للعرب في الجاهلية اسواق يقيمونها في اشهر السنة وينتقلون من احداها الى الاخرى يحضرها العرب من قرب منهم ومن بعد • فاذا فرغوا من سوق انتقلوا الى سواها فكانوا ينزلون دومة الجندل في اعالي نجد اول يوم من شهر

ربيع الاول فيقيمون اسواقها للبيع والشراء والاخذ والعطاء ثم ينتقلون الى سوق هجر فيقيمون هناك شهراً ويرتحلون منها الى عمان فيقيمون سوقهم ثم يرتحلون الى حضرموت فعدن وبعضهم ينزل صنعاء فيقيمون اسواقهم ثم يرتحلون الى عكاظ في الاشهر الحرام وكانت لهم اسواق أخر في صحار والشحر والمجنة وحباشة والمشقر وغيرها [1]

﴿ سوق عكاظ ﴾ واشهر اسواق العرب الجاهلية سوق عكاظ وهي مكان بين الطائف ونخلة • فكانت العرب اذا قصدت الحج اقامت بهذه السوق من اول ذي القعدة يبيعون ويشترون الى عشرين منه ثم يتوجهون الى مكة فيقضون مناسك الحج ثم يعودون الى اوطانهم • وكان كل شريف انما يحضر سوق بلده الا عكاظ فانهم كانوا يتوافدون اليها من كل ناحية • ومن كان له أسير سعى في فدائه هناك ومن كانت له حكومة ارتفع الى الذي يقوم بامر الحكومة في أيام المواسم وهم أناس من تميم • ومن كان له ثأر على أحد ولم يعرف مكانه طلبه في الموسم • او أراد أحد ان يعمل عملاً تعرفه العرب او يستشهدها فيه عمله في عكاظ [2] أو أراد ان يفاخر احداً على مشهد من الناس فاخره هناك • وكانوا يتفاخرون حتى في كبر المصائب — ذكروا ان الخنساء لما أصيبت بمصابها المشهور اعلنت انها اكبر العرب مصيبة فبلغ ذلك هند بنت عتبة وكانت تعتقد انها اكبر مصيبة منها فأمرت بهودجها فسوّم براية وشهدت الموسم بعكاظ فقالت « اقربوا جملي بجمل الخنساء » ففعلوا فلما دنت منها قالت لها الخنساء « من أنت يا أخية » قالت « أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة وقد بلغني انك تعاظمين العرب بمصيبتك فبم تعاظمينهم » فقالت الخنساء « بعمرو بن الشريد وصخر ومعاوية ابني عمرو وبم تعاظمينهم أنت » قالت « بأبي عتبة بن أبي ربيعة وعمي شيبة بن ربيعة وأخي الوليد قالت الخنساء « أوسواء هم عندك » ثم أنشدت تقول :

ابكي ابي عمراً بعين غزيرة	قليل اذا نام الخلي هجودها
وصنويّ لا أنسى معاوية الذي	له من سراة الحرتين وفودها
وصخراً ومن ذا مثل صخر اذا غدا	بسلهبة الابطال قبا يقودها
فذلك يا هند الرزية فاعلمي	ونيران حرب حين شب وقودها

فقالت هند تجيبها :

ابكي عميد الابطحين كليهما	وحاميها من كل باغ يريدها

(١) نهاية الارب (خط) (٢) الاغاني ٢ ج ١٣

أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي وشيبة والحامي الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب وفي العز منها حين ينمى عديدها [1]

فاذا كانت هذه حالهم في المفاخرة بالمصائب فكيف بالانساب والاحساب والشجاعة والفضل ولذلك كثر الخصام هناك وانتشبت عدة مواقع لا محل لذكرها هنا

وانما يهمنا في هذا المقام ان العرب كانوا يغتنمون وقت الموسم واجتماع القبائل ويقيمون مجالس البحث والمناشدة والمفاخرة فينشد الشعراء ويخطب الخطباء فيختارون كبيراً من وجهائهم يجعلونه حكماً في ما يختلفون فيه • وكان النابغة الذبياني اذا أتى عكاظ في الموسم ضربوا له قبة حمراء من ادم وتأتيه الشعراء فتعرض عليه اشعارها [2] ليحكم فيها ويقال انهم كانوا اذا أقروا على فضل قصيدة علقوها هناك او في الكعبة ومنها المعلقات السبع

وشأن العرب في ذلك مثل شأن اليونان القدماء في الجمناسيوم وهي ابنية كانوا يجتمعون فيها للالعاب البدنية وفيهم الفلاسفة والعلماء فكانوا يغتنمون فرصة وجودهم هناك ويتباحثون ويتناظرون ويتنافرون كما كان يفعل العرب في عكاظ • ولا يخفى ما في ذلك من تمحيص الحقائق واستحثاث القرائح فضلاً عما كان يترتب على ذلك الاجتماع من تنقيح اللغة ونموها • فان قريش كانوا يسمعون لغات القبائل في اثناء تلك الاجتماعات فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا افصح العرب وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الالفاظ كالكشكشة والكسكسة والعنعنة والفحفحة والوكم والوهم والعجعجة والاستنطاء والشنشنة وغير ذلك من العيوب في لغات الامم الاخرى [3]

٩ — الانساب في الجاهلية

(الانساب) كان للانساب في عصور الجاهلية عند الامم القديمة شأن كبير وكان للناس عناية عظمى في حفظ انسابهم للتناصر على الاعداء او للتفاخر بالآباء • وقد بالغ اليونان في ذلك حتى حفظوا انساب آلهتهم وكيفية تسلسلها بعضها من بعض ثم نسبوا انفسهم اليها فلم يكن في جاهلية اليونان اسرة كبيرة من الاشراف ورجال السلطة الا وحبل نسبها يتصل ببعض تلك الآلهة • وقد نظم بعضهم الاشعار للتفاخر بذلك قبل المسيح ببضعة قرون • وكذلك كان الرومان في اقدم اجيالهم فالطبقة التي تعرف عندهم بالبطارقة

(١) الاغاني ٣٥ ج ٤ (٢) الشعر والشعراء ١٩٧ (٣) المزهر ١٠٩ ج ١

كانوا يدعون الانتساب الى آباء أعلى طبقة من البشر • ومن هذا القبيل انتساب اليهود الى الآباء الاولين والانبياء وافتخارهم بذلك على سائر الامم• وهم يمتازون في هذا عن اليونان والرومان انهم يرجعون جميعاً الى اب واحد — وهذا ايضاً من قبيل ميلهم الفطري الى التوحيد مثل سائر الامم السامية

(نسب العرب) والعرب من حيث انسابهم فرع من العبران لان العدنانيين منهم يرجعون في أصل آبائهم الاولين الى اسماعيل بن ابرهيم والقحطانيين ينتسبون الى يقطان ابن عابر وقد زادت عناية العرب في الانساب رغبة في التناصر على الغرباء او بعضهم على بعض • وقد رتبت انساب العرب في ست مراتب او طبقات أولها الشعب ثم القبيلة فالعمارة فالبطن فالفخذ فالفصيلة • فالشعب النسب الابعد مثل عدنان وقحطان ثم القبيلة وهي ما انقسمت فيها انساب الشعب مثل ربيعة ومضر ثم العمارة وهي ما انقسمت فيها انساب القبائل مثل قريش وكنانة ثم البطن وهو ما انقسمت فيه انساب العمارة مثل بني عبدمناف وبني مخزوم ثم الفخذ وهو ما انقسمت فيه انساب البطن مثل بني هاشم وبني أمية ثم الفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس [١]

وبالغ العرب في الرجوع الى الاجداد حتى رجعوا باسماء المدن الى اسماء بعض اجدادهم والغالب ان ينتهي النسب باحد آباء التوراة فاذا سئل أحدهم مثلاً عن الاندلس من بناها قال « بناها اندلس بن يافث بن نوح » [٢] وكان النسابون يحفظون اسماءَ القبائل وما يتفرع منها حفظاً دقيقاً فاذا عرض لهم رجل فقال انا من بني تميم مثلاً فانسبني فأنه يبدأ من قبيلة تميم وما تفرع منها من العمائر والبطون والافخاذ حتى ينتهي الى الفصيلة ومنها الى والد السائل او اليه هو نفسه

وكثر النسابون في الجاهلية ولم تخلُ قبيلة او عمارة او بطن من نسابة او غير نسابة ومن اشهرهم دغفل السدوسي من بني شيبان وعميرة ابو ضمضم وابن لسان الحمرة من بني تيم اللات وزيد بن الكيس النمري والنخار بن أوس القضاعي وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان وغيرهم [٣] وظل النسب محفوظاً في صدر الاسلام واشتهر كثير من النسابين فلما آلت الدولة الى الموالي والمصطنعين صار الناس ينتسبون الى مواليهم ومصطنعيهم

(١) الماوردي ١٩٤ (٢) ابن خلكان ١٤ ج ١
(٣) بلوغ الارب ١٩٦ ج ٣ والبيان ١١٨ ج ١

١٠ — التاريخ

لم يكن عند العرب الجاهلية تاريخ من قبيل ما نفهمه من هذه اللفظة اليوم ولكنهم كانوا يتناقلون اخبارا متفرقة بعضها حدث في بلادهم والبعض الآخر نقله اليهم الذين عاشروهم من الامم الاخرى . فمن امثال اخبارهم حروب القبائل المعروفة بايام العرب وقصة سد مأرب واستيلاء ابي كرب تبان اسعد على اليمن وبعض من خلفه وملك ذي نواس وقصة اصحاب الاخدود وفتح الحبشة لليمن وقصة اصحاب الفيل وقدومهم الكعبة وحرب ذي يزن الحميري الى آخر ما انتهى اليه امر الفرس في اليمن وقصة عمرو بن لحي واصنام العرب وحكاية جرهم ودفن زمزم وتاريخ الكعبة الى ايام قصي بن كلاب وولاية الحج وامر عامر بن الظرب ثم ما كان من غلب قصي على امر مكة وقصة حلف المطيبين وحلف الفضول وحفر بير زمزم وحرب الفجار وحديث بنيان الكعبة . غير اخبار عاد وثمود وغيرهما من العرب البائدة وحكاية بلقيس وسليمان ونحوهما من اخبار التوراة وغير ذلك من الاخبار التي كان العرب يتناقلونها عند ظهور الاسلام

﴿ الخلاصة ﴾ وجملة القول ان ما سميناه علوم العرب قبل الاسلام يبلغ الى بضعة عشر علما فلما جاء الاسلام اهمل بعضها كالكهانة والعيافة والقيافة وبقي بعضها عنداهله ونشأ ما يقوم مقامه في عصر الحضارة كالنجوم والانواء ومهاب الرياح والطب والخيل وارتقى الباقي واتسع عما كان في الجاهلية كالشعر والخطابة والبلاغة وكان الاسلام مساعدا على ارتقائها بالقرآن



علوم العرب بعد الاسلام

نريد بها العلوم التي اشتغل بها المسلمون من اول الاسلام الى ابان التمدن الاسلامي وهي كثيرة يمكن حصرها في ثلاثة مجاميع

(١) العلوم التي اقتضاها الاسلام وهي علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والتاريخ ونسميها العلوم الاسلامية او الآداب الاسلامية

(٢) العلوم التي كانت في الجاهلية وارتقت في الاسلام وهي الشعر والخطابة ونسميها الآداب الجاهلية او الآداب العربية

(٣) العلوم التي نقلت الى العربية من اللغات الاخرى كالطب والهندسة والفلسفة والفلك وسائر العلوم الطبيعية والرياضية ونسميها العلوم الدخيلة او الاجنبية

وقبل البحث في هذه العلوم وعلاقتها بالتمدن الاسلامي نمهد الكلام بمقدمات لابد من تدبرها قبل الخوض في الموضوع :

مقدمات تمهيدية

١ — الاسلام والعلوم الاسلامية

كان العرب في ما ذكرناه من علومهم واخبارهم واطوارهم اذ جاءهم القرآن فبغتوا لما رأوه من بلاغة اسلوبه على غير المالوف عندهم . لانه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجع ولا نظم الشعراء المقفى الموزون وقد خالف كليهما . وهو منثور مقفى على مخارج الاشعار والاسجاع فلا هو شعر ولا نثر ولا سجع وفيه من البلاغة واساليب التعبير مالم يكن له شبيه في لسانهم فسحروا باسلوبه وبما حواه من الشرائع والاحكام والاخبار . فلما دانوا بالاسلام اصبح همهم تلاوته وتفهم احكامه لانه قاعدة الدين والدنيا وبه تتأيد السلطة والخلافة . ثم اشكل عليهم بعض ما فيه واختلفوا في تفسيره فعمدوا الى الاقوال المأثورة عن النبي (الاحاديث) يستوضحون بها ذلك الاشكال فاصبح همهم جمع الاحاديث ممن سمعها او رواها عن سامعها بالاسناد المتسلسل فرأوا تباينًا في الروايات فاشتغلوا في التفريق بين صحيحها وفاسدها فرجعوا الى درس الاسانيد واستطلاع اخبار اصحاب الحديث

فجرّهم ذلك الى درس طبقات المحدثين والاحوال التي تناولوا تلك الاحاديث فيها

ولما قامت دولتهم اخذوا في ضرب الاموال على البلاد التي فتحوها او غنموها . وضرائبها تختلف شكلاً ومقداراً باختلاف طريق الفتح بين ان يكون عنوةً او صلحاً او اماناً او قوةً فبحثوا في تحقيق اخبار الفتوح والمغازي وتدوينها . ولما فسدت الاحكام في ايام بني امية اكثر العلماء من ذكر المواعظ وايراد اخبار السلف من الصحابة وخصوصاً الخلفاء الراشدين فاجتمع من ذلك تاريخ النبي والصحابة والتابعين

والنظر في احكام القرآن والسنّة لابد فيه من فهم العبارة وتدبرها فنشأ من ذلك علم التفسير وباسناد نقله وروايته واختلاف القراء بقراءته تولد علم القراءات . وباسناد السنّة الى صاحبها والتفريق بين طبقات الحديث والمحدثين تولدت علوم الحديث . ثم لابدّ من استنباط هذه الاحكام من اصولها على وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهو علم اصول الفقه ثم الفقه فالعقائد الايمانية ثم علم الكلام

ولما عمدوا الى تلاوة القرآن والحديث وتفسيرهما اشكل على غير العرب اعرابهما لان ملكة اللغة غير راسخة فيهم فاضطروا الى تدوين اللغة وترتيب قواعدها وتعيين معاني الفاظها — ولذلك كان اكثر المشتغلين بعلوم اللغة من الاعاجم — وتعيين معاني الالفاظ وضبط التلفظ بها دعاهم الى البحث عن لغة قريش التي كتب بها القرآن وقد رأيت ان مرجع التحقيق في ذلك الى الاشعار والامثال فاشتغلوا في الاسفار الى بادية العرب وخالطوا الاعراب ونقلوا اشعارهم واقوالهم وامثالهم ليدونوها ويرجعوا اليها في التحقيق . فرأوا مشقة في فهم معاني اشعارهم وامثالهم الاّ بالاطلاع على انسابهم واخبارهم وآدابهم فلم يكن لهم بد من درس ذلك كله وهو ما يعبرون عنهُ بعلم الادب . واختلفوا في فهم الاشعار ووجدوا في روايتها اختلافاً وفي بلاغتها تفاوتاً فعمدوا الى البحث في طبقات الشعراء واماكنهم واشعارهم واخبار قبائلهم

وكان الراحلون في التقاط اللغة والشعر من افواه العرب في مضاربهم يقفون على سائر علومهم كالنجوم والانواء والخيل والانساب وغيرها فلما عادوا لتدوين اللغة . دونوا ايضاً كثيراً من تلك العلوم ولذلك كان اصحاب هذه العلوم غالباً من علماء اللغة وعثروا ايضاً على الفاظ واشعار يندر ورودها فالفوا النوادر

وجملة القول ان ما اشتغل به المسلمون في صدر الاسلام من العلوم مرجعه الى القرآن فهو المحور الذي تدور عليه العلوم الادبية واللسانية فضلاً عن الدينية ولذلك سميناها العلوم الاسلامية

٢ — العرب والقرآن والاسلام

كان الاسلام في اول امره نهضة عربية والمسلمون هم العرب وكان اللفظان مترادفين فاذا قالوا العرب ارادوا المسلمين وبالعكس · ولاجل هذه الغاية امر عمر بن الخطاب باخراج غير المسلمين من جزيرة العرب واصبح اهل الجزيرة كلهم مسلمين وهم عرب [١]

واساس الاسلام وقوامه القرآن ففي تأييده تأييد الاسلام او العرب · وتمكن هذا الاعتقاد في الصحابة لما فازوا في فتوحهم وتغلبوا على دولتي الروم والفرس فنشأ في اعتقادهم انه لا ينبغي ان يسود غير العرب ولا يتلى غير القرآن وشاع هذا الاعتقاد خصوصاً في ايام بني امية وقد بالغوا فيه حتى آل ذلك فيهم الى نقمة سائر الامم عليهم

اما في الصدر الاول فقد كان الاعتقاد العام « ان الاسلام يهدم ما كان قبله » [٢] فرسخ في الاذهان انه لا ينبغي ان ينظر في كتاب غير القرآن لانه جاء ناسخاً لكل كتاب قبله · وقد نهي الشرع الاسلامي يومئذٍ عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن لاتحاد الكلمة واجتماعها على الاخذ به · ومن الاحاديث المأثورة من هذا القبيل « لا تصدقوا اهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد » ورأى النبي في يد عمر ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال « الم آتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى حيًّا ما وسعه الاَّ اتباعي » [٣] ومن الاحاديث التي شاعت في ذلك العهد « كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم » [٤]

فتوطدت العزائم على الاكتفاء به عن كل كتاب سواه ومحو ما كان قبله من كتب العلم في دولتي الروم والفرس كما حاولوا بعدئذ هدم ايوان كسرى واهرام مصر وغيرها من آثار الدول السابقة — فلا غرو اذا قيل ان العرب احرقوا مكتبة الاسكندرية او غيرها من خزائن العلم القديم

(١) الجزء الاول ٥١ (٢) النجوم الزاهرة ٣٧ ج ١

(٣) ابن خلدون ٣٦٤ ج ١ وكشف الظنون ٢٥ ج ١ وابجد العلوم ١٠٩

(٤) العقد الفريد ١٥٨ ج ١

٣ — احراق مكتبة الاسكندرية وغيرها

انشأ البطالسة في القرن الثالث قبل الميلاد مكتبة في الاسكندرية جمعوا اليها كتب العلم من اقطار العالم المتمدن في ذلك الحين وسيأتي خبرها . وتوالى على هذه المكتبة احوال كثيرة في ايام الرومان الى الفتح الاسلامي وقد ضاعت بين احراق ونهب والمؤرخون من العرب وغيرهم مختلفون في كيفية ضياعها فمنهم من ينسب احراقها الى عمرو ابن العاص بامر عمر بن الخطاب ويستدلون على ذلك ببعض النصوص العربية واشهرها اقوال ابي الفرج الملطي وعبد اللطيف البغدادي والمقريزي وحاجي خلفه . ومنهم من يجلُّ العرب عن ذلك ويطعن في تلك الروايات ويضعفها . وقد كنا ممن جاري هذا الفريق في كتابنا « تاريخ مصر الحديث » منذ بضع عشرة سنة ثم عرض لنا بمطالعاتنا المتواصلة في تاريخ الاسلام والتمدن الاسلامي ترجيح الراي الاول لاسباب نحن باسطوها في ما يلي اجلاءً للحقيقة فنقول

اولاً : قد رأيت في ما تقدم رغبة العرب في صدر الاسلام في محو كل كتاب غير القرآن بالاسناد الى الاحاديث النبوية وتصريح مقدمي الصحابة

ثانياً : جاء في تاريخ مختصر الدول لابي الفرج الملطي عند كلامه عن فتح مصر على يد عمرو بن العاص ما نصهُ « وعاش (يحيى الغراماطيقي) الى ان فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فاكرمه عمرو وسمع من الفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ففتن به وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوماً ' انك قد احطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الاصناف الموجودة بها فما لك به انتفاع فلا نعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن اولى به ' فقال له عمرو ' ما الذي تحتاج اليه قال كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية ' فقال له عمرو ' هذا ما لا يمكنني ان آمر فيه الا بعد استئذان امير المؤمنين عمر بن الخطاب ' . فكتب الى عمر وعرَّفه قول يحيى فورد عليه كتاب عمر يقول فيه ' واما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه فتقدم باعدامها ' فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقدها فاستنفدت

في مدة ستة اشهر فاسمع ماجرى واعجب »[1]

وليس في نص هذه العبارة التباس ولكن الذين يبرئون العرب عن احراق هذه المكتبة يطعنون في هذه الرواية وينسبون قائلها الى التعصب الديني وفي جملتهم جماعة كبيرة من مؤرخي الافرنج وقد الفوا الرسائل والكتب في تجريحها . وخلاصة اقوالهم : ان ابا الفرج المذكور هو اول من نسب حريق مكتبة الاسكندرية الى عمرو بن العاص وانه انما فعل ذلك تعصباً للنصرانية وتحقيراً للاسلام . وانه من اهل القرن السابع للهجرة وكان ابوه يهودياً وتنصر وشب ابو الفرج على النصرانية وارتقى في رتب الاكليروس الى الاسقفية ثم الف تاريخاً في السريانية استخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية واستخلص من هذا التاريخ كتاباً في العربية سماه مختصر الدول — قالوا « وهو اول كتاب ذكرت فيه هذه القصة وتناقلها عنه الافرنج الى هذه الغاية » وان ما جاء في هذا الشأن من اقوال عبد اللطيف البغدادي والمقريزي وحاجي خلفه من مؤرخي المسلمين لا تعتبر مصادر مستقلة لان المقريزي نقل عن عبد اللطيف حرفياً وحاجي خلفه لم يذكر مدينة الاسكندرية وانما اشار الى ان العرب في صدر الاسلام لم يعتنوا بشيء من العلوم الا بلغتهم وشريعتهم حتى قال « ويروى انهم احرقوا ما وجدوه من الكتب في فتوحات البلاد » وان عبد اللطيف البغدادي ذكر حريق المكتبة في عرض كلامه عن عمود السواري بغير تحقيق . ويزعم اصحاب هذا الرأي ان مكتبة الاسكندرية احرقها الرومان قبل الاسلام وانها لو احرقها العرب لذكرها مؤرخو المسلمين وخصوصاً كتاب الفتوح والمغازي . اه

لا ننكر ان بعض هذه المكتبة احترق قبل الاسلام ولكن ذلك لا يمنع احتراق باقيها في الاسلام . اما النصوص التي وردت في هذا الشأن فليس ابو الفرج اول من رواها كما توهم بعضهم . فان عبد اللطيف البغدادي طاف مصر وكتب عن مشاهدها وآثارها وذكر احراق العرب لهذه المكتبة قبل ان يولد أبو الفرج ببضع وعشرين سنة لان أبا الفرج ولد سنة ١٢٢٦ م (٦٢٢ هـ) وعبد اللطيف زار مصر في اواخر القرن السادس للهجرة وهاك نص عبارته « ورأيت ايضاً حول عمود السواري من هذه الاعمدة بقايا

(١) كتاب مختصر الدول صفحة ١٨٠ من طبعة بوكوك في اوكسونيا سنة ١٦٦٣ م واما النسخة المطبوعة في مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت فقد حذفت منها هذه الجملة كلها لسبب لا نعلمه

صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ويظهر من حالها انها كانت مسقوفة والاعمدة تحمل السقف وعمود السواري عليه قبة هو حاملها • وأرى انه الرواق الذي كان يدرس فيه ارسطوطاليس وشيعته من بعده وانه دار العلم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضي الله عنهُ » [1]

نعم ان عبارة البغدادي مختصرة وقد جاءت عرضاً لكنها تدل على وثوق قائلها بصحتها كانه أخذها عن مصدر موثوق به ومعول عليه في ذلك العصر كالذي اخذ عنه أبو الفرج

اما أبو الفرج فقد أتمَّ كتابه مختصر الدول في العربية في اواخر حياته (توفي سنة ٦٨٤ هـ) وهو ليس مختصر تاريخه السرياني الا من حيث اخبار الفتح لأنهُ يزيد على النسخة السريانية باخبار كثيرة عن الاسلام والمغول وتاريخ علوم الروم والعرب وآدابهم • واما السرياني فهو عبارة عن اخبار الفتح فقط فاغفال ذكر احراق المكتبة فيه لا يدل على انه دخيل في النسخة العربية أو دسه فيه بعض المتأخرين كما توهم بعضهم وانما ذكر في النسخة العربية لانه يتعلق باداب الروم والعرب التي ادخلها المؤلف في هذه النسخة كما تقدم

وقد تبين لنا بالبحث والتنقيب ان أبا الفرج المذكور نقل تلك الرواية عن مؤرخ مسلم توفي قبله بنحو اربعين سنة وهو جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن ابرهيم القفطي وزير حلب المعروف بالقاضي الاكرم ولد في قفط من صعيد مصر سنة ٥٦٥ وتوفي في حلب سنة ٦٤٦ هـ وللقاضي المذكور كتاب في تراجم الحكماء عثرنا على نسخة منه خطية في دار الكتب الخديوية مكتوبة سنة ١١٩٧ هـ وقرأنا فيها في اثناء ترجمة يحيي النحوي كلاماً في معنى كلام ابي الفرج واكثر تفصيلاً منه وفيه شيءٌ عن تاريخ هذه المكتبة منذ انشائها — واليك نص قوله :

« وعاش (يحيي النحوي) الى ان فتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى فاكرمه عمرو ورأى له موضعاً وسمع كلامه في ابطال التثليث فاعجبه وسمع كلامه أيضاً في انقضاء الدهر ففتن به وشاهد من حججه المنطقية وسمع من الفاظه الفلسفية التي لم يكن للعرب بها

(١) الافادة والاعتبار ٢٨

انسة ماهاله . وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكاد لا يفارقه . ثم قال له يحيي يوماً « انك قد أحطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الاجناس الموصوفة الموجودة بها فاما مالك به انتفاع فلا اعارضك فيه وأما مالا نفع لكم به فنحن أولى به » فأمر بالافراج عنه . فقال له عمرو « وما الذي تحتاج اليه » قال « كتب الحكمة في الخزائن الملوكية وقد اوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون اليها ولا نفع لكم بها » فقال له « ومن جمع هذه الكتب وما قصتها » . فقال له يحيي « أن بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك حبب اليه العلم والعلماء وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها وأفرد لها خزائن فجمعت وولى امرها رجلاً يعرف بابن مرة (زميرة) وتقدم اليه بالاجتهاد في جمعها وتحصيلها والمبالغة في اثمانها وترغيب تجارها ففعل واجتمع من ذلك في مدة خمسون الف كتاب ومائة وعشرون كتاباً ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها قال لزميرة اترى بقي في الارض من كتب العلم ما لم يكن عندنا . فقال له زميرة قد بقي في الدنيا شيء في السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم فعجب الملك من ذلك وقال له دُم على التحصيل فلم يزل على ذلك الى ان مات وهذه الكتب لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلي الامر من الملوك واتباعهم الى وقتنا هذا » . فاستكثر عمرو ما ذكره يحيي وعجب منه وقال له « لا يمكنني ان آمر فيها بامر الا بعد استئذان امير المؤمنين عمر بن الخطاب » وكتب الى عمر وعرفه بقول يحيي الذي ذكر واستأذنه ما الذي يصنعه فيها فورد عليه كتاب عمر يقول فيه « واما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غني وان كان فيها ما يخالف كتاب الله تعالى فلا حاجة اليها فتقدم باعدامها » . فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقدها وذكرت عدة الحمامات يومئذ وأنسيتها فذكروا انها استنفدت في مدة ستة اشهر فاسمع ما جرى واعجب » [1] انتهى كلام ابن القفطي

وبمقابلة هذه الفقرة بكلام أبي الفرج يتضح لك ان أبا الفرج نقل قول ابن القفطي مختصراً . ولو قرأت الكتابين لعلمت ان ابا الفرج نقل كثيراً من زياداته العلمية في كتابه العربي عن كتاب ابن القفطي ككلامه عن ثيادوق طبيب الحجاج [2] فان العبارة منقولة عن تراجم الحكماء حرفياً

---

(١) تراجم الحكماء (خط) (٢) مختصر الدول طبعة بيروت ١٩٤

بقي علينا البحث في المصدر الذي نقل عنه ابن القفطي والغالب انه نفس المصدر الذي نقل عنه عبد اللطيف البغدادي لانهما كانا متعاصرين وعبد اللطيف سابقه لانه ولد سنة ٥٥٧ وتوفي سنة ٦٢٩ هـ ولكن لسوء الحظ قد ضاعت تلك المصادر في جملة ما ضاع من مؤلفات العرب . على اننا اذا تدبرنا ما ذكره ابن النديم في كتاب الفهرست عن اخبار الفلاسفة الطبيعيين من حكاية انشاء مكتبة الاسكندرية يتضح لنا ان في جملة المصادر التي نقلت عنها تلك الرواية تاريخاً لرجل اسمه اسحق الراهب كان يبحث في اخبار اليونان والرومان وآدابهما . ومن جملة ما نقلوه عنه خبر انشاء مكتبة الاسكندرية على يد زميرة وهاك نصه « ان بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك فحص عن كتب العلم وولى امرها رجلاً يعرف بزميرة فجمع من ذلك على ما حكي اربعة وخمسين الف كتاب ومائة وعشرين كتاباً وقال له ايها الملك قد بقي في الدنيا شيء كثير في السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم »[1] وهي نفس عبارة ابن القفطي فالظاهر انه أخذ انشاء المكتبة عن اسحق المذكور واخذ حريقها عن سواه . ولولا ما نقله ابن النديم عن اسحق الراهب من أمر الفلاسفة لما علمنا بوجوده وظنناه لم ينقل شيئاً كما ظننا المسلمين لم يذكروا شيئاً عن حريق مكتبة الاسكندرية على يد عمرو

فيؤخذ مما تقدم ان حكاية احراق مكتبة الاسكندرية لم يختلقها ابو الفرج لتعصب ديني ولا دسها احدٌ بعده بل هو نقلها عن ابن القفطي وهو قاض من قضاة المسلمين عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والاصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل وكان صدراً محتشماً جمع من الكتب ما لا يوصف وكانوا يحملونها اليه من الآفاق وكانت مكتبته تساوي خمسين الف دينار ولم يكن يحب من الدنيا سواها وله حكايات غريبة عن غرامه بالكتب ولم يخلف ولداً فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب . وله مؤلفات عديدة في التاريخ والنحو واللغة وفي جملتها كتاب أخبار مصر من ابتدائها الى ايام صلاح الدين في ستة مجلدات[2] وكتاب تراجم الحكماء الذي نحن في صدده . وان ابن القفطي وعبد اللطيف البغدادي اخذا عن مصدر ضائع . واما خلوّ كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلا بد له من سبب والغالب انهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الاسلامي واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب فاستبعدوا

(١) الفهرست ٢٣٩ (٢) فوات الوفيات ٩٦ ج ٢

حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه او لعل لذلك سبباً آخر . وفي كل حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبي الفرج .

ثالثاً : ورد في أماكن كثيرة من تواريخ المسلمين خبر احراق مكاتب فارس وغيرها على الاجمال وقد لخصها صاحب كشف الظنون في عرض كلامه عن علوم الاقدمين بقوله « ان المسلمين لما فتحوا بلاد فارس واصابوا من كتبهم كتب سعد بن أبي وقاص الى عمر بن الخطاب يستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين فكتب اليه عمر (رضه) ان ' اطرحوها في الماء فان يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله تعالى باهدى منه وان يكن ضلالاً فقد كفانا الله تعالى ' فطرحوها في الماء او في النار فذهبت علوم الفرس فيها »[1]

وجاء في اثناء كلامه عن أهل الاسلام وعلومهم « انهم احرقوا ما وجدوا من الكتب في فتوحات البلاد »[2] ولا بد من أصل نقل صاحب كشف الظنون عنه وقد اشار ابن خلدون الى ذلك بقوله « فاين علوم الفرس التي أمر عمر (رضه) بمحوها عند الفتح »[3]

رابعاً : ان احراق الكتب كان شائعاً في تلك العصور تشفياً من عدو او نكاية فيه فكان اهل كل شيعة او ملة تحرق كتب غيرها كما فعل عبد الله بن طاهر بكتب فارسية كانت لا تزال باقية الى ايامه (سنة ٢١٣ هـ) من مؤلفات المجوس وقد عرضت عليه فلما تبين حقيقتها أمر بالقائها في الماء وبعث الى الاطراف ان من وجد شيئاً من كتب المجوس فليعدمه[4]

ولما فتح هولاكو التتري بغداد سنة ٦٥٦ هـ أمر بالقاء كتب العلم التي كانت في خزائنها بدجلة وكانت شيئاً لا يعبر عنه مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون لاول الفتح بكتب الفرس وعلومهم[5] وقال آخرون انه بنى بتلك الكتب اسطبلات الخيول وطوالات المعالف عوضاً عن اللبن[6] والارجح انه أغرقها انتقاماً من أهل السنّة

ولما فتح الافرنج طرابلس الشام في أثناء الحروب الصليبية احرقوا مكتبتها بأمر الكونت برترام سنت جيل وكان قد دخل غرفة فيها نسخ كثيرة من القرآن فأمر باحراق المكتبة كلها وفيها على زعمهم ثلاثة ملايين مجلد[7] وفعل الاسبان نحو ذلك بمكاتب

(١) كشف الظنون ٤٤٦ ج ١ (٢) كشف الظنون ٢٥ ج ١

(٣) ابن خلدون ٣٢ ج ١ (٤) Browne's Lit. Hist. of Persia, 347

(٥) ابن خلدون ٥٣٧ ج ٣ و ٥٤٣ ج ٥ (٦) ابن الساعي ١٢٧

(٧) Gibbon's Roman Empire II, 505 وابن خلكان ١٢٨ ج ٢

الاندلس لما استخرجوها من ايدي المسلمين في اواخر القرن الخامس عشر

خامساً : ان اصحاب الاديان في تلك العصور كانوا يعدون هدم المعابد القديمة واحراق كتب اصحابها من قبيل السعي في تأييد الاديان الجديدة • فامبراطرة الروم حالما تنصروا أمروا بهدم هياكل الاوثان في مصر واحراقها بما فيها من الكتب وغيرها • وكان خلفاء المسلمين اذا ارادوا اضطهاد المعتزلة وأهل الفلسفة احرقوا كتبهم • والمعتزلة كثيراً ما كانوا يتجنبون ذلك تحت خطار القتل فيستترون ويجتمعون سرًّا والخلفاء يتعقبون آثارهم ويحرقون كتبهم • ومن اشهر الحوادث من هذا القبيل ما فعله السلطان محمود الغزنوي لما فتح الري وغيرها سنة ٤٢٠ ه فانه قتل الباطنية ونفى المعتزلة واحرق كتب الفلسفة والاعتزال والنجامة (١)

سادساً : في تاريخ الاسلام جماعة من ائمة المسلمين احرقوا كتبهم من تلقاء انفسهم منهم احمد بن ابي الحوارى فانه لما فرغ من التعلم جلس للناس فخطر بقلبه يوماً خاطر من قبل الحق فحمل كتبه الى شط الفرات فجلس يبكي ساعة ثم قال « نعم الدليل كنتِ لي على ربي فلما ظفرت بالمدلول فالاشتغال بالدليل محال » فغسل كتبه • وذكروا عن سفيان الثوري انه اوصى بدفن كتبه • وان ابا عمرو بن العلاء كانت كتبه ملء بيت الى السقف ثم تنسك واحرقها (٢)

فيرجح مما تقدم ان العرب احرقوا ما عثروا عليه من كتب العلم القديمة في الصدر الاول تأييداً للاسلام فلما تأيد سلطانهم واشتغلوا بالعلوم عوضوا على العالم اضعاف ما احرقوه كما سترى

٤ — الرومان والاسلام والعلم

من جملة ما يرمى به العرب من المطاعن « انهم حتى في ابان تمدنهم لم يشتغلوا هم انفسهم في العلم وانما كان المشتغلون به الفرس وغيرهم من الامم الخاضعة لسلطانهم بخلاف اليونان والرومان وغيرهما من دول التمدن القديم فقد كانوا هم انفسهم يشتغلون بالعلم وقد وضعوا علوماً تناقلها الناس عنهم واما العرب فاكثر علومهم منقولة عن سواهم »

فاصحاب هذا القول يقابلون بين دولة الرومان ودولة العرب والصواب ان يقابلوا بين

---

(١) ابن خلدون ٧٨ ج ٤ (٢) كشف الظنون ٤٠ ج ١ والبيان ١٢٣ ج ١

الرومان والاسلام · لان العرب اسسوا دولة الاسلام كما اسس اهل رومية دولة الرومان ودخل في دين الاسلام امم كثيرة اختلطوا بالعرب فتألف منهم امة الاسلام كما اختلطت شعوب الممالك التي فتحها اهل رومية وصارت امة واحدة تعرف بامة الرومان

فاذا قابلنا بين الاسلام والرومان رأينا المسلمين اكثر اشتغالاً بالعلم والادب من اولئك لان كليهما نقلا العلم عن اليونان والمشتغلون به من الرومان لم يكونوا من اهل رومية كما ان المشتغلين به من المسلمين لم يكونوا كلهم من اهل جزيرة العرب · والسبب في اجتماع شعوب المملكة الرومانية باسم الرومان وعدم اجتماع شعوب المملكة الاسلامية باسم العرب ان العرب فتحوا بلاداً اهلها عريقون في الحضارة فلم يمكن اندماجهم وضياع جنسياتهم وقد ساعد على ذلك تفرق المذاهب ومبالغة العرب في تفضيل انفسهم على سواهم من الامم الخاضعة لسلطانهم

اما اليونان فلا جدال في انهم واضعو العلم والفلسفة لما في فطرتهم من الاقتدار على ذلك — وان كانوا قد بنوا علمهم وفلسفتهم على اسس اخذوا بعضها من المصريين القدماء والبعض الآخر من الكلدان وغيرهم — لكنهم يعدون واضعين فهم يفضلون الرومان والعرب من هذا القبيل · ولكنهم اضعف منهما في انشاء الحكومات وسن الشرائع لان اليونان لم يطل امر دولتهم ولا نظموا حكومة ثابتة وانما كانوا دولاً صغيرة متفرقة يتنازعون و يتنافرون و يتنافسون

ثم ان الرومان اخذوا العلم والفلسفة عن اليونان وقلما زادوا فيهما ولكنهم نظموا الحكومة ووضعوا الشرائع والقوانين ونظموا دولة عظيمة مما لم يستطعه اليونان · فالرومان اهل فتح وسلطان واليونان اهل تصور وخيال · واما العرب فقد جمعوا الحسنيين لانهم اهل فتح وسلطان واهل تصور وخيال · ولذلك فانهم انشأوا دولة بعيدة الاطراف ووضعوا الشرائع والنظامات (الفقه) ولم يكتفوا بنقل العلم عن اليونان واستبقائه على حاله بل هم درسوه وزادوا فيه من نتائج قرائحهم وعقولهم و بما نقلوه من علوم الفرس والهند والكلدان وغيرهم فضلاً عما وضعوه هم انفسهم من العلوم الاسلامية واللسانية وما تمردوا فيه من قريحة الشعر وليس هنا محل الافاضة في ذلك



د — حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم

قد تقدم ان العلوم التي حدثت في التمدن الاسلامي صنفان العلوم الاسلامية والعلوم الدخيلة فتغلب العلوم الاسلامية في غير العرب من المسلمين سببه ان العرب قاموا بالاسلام وفتحوا الفتوح وهم اهل بادية اميون فانصرف همهم في بدء الدعوة الى نشر دينهم وانشاء دولتهم مما لا يحتاج الى علم . وانما كانت حاجتهم من العلم الى القرآن يدعون الناس به الى الاسلام وكانوا يستظهرونه و يتناقلونه بالتلقين . ولم يمض على ظهور الدعوة بضع وعشرون سنة حتى فتحوا الشام والعراق ومصر وفارس وافريقية وغيرها والمسلمون (العرب) يومئذ هم الجند الفاتح وكانوا قليلين بالنظر الى ذلك الملك الواسع فضلاً عمن قتل منهم في الحروب والفتن . ومع ذلك فقد كانوا مطالبين بحفظ تلك المملكة وحماية اهلها وتدبير شؤونها . فاصبح همهم الاشتغال بالرئاسة في الجند والحكومة . ونظرا لفطرتهم الخيالية انصرفت قرائحهم الى الاشتغال بالشعر والخطابة والامثال — وهي آدابهم في جاهليتهم — وتحريض ابنائهم على اتقانها مع المثابرة على اسباب الرياضة البدنية بالفروسية والعناية بالخيل مما اعانهم على الفتح ونشر الدين واصبحوا يخافون التحضر لئلاّ يذهب بنشاطهم وجامعتهم وكان رجلهم العظيم عمر بن الخطاب نظر الى مستقبل الاسلام من طرف خفي فمنعهم من الزرع والاشتغال باسباب الحضارة . ولهذا السبب لما تفرق العرب في الامصار وتعرضوا لاخطار البحار كتب اليهم عمر ان يمارسوا السباحة ايضاً وهاك نص كتابه « اما بعد فعلموا اولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر » [1]

ولما فسدت اللغة واختلفت القراءات وازمع الخلفاء على جمع القرآن وتدوينه كان اكثر المتهافتين على حفظه من المسلمين غير العرب وهم الموالي واكثرهم من الفرس وكانوا يومئذ اهل تمدن وعلم وكان العرب يعرفون لهم ذلك ومن الاحاديث النبوية « لو تعلق العلم باكناف السماء لناله قوم من اهل فارس » [2] وكان الفرس من الجهة الاخرى يرون للعرب مزية عليهم بالسيادة والنبوة وهيبة الفتح فجعلوا يتقربون اليهم بالعلم على ما تتطلبه حال الاسلام — وهو في اوائل دولتهم عبارة عن قراءة القرآن وحفظه وتفسيره وجمع الحديث واسناده وحفظه . فكان لذلك اكثر الحفاظ والقراء والمحدثين والفقهاء والمفسرين من العجم واذا كان فيهم احد من العرب فالاغلب فيه ان يكون من القبائل الصغرى

(١) البيان والتبيين ٢١٣ ج ١ (٢) ابن خلدون ٤٧٨ ج ١

التي لا شأن لها في الفتح كالاصمعي فقد كان عربيًا ولكنه كان من قبيلة باهلة الموصوفة بالخساسة وفيها يقول بعض الشعراء

لو قيل للكلب يا باهلي عوى الكلب من لؤم ذاك النسب

على ان الاكثرين كانوا من غير العرب فوهب بن منبه من اقدم رواة الحديث واصحاب التفسير وهو فارسي الاصل ونافع القارىء ديلمي وقس على ذلك سائر العلماء . فمن اكبر الفقهاء واقدمهم الحسن بن ابي الحسن ومحمد بن سيرين بالبصرة . وعطاء بن ابي رباح ومجاهد وسعيد ابنا جبير وسليمان بن يسار في مكة . وزيد بن اسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن ابي نجيح في المدينة . وربيعة الرأي وابن ابي الزناد في قباء . وطاووس وابنه وابن منبه في اليمن . ومكحول في الشام وغيرهم في اماكن اخرى وكلهم من الموالي اي المسلمين غير العرب(١)

ولما دعا فساد اللغة الى ضبط قواعدها وجمع الفاظها كان العجم احوج الى ذلك من العرب لاستغناء العربي بملكته الفطرية عن تعلم القواعد وحفظ الالفاظ فاشتغل الاعاجم بعلوم اللغة وكان اكثر علماء الادب واللغة منهم كحماد الرواية وهو ديلمي والخليل وسيبويه والاخفش والفارسي والزجاج وغيرهم من الفرس او من في معناهم

اما العلوم الدخيلة وهي العلم والفلسفة فالمشتغلون بها للعرب هم غير العرب وغير المسلمين لان العباسيين لما ارادوا نقل كتب اليونان والفرس والهند الى العربية استخدموا عارفي هذه الالسنة من الكلدان والسريان والفرس وغيرهم لنقلها واكثرهم من النصارى كما سيجيء

فالعرب اشتغلوا عن العلم في اول دولتهم بالرئاسة والسياسة للاسباب التي قدمناها وما زالوا هم اهل الدولة وحاميتها واولي سياستها الى اوائل الدولة العباسية فتولد فيهم بتوالي الاجيال الانفة من انتحال العلم لانه صار من جملة الصنائع — واهل الرئاسة يستنكفون من الصنائع والمهن — وكانوا اذا رأوا عربيًا يشتغل في اللغة او التعليم عابوه وقالوا « انهُ يشتغل بصناعات الموالي » ومن اقوالهم « ليس ينبغي للقرشي ان يستغرق في شيء من العلم الا علم الاخبار واما غير ذلك فالنتف والشذر من القول » ومرّ رجل من قريش بفتى من ولد عتاب ابن اسيد وهو يقرأ كتاب سيبويه فقال « اف لكم علم المتأدبين وهمة المحتاجين »(٢)

ولا بأس من اشتغال الموالي بالعلوم الاسلامية وهم مسلمون . على اننا لانعدُّ العرب الذين تحضروا في الدولة العباسية عربًا خلصًا لاختلاطهم بالموالي والمماليك بالمصاهرة والمعاشرة والمساكنة حتى الخلفاء فان اكثر امهاتهم من غير العرب وسنعود الى هذا البحث في جزء آخر

(١) العقد الفريد ٧٤ ج ٢ (٢) البيان والتبيين ١٥١ ج ١

٦ — تدوين العلم في الاسلام

قلنا فيما تقدم ان الخلفاء الراشدين كانوا يخافون الحضارة على العرب لئلا تذهب بنشاطهم وبداوتهم • ولذلك منعوهم من تدوين الكتب لان علومهم في اوائل الاسلام كانت قاصرة على القرآن والتفسير ورواية الاحاديث ونظراً لقلة الاختلاف والواقعات ولسهولة المراجعة والاستفتاء من ثقات الصحابة والتابعين لقرب عهدهم من صاحب الشريعة كانوا في غنى عن تدوين تلك العلوم • ويستدل مما روي عن ابي سعيد الخدري انه استأذن النبي في كتابة العلم فلم يأذن له وروي عن ابن العباس انه نهى عن الكتابة وقال « انما ضلَّ من كان قبلكم بالكتابة » وجاء رجل الى ابن عباس فقال « اني كتبت كتباً اريد ان اعرضه عليك » فلما عرضه عليه أخذ منه ومحى بالماء وقيل له « لماذا فعلت ذلك » قال « لانهم اذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم » [1] وان الكتاب يزاد فيه وينقص ويغير والمحفوظ لا يمكن تغييره

وكان هذا الاعتقاد فاشياً في الصحابة والتابعين وتمسك به جماعة من كبارهم وكانوا اذا سئلوا تدوين علمهم ابوا واستنكفوا — ولعلهم كانوا يفعلون ذلك ليبقى الناس في حاجة اليهم رأساً • سأل رجل سعيد بن جبير وهو من اعلام التابعين ان يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال « لان يسقط شقي احبُّ اليَّ من ذلك » [2]

فقضى العرب عصر بني امية وهم يشتاقون الى البداوة لان دولتهم كانت عربية بدوية فانقضى القرن الاول وبعض القرن الثاني للهجرة والمسلمون يتناقلون العلم بالتلقين ويعتمدون على الحفظ ولم يدونوا غير القرآن لاسباب سيأتي بيانها • وكان ابو بكر قد توقف عن جمعه وتدوينه وقال « كيف افعل أمراً لم يفعله رسول الله » [3]

اما ما خلا ذلك من التفسير والحديث والاشعار والاخبار والامثال فقد كانوا يتناقلونها في صدورهم واكثرهم يقرأون ولكنهم لا يكتبون وقد يكون بعضهم حافظاً ومفسراً وهو لا يقرأ كما كان شأنهم في الجاهلية يشعرون ويخطبون ولا يقرأون

فلما انتشر الاسلام واتسعت الامصار وتفرقت الصحابة في الاقطار وحدثت الفتن واختلفت الآراء وكثرت الفتاوى والرجوع الى الكبراء اخطروا الى تدوين الحديث والفقه

(١) كشف الظنون ٢٥ ج ١ (٢) ابن خلكان ٢٠٥ ج ١

(٣) الفهرست ٢٤

وعلوم القرآن واشتغلوا في النظر والاستدلال والاجتهاد والاستنباط وتمهيد القواعد والاصول وترتيب الابواب والفصول فرأوا ذلك مستحباً فعمدوا الى التدوين ورجعوا الى حديث رواه انس بن مالك وهو قوله « قيدوا العلم بالكتابة »(١) وقوله « العلم صيد والكتابة قيد »(٢)

على انهم ظلوا مع ذلك يستنكفون من التدوين بايديهم فكانوا يستكتبون الكتاب او يلقون دروسهم بطريق الاملاء . وذلك ان يتكلم المحدث او الفقيه والتلميذ يكتب على الرق او القرطاس او الكاغد فيبدأ المستملي في اول القائمة بقوله « مجلس املاء شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا » ويذكر التاريخ ثم يورد المملي باسناده سواء كان حديثاً او خبراً واذا كان فيه غريبٌ يحتاج الى التفسير فسره واورد اشعار العرب وغيرها باسانيدها او الفوائد اللغوية باسناد او بغير اسناد على ما يختاره(٣) وهذا معنى قولهم «امالي» المحدث فلان او اللغوي اي ما املاه من الفنون

وظلوا حتى بعد اشتغالهم بالتأليف يحرضون الناس على الحفظ والتعويل على السماع وان احوج العلوم الى ذلك علم الدين ثم الشعر لما فيه من الالفاظ الغريبة واللغات المختلفة والكلام الوحشي واسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه . لان الكتابة في القرون الاولى للاسلام كانت بلا نقط فلا تفرق في شعر الهذليين اذا أنت قرأنه بين «شابة» و «ساية» وهما موضعان . ولا تثق بمعرفتك في تمييز امثالهما مما تتشابه صوره بدون اعجام . وقرىء يوماً على الاصمعي في شعر ابن ذؤيب « بأسفل ذات الدير افرد جحشها » فقال اعرابيٌّ حضر مجلس القارىء « ضل ضلالك ايها القارىء انما هي ذات الدَّبر (بالباء) وهي ثنية عندنا » فاخذ الاصمعي بذلك فيما بعد . ومن يرى شعر الهذلي في وصف الفرس :

من السحّ جوّالاً كأن غلامه يصرّف سبداً في العنان عمرّدا

اذا كان بلا تنقيط ولا يقرأ «سيدا» بالياء لانصراف الذهن الى السيد وهو الذئب وقد اخطأ في ذلك اكثر الذين قرأوا هذا البيت(٤)

فظل المسلمون زهاء قرن وليس عندهم كتاب مدون غير القرآن مع ان الكتابة كانت شائعة يومئذٍ . وقد نبغ جماعة من مفسري القرآن ورواة الحديث وعلماء النحو

(١) البيان والتبيين ١٦١ ج ١ (٢) كشف الظنون ٢٦ ج ١
(٣) المزهر ١٦٢ ج ٢ (٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٠

وخصوصاً في القرآن فيكتبون « الكتب » بدل « الكتاب » و « الظلمين » بدل « الظالمين »

فجاء الاسلام والكتابة معروفة في الحجاز ولكنها غير شائعة فلم يكن يعرف الكتابة الاّ بضعة عشر انساناً اكثرهم من كبار الصحابة وهم علي بن ابي طالب وعمر بن الخطاب وطلحة ابن عبيد الله وعثمان وابان ابنا سعيد بن خالد بن حذيفة و يزيد بن ابي سفيان وحاطب ابن عمرو بن عبد شمس والعلاء بن الحضرمي وابو سلمة بن عبد الاشهل وعبدالله بن سعد ابن ابي سرح وحويطب بن عبد العزي وابو سفيان بن حرب وولده معاوية وجهيم بن الصلت بن مخرمة . ثم تعلم غيرهم من الصحابة ومنهم خرج كتاب الدواوين للخلفاء الراشدين وكتاب الرسائل وكتاب القرآن . فكتبوا القرآن بالكوفي ايام الراشدين وايام بني امية وفي ايامهم تفرع الخط المذكور الى اربعة اقلام اشتقها بعضها من بعض كاتب اسمه قطبة كان اكتب اهل زمانه وكان يكتب لبني امية المصاحف . ثم اشتهر بعده الضحاك بن عجلان في اوائل الدولة العباسية فزاد على قطبة وزاد بعده اسحق بن حماد وغيره فبلغ عدد الاقلام العربية الى أوائل الدولة العباسية ١٢ قلماً وهي (١) قلم الجليل (٢) قلم السجلات (٣) قلم الديباج (٤) قلم اسطورمار الكبير (٥) قلم الثلاثين (٦) قلم الزنبور (٧) قلم المفتح (٨) قلم الحرم (٩) قلم المدامرات (١٠) قلم العهود (١١) قلم القصص (١٢) قلم الحرفاج . وفي ايام المأمون تنافس الكتاب في تجويد الخط فحدث القلم المرصع وقلم النساخ وقلم الرياسي نسبة الى الى مخترعه ذي الرئاستين الفضل بن سهل وقلم الرقاع وقلم غبار الحلية (١)

فزادت الخطوط على عشرين شكلاً وكلها تعدُّ من الكوفي واما الخط النسخي او النبطي فقد كان شائعاً بين الناس لغير المخطوطات الرسمية حتى اذا نبغ ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فادخل في الخط المذكور تحسيناً جعله على نحو ما هو عليه الآن وادخله في كتابة الدواوين . والمشهور عند المؤرخين ان ابن مقلة نقل الخط من صورة القلم الكوفي الى صورة القلم النسخي والغالب في اعتقادنا ان الخطين كانا شائعين معاً من اول الاسلام الكوفي للمصاحف ونحوها والنسخي (او النبطي) للرسائل ونحوها كما تقدم . وان ابن مقلة انما جعل الخط النسخي على قاعدة جميلة حتى يصلح لكتابة المصاحف . وقد شاهدنا في معرض الخطوط

---

(١) كشف الظنون ٤٦٦ ج ١

العربية القديمة في دار الكتب الخديوية عقد نكاح مكتوباً في اواسط القرن الثالث للهجرة سنة ٢٦٤ هـ على رق مستطيل في اعلاه صورة العقد بالقلم الكوفي المنتظم وتحتها خطوط الشهود بالقلم النسخي بغاية الاختلال — فابن مقلة حسن هذا الخط تحسيناً وادخله في كتابة المصاحف

ثم تفرع الخط النسخي المذكور بتوالي الاعوام الى فروع كثيرة واصبحت الاقلام الرئيسية في اللغة العربية اثنين الكوفي والنسخي ولكل منهما فروع كثيرة اشتهر منها بعد القرن السابع للهجرة ستة اقلام وهي : الثلث والنسخي والتعليق والريحاني والمحقق والرقاع واشتهر من الخطاطين جماعة كبيرة الفوا فيه الكتب والرسائل بعضها في ادوات الخط كالاقلام وطرق بريها واحوال الشق والقط والدواة والمداد والكاغد وغير ذلك [1] وما زال الخط يتفرع الى اليوم ولن يزال الى ما شاء الله عملاً بسنة الارتقاء

الحركات

وكان القرآن في اول الاسلام محفوظاً في صدور القراء لاخوف من الاختلاف في قراءته لكثرة عنايتهم في تناقله وضبط الفاظه حتى دونوه وكثر اهل الاسلام . فمضى نصف القرن الاول للهجرة والناس يقرأون القرآن بلا حركات ولا اعجام . واول ما افتقروا اليه الحركات واول من رسمها ابو الاسود الدؤلي واضع النحو العربي المتوفى سنة ٦٩ هـ فانه وضع نقطاً تمتاز بها الكلمات او تعرف بها الحركات ولذلك توهم بعضهم انه وضع نقط الاعجام . والحقيقة انه وضع نقطاً لتمييز الاسم من الفعل من الحرف وليس لتمييز الباء من التاء او الجيم من الحاء والارجح انه اقتبس ذلك من الكلدان او السريان جيرانه في العراق وكان عندهم نقط كبيرة توضع فوق الحرف او تحته لتعيين لفظه او تعيين الكلمة الواقع هو فيها اسمٌ هي ام فعل ام حرف . مثل قولهم « كتب » فيمكن ان تكون اسماً جمع كتاب او فعلاً ماضياً معلوماً او مجهولاً وكان عندهم ايضاً نقط هي حركات وضعها يعقوب الرهاوي قبيل ذلك الزمن [2] وهي عبارة عن نقط كانت ترسم في حشو الحروف ثم تحولت الى نقط مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث وما زالت عندهم الى اليوم . فالظاهر ان ابا الاسود اقتبس هذه الحركات ويؤيد ذلك انه لما اراد التنقيط اتوه بكاتب فقال له ابو الاسود « اذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على اعلاه واذا ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي

(١) كشف الظنون ٤٦٧ ج ١ (٢) اللمعة الشهية ٢١

الحرف وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف[1] . فكان العرب بعد ذلك يستعملون هذه النقط والغالب ان يكتبوها بلون غير لون الخط . وقد شاهدنا في دار الكتب الخديوية مصحفاً كوفياً منقطاً على هذه الكيفية وجدوه في جامع عمرو بجوار القاهرة وهو من اقدم مصاحف العالم ومكتوب على رقوق كبيرة بمداد أسود وفيه نقط حمراء اللون . فالنقطة فوق الحرف فتحة وتحته كسرة وبين يدي الحرف ضمة كما وصفها ابو الاسود

الاعجام

كان الخط لما اقتبسه العرب من السريان والانباط خالياً من النقط — ولا تزال الخطوط السريانية بلا نقط الى اليوم — فالاعجام حادث في العربية وهو قديم فيها والظاهر ان المسلمين بعد ان استخدموا الحركات المذكورة رأوا التصحيف قد تكاثر والتبس الناس في القراءة لتكاثر الاعاجم من القراء والعربية ليست لغتهم فصعب عليهم التمييز بين الاحرف المتشابهة في شكلها كالجيم والحاء والسين والشين والباء والتاء والثاء فانتبه لذلك الحجاج امير العراق في ايام عبد الملك بن مروان — قال ابن خلكان « ففزع الحجاج الى كتّابه وسألهم ان يضعوا لهذه الاحرف المشتبهة علامات تميزها بعضها من بعض فيقال ان نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط افراداً وازواجاً وخالف بين اماكنها فعبر الناس بذلك زماناً لا يكتبون الاّ منقوطاً فكان مع استعمال النقط ايضاً يقع التصحيف فاحدثوا الاعجام فكانوا يتبعون النقط بالاعجام »[2] وفي عبارة ابن خلكان هذه التباس لا يفهم المراد بها ولا ما الفرق بين التنقيط والاعجام وهما واحد ولا يعقل ان يكون المراد بالنقط الحركات لانهم انما عمدوا اليها لكثرة التصحيف اي اختلاف القراءة باختلاف النقط . فالظاهر ان النقط المذكورة هي من قبيل الاعجام لتمييز الحروف المتشابهة ولكن نصراً هذا لم ينقط الاّ بضعة حروف مما يكثر وروده ويخشى الالتباس فيه ثم رأوا القراءة لا تضبط الاّ بتنقيط كل الحروف كما هي الآن وهذا ما عبروا عنه بالاعجام

وقد شاهدنا في معرض الخطوط في دار الكتب الخديوية كتابة عربية على صفيحة من البردي (البابيروس) مؤرخة سنة ٩١ هـ وفيها اعجام لكنه قاصر على الصور المشابهة للباء لتمييز بين الباء والياء والتاء وصورة حرف الشين لتمييزه من السين بثلاث نقط موضوعة على استواء واحد — وشاهدنا اجزاء من مصاحف اخرى مكتوبة على رقوق صغيرة وعليها نقط حمراء

(١) الفهرست ٤٠ (٢) ابن خلكان ١٢٥ ج ١

للحركات ونقط سوداء للاعجام. وقد تجد خطوطاً قديمة منقطة ومحركة وخطوطاً حديثة بلا تنقيط ولا تحريك

فيؤخذ من ذلك ان العرب استخدموا الحركات والاعجام من اواسط القرن الاول ولكنهم ظلوا مع ذلك يكرهونهما الا حيث يريدون التدقيق بنوع خاص كالمصاحف ونحوها. اما في ما خلا ذلك فكانوا يفضلون ترك النقط لاسيما اذا كان المكتوب اليه عالماً. وقد حكي انه عرض على عبدالله بن طاهر خط بعض الكتاب فقال « ما احسنه لولا كثرة شونيزه (اي نقطه) » ويقال « كثرة النقط في الكتاب سوء ظن في المكتوب اليه » وقد يقع بالنقط ضرر كما حكي عن جعفر المتوكل انه كتب الى بعض عماله « ان احص من قبلك من الذميين وعرفنا بمبلغ عددهم » فوقع على الحاء نقطة فجمع العامل من كان في عمله منهم وخصاهم فماتوا غير رجلين[1]

ولذلك ظل الكتّاب في اثناء التمدن الاسلامي مخيرين بين الاعجام وعدمه والغالب عدم الاعجام وقد حدث بسبب ذلك التباس في كثير من الاحوال وخصوصاً في اسماء الاماكن الغريبة او الالفاظ الغريبة ونحوها[2] وكان الادباء يستحسنون الاعجام في كتب العلوم ويستهجنونه في المراسلات. ولذلك استحسنوا مشق الخط في المكاتبات لانهم لفرط إدلالهم في الصنعة وتقدمهم في الكتابة يكتفون بالاشارة ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء الابانة تقصيراً[3]

ادوات الكتابة

اما ادوات الكتابة فقد وفينا الكلام عنها في الجزء الاول من هذا الكتاب. وظلوا يكتبون الى اواخر دولة الامويين على الجلود والرقوق دروجاً فكانت دفاتر الحكومة عبارة عن لفائف من الجلد. فلما افضى الامر الى العباسيين وقام ابو العباس السفاح بالامر واستوزر خالد بن برمك غيّر خالد الدفاتر من الادراج الى الكتب. فظلت اعمال الحكومة تدوّن في كتب من الجلد الى ان تصرف جعفر بن يحيى البرمكي بالوزارة في ايام الرشيد فاتخذ الكاغد (الورق) فتداوله الناس من بعده وظلوا مع ذلك اجيالاً يكتبون على الجلود والقراطيس والورق الصيني والتهامي والخراساني[4] فضلاً عن الكاغد يصنعونه كراريس او دفاتر وكان بعضهم يفضل الرقاع للكتابة عليها كالفارابي مثلاً فقد كانت كتاباته اكثرها على الرقاع[5]

(١) كشف الظنون ٤٦٨ ج ٢ (١) راجع كتابنا تاريخ اللغة العربية ١٨
(٣) ادب الدنيا والدين ٥٢ (٤) الفهرست ٤٠ (٥) ابن خلكان ٥٧ ج ٢

العلوم الاسلامية

هي العلوم التي اقتضاها الاسلام والتمدن الاسلامي على ما تقدم وتقسم الى ثلاثة اقسام (١) العلوم الشرعية وهي العلوم الدينية الاسلامية (٢) العلوم اللسانيـة وهي التي اقتضاها الاسلام ضمنًا فاحتاجوا اليها في ضبط قراءة القرآن او تفسيره او تفهمه وتفهم الحديث (٣) التاريخ والجغرافيا

١ — العلوم الشرعية الاسلامية

القرآن

جمعه وتدوينه

لا غرو اذا اهتم المسلمون بجمع القرآن وحفظه لان عليه يتوقف دينهم ودنياهم واول اسباب حفظه تدوينه · والقرآن لم يظهر مرة واحدة وانما ظهر تدريجًا في اثناء عشرين سنة على مقتضى الاحوال من اول ظهور الدعوة الى وفاة النبي بعضهُ في مكة وبعضهُ في المدينة فكان كلما تلا آية او سورة كتبوها على صحف الكتابة في تلك الايام وهي الرقاع من الجلود والعريض من العظام كالاكتاف والاضلاع وعلى العسب وهي تجوف جريد النخل واللخاف وهي الحجارة العريضة البيضاء · فتوفي النبي سنة ١١ ﻫ والقرآن اما مدون على امثال هذه الصحف أو محفوظ في صدور الرجال وكانوا يسمُّون حفظته « القراء »

وكان اكثر الناس عناية في تدوينه على عهد النبي علي بن ابي طالب وسعد بن عبيد بن النعمان وابو الدرداء ومعاذ بن جبل وثابت بن زيد وابي بن كعب وغيرهم · فلما قام ابو بكر بالامر وارتد اهل جزيرة العرب عن الاسلام بعث جندًا لمحاربتهم فقتل من الصحابة في تلك الحروب جماعة كبيرة وخصوصًا في غزوة اليمامة فقتل فيها وحدها ١٢٠٠ من المسلمين فيهم ٧٠٠ من القراء · فلما بلغ ذلك الى اهل المدينة فزعوا فزعًا شديدًا وخصوصًا عمر بن الخطاب رجل الاسلام والمسلمين فاشار على ابي بكر بجمع القرآن لئلا يذهب منه شيءٌ بموت اهله فتوقف ابو بكر وقال « كيف افعل امرًا لم يفعله رسول الله ولم يعهد الينا فيه عهدًا » فما زال عليه عمر حتى اقنعه بجمعه · فاحضر ابو بكر زيد بن ثابت لانه كان

من كتبة الوحي فجمع ما كان مدوناً عند الصحابة وربما وجد السورة الواحدة مكتوبة عند اثنين او ثلاثة او اكثر وقد لا يوجد من السورة الأُخرى الا نسخة واحدة كسورة التوبة فانه لم يجد منها الاَّ نسخة واحدة عند ابي خزيمة الانصاري [١] فجمعه من تلك المحفوظات ومن صدور الرجال وسلمه الى ابي بكر فظلت الصحف عنده حتى توفي سنة ١٣ ه فلما تولى عمر تسلمها وظلت عنده حتى تولى عثمان سنة ٢٣ ه فانتقلت الى عند ابنته حفصة من ازواج النبي

وفي ايام عثمان اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في مصر والشام والعراق وفارس وافريقيا وفيهم القراء وعند بعضهم نسخ من القرآن وقد رتبها كل منهم ترتيباً خاصاً فعوَّل اهل كل مصر على من قام بينهم من القراء . فاهل دمشق وحمص مثلاً اخذوا عن المقداد بن الاسود واهل الكوفة اخذوا عن ابن مسعود واهل البصرة عن ابي موسى الاشعري [٢] وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب — ومع شدة عناية القراء في حفظ القرآن وضبطه لم يخلوا من الاختلاف في قراءة بعض سوره

واتفق في اثناء ذلك ان حذيفة بن اليمان كان في جملة من حضر غزوة ارمينيا واذربيجان فرأى في اثناء سفره اختلافاً بين المسلمين في قراءة بعض الآيات وسمع بعضهم يقول لبعض « قراءتي خير من قراءتك » فلما رجع الى المدينة انبأ عثمان بذلك وانذره بسوء العقبى ان لم يتلاف الامر الى ان قال « ادرك هذه الامة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى » فبعث عثمان الى حفصة ان « ارسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك » فارسلتها . فدعا عثمان زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وامرهم ان ينسخوا القرآن و يستعينوا على القراءة بما حفظه القراء وقال لهم « اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش فانما انزل بلسانهم» ففعلوا ذلك [٣] سنة ٣٠ ه وكتبوا اربعة مصاحف بعثها عثمان الى الامصار الاربعة مكة والبصرة والكوفة والشام [٤] واثنين ابقاهما في المدينة واحد لاهلها وواحد لنفسه وهو الذي يسمونه «الامام» ثم امر بجمع كل ما كان قبل ذلك من المصاحف والصحف [٥] وأمر باحراقه

فاصبح المعوَّل في المصاحف على ما كتبه عثمان واشتغل المسلمون في الامصار باستنساخ تلك المصاحف فنسخوا منها شيئاً كثيراً في مدة قليلة — ذكر المسعودي في عرض كلامه

---

(١) الفهرست ٢٤ (٢) ابو الفدا ١٧٦ ج ١ (٣) الفهرست ٢٥

(٤) نفح الطيب ٢٨٧ ج ١ (٥) ابو الفداء ١٧٦ ج ١

عن واقعة صفين بين علي ومعاوية وما كان من ظهور علي وما اشار به عمرو بن العاص من رفع المصاحف « ورفع من عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف »[١] وليست هذه كل مصاحف المسلمين فاعتبر هذا العدد و بين كتابة مصحف عثمان وواقعة صفين سبع سنين

ومع تشديد الصحابة في التعويل على مصحف عثمان دون سواه فقد ظلّ عند بعض المسلمين نسخ من مصاحف أُخرى اشهرها مصحف علي . و يعتقد الشيعة ان علياً اول من خط المصاحف عند وفاة النبي وتنوقل مصحفه في شيعته و بقي عند اهل جعفر . وقد ذكر ابن النديم في كتاب الفهرست انه رأَى عند ابي يعلي حمزة الحسيني مصحفاً بخط علي يتوارثه بنو حسن[٢] — ومنها مصحف عبدالله بن مسعود وابي بن كعب ولكل منها ترتيب خاص في سوره[٣]

على ان الخلفاء والامراء كانوا يبذلون جهدهم في جمع الكلمة على مصحف عثمان والتشديد في اعدام ما سواه وفي جملة مساعيهم ان الامراء كانوا يكتبون نسخاً من ذلك المصحف يضعونها في المساجد ليتلوها الناس و يرجعوا اليها في تصحيح ما بين ايديهم من المصاحف الخصوصية . وربما كتب الامير عدة مصاحف وفرقها في الامصار ولكنهم كانوا يعدُّون قبول مصحف الامير في الجامع اقراراً بسيطرته عليهم . وكان الحجاج في مقدمة من كتب المصاحف من الامراء وفرقها في الامصار فبعث منها مصحفاً الى مصر والوالي عليها يومئذ عبد العزيز بن مروان فغضب وقال « ايبعث الى جندٍ انا فيه بمصحف ؟ » وامر فكتبوا له مصحفاً آخر بالغ في ضبطه واعلن بعد الفراغ من كتابته ان من وجد فيه حرفاً خطأً فله رأْس احمر وثلاثون ديناراً . فوجد فيه احد قراء الكوفة لفظة « نجعة » بدل « نعجة » فنال الجائزة[٤]

قراءة القرآن

كان للقراءة شأْن عظيم في اول الاسلام لقلة الذين يقراون يومئذ فسموا الذين كانوا يحفظون القرآن « قراء » تمييزاً لهم عن سائر المسلمين لانهم كانوا اميين . وقد تقدم ان السبب الذي حمل عثمان على جمع القرآن وكتابته ما بلغه من اختلاف الصحابة في قراءته . على انه لم يمض على ارسال مصاحفه الى الامصار زمن قصير حتى اصبح لاهل كل مصر قراءة خاصة يتبعون فيها قارئاً يثقون بصحة قراءته وتنوقل ذلك واشتهر . ثم استقر منها

(١) المسعودي ٢٠ ج ٢ (٢) الفهرست ٢٨ (٣) الفهرست ٢٦
(٤) المقريزي ٢٥٤ ج ٢

سبع قراءات معينة تواتر نقلها بادائها واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها فصارت هذه القراءات السبع اصولاً للقراة و يعدُّها بعضهم عشرًا

واصحاب هذه القراءات هم نافع بن ابي رؤَيم و يزيد بن القعقاع في المدينة · وعبدالله ابن كثير في مكة · وابو عمرو بن العلاء و يعقوب الحضرمي في البصرة · وعبدالله بن عامر في الشام وعاصم بن ابي النجود وحمزة بن حبيب الزيات وعلي الكسائي وخلف البزاز في الكوفة · واشتهر غيرهم كثيرون في اقطار العالم الاسلامي وفيهم من يقرأُ قراءات غريبة وخصوصاً بعد ان ظهرت الفرق الاسلامية وتشعبت الآراء في التفسير والفقه والخلفاء يشددون في مقاصة اولئك الشاذين خوف التفرقة كما كانت تفعل رؤساء النصرانية في القرون الاولى للميلاد · ولكن الاسلام كان اقرب الى اطلاق حرية الفكر والقول وخصوصاً في اوائلهِ فلم يكن احدهم يستنكف من ابداء ما يخطر له ولو كان مخالفًا لرأى الخليفة ولذلك كثرت الفرق الاسلامية يومئذٍ وتعددت مذاهب اصحابها في القراءة والتفسير والفقه وفي كل شيءٍ حتى ذهب بعضهم الى ان سورة يوسف ليست من القرآن لانها قصة من القصص والقائلون بذلك العجاردة [1] وذهبت طائفة أُخرى الى اثبات حكم من احكام الالهية في السيد المسيح وانه هو الذي يحاسب الخلق [2] وظل بعضهم يقرأُون القراءات الغريبة الى اواسط الدولة العباسية وفي جملتهم يعقوب العطار المتوفى سنة ٣٥٤ ﻫ فاستحضره الخليفة واستتابه بحضرة القراء والفقهاء وكتب محضر توبته واشهد عليه من حضر [3]

واشهر من قرأَ القراءات الشاذة ابن شنبوذ البغدادي المتوفى سنة ٣٢٨ ﻫ فانه تفرد بقراءات من الشواذ كان يقرأُ بها في المحراب ذكرها ابن النديم وابن خلكان فعلم به ابن مقلة الوزير سنة ٣٢٣ ﻫ فقبض عليه واعتقله اياماً فلم يكن ذلك ليرجعه عن قراءته فامر بجلده واستتابه فتاب وقال انه قد رجع عما يقرأُه وانه لا يقرأُ الاَّ بمصحف عثمان بن عفان بالقراءة المتعارفة التي يقرأُ بها الناس وكتب محضرًا بذلك [4]

والقراءات العشر التي ذكرنا اصحابها كلها جائزة عند المسلمين · وعند الائمة ان الجميع على صواب فقد يختار الاقليم الواحد قراءة واحدة او قراءتين او اكثر وقد تقرأُ كل القراءات في اقليم واحد [5]

---

(١) الشهرستاني ٩٥ ج ١ (٢) الشهرستاني ٤٢ ج ١ (٣) طبقات الادباء ٣٦١
(٤) ابن خلكان ٤٩٠ ج ١ (٥) المقدسي ٣٩ ونفح الطيب ٤٠١ ج ١

وكانوا يرجعون في اثبات صحة القراءة الى الاسناد المتسلسل كقولهم قرأ يعقوب بن اسحق على سلام وقرأ سلام على عاصم وقرأ عاصم على ابي عبد الرحمن وقرأ ابو عبد الرحمن على علي بن ابي طالب وقرأ علي على النبي (١)

تأثير القرآن

ان قراءة القرآن وحفظه من اول واجبات المسلمين وخصوصاً في اوائل الاسلام فانطبعت اوامره ونواهيه في افئدتهم وارتسمت عبارته على من ألسنة ادبائهم واصبح هو المرجع في الشرع والدين واللغة والانشاء وفي كل شيء . فاقتبسوا اساليبه في خطبهم وكتبهم وتمثلوا بآياته في مؤلفاتهم وظهرت آدابه وتعاليمه في اخلاقهم واطوارهم مع تباعد الامم التي اعتنقت الاسلام في اصولها ولغاتها وبلادها . واستشهدوا باقواله ونصوصه في علومهم اللسانية فضلاً عن العلوم الشرعية . فقد كان في كتاب سيبويه وحده ٣٠٠ آية من القرآن واصبح اهل البلاغة لا تروق لهم الكتابة او الخطابة الا اذا رصعوها بشيء من آي القرآن كما سترى في باب الخطابة في الاسلام وفي باب البلاغة من اقتباس الآيات وادخالها في عبارات الخطب والرسائل والتوقيعات

على انهم كانوا لفرط اشتغالهم بحفظ القرآن وقراءته وتفهمه لو ذكر الرجل حرفاً او كلمة انتبه السامع للآية كلها . ولذلك كثيراً ما كانوا يرمزون بالكلمة الواحدة الى آية يفهمها العارف ويعمل بها وقد تخفى على كثيرين

ومما يحكى من هذا القبيل ان السلطان محمود الغزنوي الشهير بعث الى الخليفة يطلب ان يذكر اسمه في الخطابة ببغداد وينقش اسمه في سكة الذهب والفضة . فامتنع الخليفة من ذلك . فبعث اليه كتاباً فيه تهديد ووعيد قال في جملته « لو اردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة الى غزنة لفعلت » فبعث اليه الخليفة كتاباً مختوماً فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة الا الفاً ممدودة وفي وسطه لام وفي آخره ميم والصلاة والحمد لله . فحار السلطان واهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم ابو بكر القهستاني ففكر في ذلك وقال « عندي شرحه » فقال «اذكر ولك ماتريد» فقال « بعث اليهم السلطان يهددهم بالفيلة فبعثوا له هذا الكتاب وفيه الف ولام وميم اشارة الى قوله تعالى الم ترَ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل الى آخر السورة » فارتاع السلطان لذلك ووقع في قلبه الخوف والندم وعاد الى احسن الاحوال من الرضى والادب (٢)

---

(١) ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢ (٢) ترتيب الدول ٦٩

ويحكى ايضاً ان المأمون غضب على عبدالله بن طاهر وشاور اصحابه في الايقاع به وكان قد حضر المجلس صديق له فكتب اليه كتاباً فيه « بسم الله الرحمن الرحيم يا موسى » فلما فضه ووجد ذلك تعجب وما زال يطيل فيه النظر حتى علم انه يريد « ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » [1]

وابلغ من ذلك حكاية سديد الملك وتشديد نون « انّ » وقد ذكرناها في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ١٩٧ وفي اعادتها هنا تكرار

وقد عني المسلمون في كتابة القرآن وحفظه عناية ليس بعدها غاية فكتبوه على صفائح الذهب والفضة وعلى صفائح العاج وطرزوا آياته بالذهب والفضة على الحرير والديباج وزينوا بها محافلهم ومنازلهم ونقشوها على الجدران في المساجد والمكاتب والمجالس ورسموه بكل الخطوط واجملها على كل اصناف الرقوق والجلود والكواغد بالادراج والكراريس والرقاع باصناف المداد والوانها وملأوا بين الكلام بالذهب . وكان الخلفاء والامراء والسلاطين يتبركون بكتابة المصاحف بايديهم ويختزنونها في المساجد او نحوها . وفي دار الكتب الخديوية بالقاهرة امثلة كثيرة من المصاحف المخطوطة بمعظم الاشكال المذكورة من القلم الكوفي الخالي من الشكل والاعجام الى تمام الاعجام والشكل وما بينهما

وقد ضبطوا عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه وعدوا ما فيه من الالفات والباءات الى الياءات [2]

تفسير القرآن

كان العرب عند ظهور الدعوة كلما تليتْ عليهم سورة او آية فهموها وادركوا معانيها بمفرداتها وتراكيبها لانها بلسانهم وعلى اساليب بلاغتهم ولان اكثرها قيلت في احوال كانت كالقرائن تسهل فهمها واذا اشكل عليهم شيء منها سألوا النبي فكان يبين لهم المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ . فحفظ اصحابه عنه ذلك وتناقلوه فيما بينهم وعنهم اخذ من جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين

ولما صار الاسلام دولة واحتاجوا الى الاحكام والقوانين كان القرآن مصدر استنباطها فزادت العناية في تفسيره واصبح القراء والمفسرون مرجع المسلمين في استخراج تلك الاحكام وهم الفقهاء لاول عهد الاسلام . وكانوا يتناقلون التفسير شفاهاً الى اواخر القرن الاول

(١) الدميري ١٢٦ ج ١ (٢) الكشكول ١٧٥

فكان اول من دوّن التفسير في الصحف مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ ﻫ ثم اشتغل فيه سواه وهم كثيرون حتى انتهى ذلك الى الواقدي سنة ٢٠٧ والطبري المتوفى سنة ٣١٠ ﻫ وغيرهما

وقد رأيت ان العمدة في التفسير على النقل بالتواتر والاسناد من النبي فالصحابة فالتابعين والعرب يومئذٍ اميُّون لا كتابة عندهم . فكانوا اذا تشوقوا الى معرفة شيءٍ مما تتوق اليه نفوسهم البشرية من اسباب الوجود وبدء الخليقة واسرارها سألوا عنه اهل الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى المقيمين بين ظهرانيهم واكثرهم من حمير باليمن الذين اخذوا بدين اليهودية (١) وكانوا قد اسلموا لكنهم ظلوا على ما كان عندهم من التقاليد المتناقلة شفاهاً او كتابة مما لا تعلق له بالاحكام الشرعية — فكانوا اذا سئلوا عن شيءٍ اجابوا بما عندهم من اقاصيص التلمود والتوراة بغير تحقيق . فامتلأت كتب التفسير من هذه المنقولات

ومن اشهر اولئك اليهود كعب بن مانع المعروف بكعب الاحبار اسلم في خلافه عمر بن الخطاب (٢) . وعبد الله بن سلام بن الحارث اسلم عند هجرة النبي الى المدينة (٣) ناهيك بمن كان هناك من اهل الاديان الاخرى كالصابئة والمجوس وغيرهم . وكان بعضهم من ذوي المقامات الرفيعة فكان المسلمون يسألونهم ايضاً وهم يجيبونهم مما عندهم . واشهرهم وهب بن منبه فانه فارسي الاصل جاء جده الى اليمن في جملة من بعثهم كسرى لنجدة اليمن على الحبشة فأقاموا هناك وتناسلوا وصاروا يعرفون بين العرب بالابناء اي ابناء الفرس ومنهم ايضاً طاوس بن كيسان التابعي الشهير

وكان آباء وهب المذكور على دين الفرس (المجوسية او الزردشتية) فلما اقاموا بين اليهود باليمن اخذوا عنهم آداب اليهود وتقاليدهم واختلطوا بالحبشة هناك فتعلموا شيئاً من النصرانية وكان وهب يعرف اليونانية (٤) فاطلع على آداب اليونان وغيرهم فنشأ وهو ذو اطلاع واسع في اخبار الامم واحوال الانبياء وقيام الدنيا وسير الملوك . ومن اقواله انه قرأ من كتب الله ٧٢ كتاباً فكان للعرب ثقة كبرى فيه ولم يسألوه عن شيءٍ الاّ افاض في الجواب عليه مما يحفظه

فكانت كتب التفسير في القرون الاولى محشوة بالاخبار وفيها الغثّ والسمين مما نقل اليها من الاديان الاخرى التي كانت شائعة قبلها في جزيرة العرب او حولها . كما اصاب

---

(١) ابن خلدون ٣٦٧ ج ١ (٢) اسد الغابة ٢٤٧ ج ٤

(٣) اسد الغابة ١٧٦ ج ٣ (٤) المسعودي ١٠٩ ج ٢

النصرانية عند اول ظهورها اذ دخلها كثير من عادات الامم الوثنية ومعتقداتهم وتقاليدهم مع سهر الآباء الاولين على تخليصها من ذلك

فلما نشأت العلوم اللسانية واشتغل المسلمون بها واطلعوا على كتب المنطق والفلسفة تعودت عقولهم على طلب الدليل والقياس فاعادوا النظر في تلك التفاسير ونظروا في مروياتها ومحصوها وسبروها بمسبار العقل • واشهر من فعل ذلك منهم ابن عطية والقرطبي وجار الله الزمخشري صاحب الكشاف وغيرهم

وكتب التفسير كثيرة جداً ذكر منها صاحب كشف الظنون نيفاً وثلاثماية تفسير وقال انهُ ذكر بعضها وكانت اكثر من ذلك كثيراً (١)

الحديث

لما اشتغل المسلمون في تفهم معاني القرآن كان في جملة ما افتقروا اليه في تفهمها أقوال النبي وهو ما عبروا عنه بالاحاديث النبوية واقدم من سمعها الصحابة وحفظوها فكانوا اذا اشكل عليهم فهم آية واختلفوا في تفسيرها او حكمٍ من أحكامها استعانوا بتلك الاحاديث على استيضاحها • فلما كانت الفتوح تفرق الصحابة في الارض وعند كل منهم بعض الاحاديث وقد يتفرد بعضهم باحاديث لم يسمعها سواه فأصبح طالب الحديث اذا كان من أهل دمشق مثلاً لا يستوفيه الاَّ اذا رحل في طلبه الى مكة والمدينة والبصرة والكوفة والري ومصر وغيرها وكذلك المقيم في أحد هذه البلاد فانه لا يستطيع استيفاء الحديث ما لم يطلبه من البلاد الأُخرى وهذا ما يعبرون عنهُ بالرحلة في طلب العلم • على ان الارتحال في طلب العلم لم يكن من مستحدثات الاسلام ولكنه كان شائعاً من قديم الزمان بالنظر الى قلة وسائل المواصلات واسباب النشر في تلك العصور • فكان المؤرخ او الجغرافي مثلاً يرحل في طلب التاريخ او الجغرافيا الى أقاصي البلاد كما فعل هيرودوتس واسترابون وغيرهما • ولذلك كان المسلمون يرحلون في طلب العلوم غير الحديث أيضاً • وكان النصارى في العصر الاسلامي يرحلون الى بلاد الروم لاتقان دياناتهم (٢)

وضع الاحاديث

نشأت الفتنة بعد مقتل الخليفة عثمان واختلف المسلمون في الخلافة وادعاها غير

(١) كشف الظنون ٣٠٢ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ٢

واحد فانصرفت عناية كل حزب من احزابهم الى استنباط الادلة واستخراج الاحاديث المؤيدة لدعواهم فكان بعضهم اذا اعوزهم حديث يؤيدون به قولاً او يقيمون به حجة اختلقوا حديثاً من عند انفسهم • وتكاثر ذلك في أثناء تلك الفوضى فكان المهلب بن ابي صفرة مثلاً يضع الاحاديث ليشدّ بها امر المسلمين ويضعف امر الخوارج [١] وهو مع ذلك معدود من الاتقياء والنبلاء مع علمهم بما كان يضعه من الاحاديث لانهم كانوا يعدون ذلك خدعة في الحرب وامثال المهلب كثيرون كانوا يضعون الحديث لاغراض مختلفة

وتسابق الناس خصوصاً الى وضع الاحاديث في اثناء البحث في شروط الخلافة نظراً لما رأوه من تأثير الحديث فيها من أول عهدها • اذ مات النبي وانقسم اصحابه في طلب الخلافة الى قسمين المهاجرين والانصار وكل منهما يعتقد الاحقية في الخلافة لحزبه واشتد عزم الانصار على الثبات في المطالبة وعظمت الفوضى حتى روى ابو بكر الحديث « الائمة من قريش » [٢] فكان في ذلك فصل الخطاب • فقس على ذلك حاجة اصحاب الفرق والاحزاب وغيرهم الى الاحاديث ناهيك بحاجتهم اليها في اثبات حقوق الفتح وغيرها كاوصاف المهدي المنتظر وشروط ظهوره ووضع الاحكام والقوانين وفي كل باب من ابواب الادارة والقضاء • ولما اراد المأمون تحليل المتعة لم يرجعه عن عزمه الا حديث رووه له في تحريمها [٣]

فلا غرو بعد ذلك اذا رغب اهل المطامع في اختلاق الاحاديث وقد ذكروا من وضاع الحديث جماعة اشهرهم اربعة وهم ابن ابي يحيي في المدينة والواقدي في بغداد ومقاتل بن سليمان بخراسان ومحمد بن سعيد بالشام [٤] وكثيراً ما كان اولئك الوضاع يعترفون عند مسيس الحاجة بما اقترفوه كما فعل ابن ابي العوجاء وكان محدثاً في الكوفة فأمر اميرها محمد بن سليمان بقتله سنة ١٥٣ هـ فلما ايقن انه مقتول قال « والله لقد وضعت اربعة آلاف حديث حللت بها الحرام وحرمت الحلال والله لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتكم يوم فطركم » [٥] ومنهم احمد الجويباري وابن عكاشه الكرماني وابن تميم الفريابي فقد ذكر سهل بن السري انهم وضعوا من عند انفسهم نحو عشرة آلاف حديث [٦] ولنحو هذا السبب نشأت الفروق بين احاديث السنة والشيعة

(١) ابن خلكان ١٤٦ ج ٢ (٢) الشهرستاني ١٢ ج ١ (٣) ابن خلكان ٢١٨ ج ٢
(٤) ابن خلكان ١١٣ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٣ ج ٦ (٦) تحذير المسلمين ٤

فلما هدأت الفتنة وعمد المسلمون الى التحقيق كانت تلك الموضوعات قد تكاثرت فاشتغلوا في التفريق بينها وبين الصحيح فالفوا كتباً كثيرة في الحديث وميزوا صحيحه من فاسده وجعلوه مراتب • ولهم في ذلك الفاظ اصطلحوا عليها لهذه المراتب كقولهم الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب وغير ذلك من القابه المتداولة بينهم • وبينوا كيف يأخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة او كتابة او مناولة او اجازة وتفاوت رتبها [1]

اسناد الحديث

وترتب على اهمية الحديث في الدين والدنيا تعرضه للوضع والتحريف كما رأيت فاحتاج الى العناية في تحقيقه ولم يكن ذلك ميسوراً في العصور الاولى الا بالحفظ والرجوع بالمحفوظ الى المصدر الاصلي الذي اخذ عنه بالتسلسل وهو «الاسناد» كأن يقال «حدثنا فلان او اخبرنا فلان او املى عليّ فلان ما هو كذا وكذا» فلما بعدت الرواية جعلوها متسلسلة فقالوا «حدثنا فلان عن فلان عن فلان انه سمع فلاناً يقول كذا وكذا» وترتب على تصحيح ذلك وضبطه النظر في طبقات المحدثين للتفريق بين الثقات وغيرهم فجعلوهم طبقات ومنهم الصحابة فالتابعون فتابعو التابعين فالعلماء البالغون الى رتبة الاجتهاد فالمشتغلون في جمع الاحاديث وحفظها فالناقدون للاحاديث فالشارحون وغيرهم [2] والفوا كتباً كثيرة في طبقات المحدثين والرواة

وكان اهل الامصار يختلفون في طرق اسنادهم فطريقة أهل الحجاز اعلى مما لسواهم وامتن في الصحة لاستبدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط • وسند طريقة الحجاز بعد الصحابة الامام مالك عالم المدينة المتوفى سنة ١٧٩ هـ ثم اصحابه مثل الشافعي وابن حنبل وامثالهم • ومالك اول من دون الحديث في كتاب الموطأ رتبه على ابواب الفقه وقيل ان ابن جريج اول من ألف فيه • ثم عني الحفاظ في طرق الاحاديث واسانيدها وجاء محمد بن اسماعيل البخاري امام المحدثين في عصره فخرج احاديث السنة على أبوابها وألف كتابه الصحيح ثم ألف مسلم بن الحجاج النيسابوري المسند الصحيح فسمي كتاباهما الصحيحين وصار الناس اليهما ثم جاءت طبقة أخرى من المحدثين جمعوا بين هذين او بينهما وبين الموطأ فاجتمع من ذلك الكتب الستة المشهورة للمؤلفين

(١) ابن خلدون ٣٦٨ ج ١ (٢) ابجد العلوم ٨٦

الآتية اسماؤهم وهم البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ومسلم المتوفى بنيسابور سنة ٢٦١ هـ وابو داود المتوفى بالبصرة سنة ٢٧٥ والترمذي المتوفى بترمذ سنة ٢٧٩ والنسائي توفى سنة ٣٠٣ والدار قطني المتوفى ببغداد سنة ٣٨٥ هـ[١]

ولما صار الحديث علماً مدوناً انصرفت العناية الى الاسناد المتسلسل في تحقيق السماع اي تعلم تلك الكتب او بعضها كان يقول احدهم سمعت الحديث (اي تعلمته) من فلان وهو تعلمه من فلان الى البخاري او غيره • وهاك تسلسل اسناد ابن خلكان في كيفية سماعه صحيح البخاري قال « سمعت صحيح البخاري بمدينة اربل في بعض شهور سنة احدى وعشرين وستمائة على الشيخ الصالح أبي جعفر محمد بن هبة الله بن المكرم بن عبدالله الصوفي بحق سماعه في المدرسة النظامية ببغداد من الشيخ ابي الوقت المذكور في شهر ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة بحق سماعه من أبي الحسن عبد الرحمن بن محمد ابن مظفر الداودي في ذي القعدة سنة خمس وستين واربعمائة بحق سماعه من أبي محمد عبد الله بن احمد بن حمويه السرخسي في صفر سنة احدى وثمانين وثلثمائة بحق سماعه من أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف بن مطر الفربري سنة ست عشرة وثلثمائة بحق سماعه من مؤلفه الحافظ أبي عبد الله محمد بن اسمعيل البخارى مرتين احداهما سنة ثمان واربعين ومائتين والثانية سنة أثنين وخمسين ومائتين رحمهم الله تعالى اجمعين »[٢]

وتطرق المسلمون في طريقة الاسناد من الحديث الى غيره من العلوم النقلية كالتاريخ والادب كما هو مشهور وتتبعوا طريقة الاسناد المتسلسل في كثير من العلوم الاسلامية مما لم يسبق له مثيل في البلاد الاخرى او الامم الاخرى • فهم اذا ذكروا عالماً في علم فيها اسندوا تعلمه الى استاذه واستاذ استاذه الى واضع ذلك العلم كقول ابن خلكان في ترجمة فخر الدين بن الخطيب انه اشتغل في علم الاصول على والده ضياء الدين ووالده على القاسم سليمان بن ناصر الانصارى وهو على امام الحرمين أبي المعالي وهو على الاستاذ ابي اسحق الاسفرايني وهو على الشيخ أبي الحسن الباهلي وهو على شيخ السنة أبي الحسن الاشعرى وهو على ابي علي الجبائي اولاً ثم رجع عن مذهبه ونصر مذهب أهل السنة والجماعة

عدد الاحاديث

لما تكاثرت الاحاديث للاسباب التي قدمناها اصبحت تعد بمئات الالوف • فقد ذكروا

(١) الدميري ٥٢ ج ١ (٢) ابن خلكان ٣٠٦ ج ١

ان احمد بن حنبل روى مليون حديث منها ١٥٠,٠٠٠ بالاسانيد والمتون [١] وان يحيي ابن معين المري قال كتبت بيدي ٦٠٠,٠٠٠ حديث — قال راوي هذا الخبر واظن المحدثين كتبوا له بأيديهم ٦٠٠,٠٠٠ و ٦٠٠,٠٠٠ وخلف من الكتب مئة قمطر [٢] وان مسلماً صاحب المسند الصحيح استخرجه من ٣٠٠,٠٠٠ حديث مسموعة [٣] وان الامام البخاري قال صنفت كتابي الصحيح من ٦٠٠,٠٠٠ حديث [٤] وقس على ذلك مما يدل على كثرة فاحشة. اما الذي صح منها فانه أقل كثيراً و بعضهم بالغ في الاقلال وهم اصحاب الرأي وشيخهم ابو حنيفة فلم يصح عنده الا ١٧ حديثاً ومالك صح عنده ٣٠٠ حديث والبخاري اشتمل صحيحه على ٩,٢٠٠ حديث منها ٣,٠٠٠ مكررة واحمد بن حنبل في مسنده ٥٠,٠٠٠ حديث [٥] وقس على ذلك

الفقه

مصدره

لما صار الاسلام دولة احتاج امراؤهُ الى ما يقضون به بين رعاياهم في احوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية فرجعوا الى القرآن والحديث. فاستخرجوا منهما شريعة نظموا بها حكومتهم وحكموا بها بين رعاياهم. وذلك طبيعيٌ في الدول الكبرى. فاليونان قلما عنوا بوضع الشرائع والاحكام الدولية او القضائية لانهم لم يكونوا اهل دولة كبرى الاَّ زمناً قصيراً فانصرفت قرائحهم الى الفلسفة وفروعها. واما الرومان فقد اتسعت مملكتهم كما اتسعت مملكة العرب وامتد سلطانهم وقويت شوكتهم فلم يكن لهم بدٌّ من وضع الشرائع لكنها لم يتم نضجها عندهم الاَّ بعد تاسيس دولتهم ببضعة عشر قرناً على يد يوستنيان صاحب القانون المشهور سنة ٥٣٣ م وهي عبارة عن عادات واعتبارات واعتقادات تجمعت بتوالي الاحقاب من الشعب اللاتيني والصابني وغيرهما ممن دانوا لرومية بالتدريج حتى صارت شريعة كاملة على عهد يوستنيان المذكور

واما المسلمون فانهم استخرجوا احكامهم من القرآن والحديث وقد علمت ما كان لهم من العناية في حفظها ودرسها من اول الاسلام ولذلك لم يمضِ على المسلمين قرنان والثالث حتى

(١) ابن الساعي ٦٦ (٢) ابن خلكان ٢١٥ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٩١ ج ١
(٤) ابن خلكان ٤٥٦ ج ١ (٥) ابن خلدون ٣٦٩و٣٧١ ج ١

نضجت شريعتهم وتكون فقهم وهو من افضل شرائع العالم. وقد اسرعوا في ذلك مثل سرعتهم في تأسيس دولتهم ونشر دينهم

قلنا ان القرآن اساس الفقه الاسلامي وكان المسلمون على عهد النبي يتلقون الاحكام منه وهو يبينها لهم شفاهاً فلم يكن ذلك يحتاج الى نظر او قياس . فلما توفي رجع الصحابة الى القرآن والسنة فاصبح القراء اول فقهاء المسلمين او حاملي شريعتهم وكانوا يرجعون اليهم في الفتيا والاحكام لقلة الذين يقراون في الصدر الاول . فلما عظمت امصار الاسلام وذهبت الامية من العرب وكمل الفقه واصبح صناعة بدلوا باسم الفقهاء والعلماء

الفقهاء

فاول الفقهاء المسلمين الصحابة الاولون واولهم الخلفاء الراشدون ثم عبد الرحمن بن عوف وابيّ بن كعب وعبدالله بن مسعود ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة وزيد بن ثابت وسلمان وابو الدرداء وابو موسى الاشعري[1] ثم انتقلت الفتوى والفقه الى التابعين واشتهر منهم سبعة في المدينة وهم سعيد بن المسيب وابو بكر بن عبد الرحمن وقاسم وعبدالله وعروة وسليمان وخارجة وقد جمعهم بعض العلماء في هذين البيتين

ألا كلُّ من لا يقتدي بأئمة فقسمته ضيزى عن الحق خارجه
فخذهم عبيدالله عروة قاسم سعيد سليمان ابو بكر خارجه[2]

وبعض المؤرخين يحسبهم عشرة مع تبديل بعض الاسماء[3] وعنهم انتقل الفقه والفتيا في العالم الاسلامي

وفي اوائل الاسلام كان الفقه والقراءة والتفسير والحديث علماً واحداً ثم اخذت هذه العلوم تستقل بعضها عن بعض عملاً بناموس الارتقاء فلما استقل الفقه سموا اصحابه الفقهاء كما تقدم وكان لهم تأثير كبير في الدولة لما يترتب على الفتيا من الامور الهامة كالعزل والتنصيب والقتل والعفو

ففي ايام بني امية كان المرجع في الفقه والفتيا الى اهل المدينة فكان الخلفاء لا يقطعون امراً دونهم . وقد علمت مما فصلناه في الجزئين الماضيين من هذا الكتاب ما كان من تعصب بني امية للعرب واحتقارهم غير العرب من المسلمين وغيرهم واهل المدينة مع تحيزهم لاهل البيت وانكار الخلافة على بني امية كان الامويون يسعون في ارضائهم واكرامهم

(١) الدميري ٥١ ج ١ (٢) ابن خلكان ٩٢ ج ١ (٣) ابو الفداء ٢٠٩ ج ١

وخصوصاً اهل الورع من الخلفاء كعمر بن عبد العزيز فانه كان لا يقطع امراً مهماً الاَّ بعد مشورتهم — فلما افضى الامر الى بني العباس واراد المنصور تصغير امر العرب واعظام امر الفرس لانهم انصارهم واهل دولتهم كان من جملة مساعيه في ذلك تحويل انظار المسلمين عن الحرمين فبنى بناءً سماه القبة الخضراء حجًّا للناس وقطع الميرة عن المدينة[1] وفقيه المدينة يومئذٍ الامام مالك الشهير فاستفتاه اهلها في امر المنصور فافتى لهم بخلع بيعته فخلعوها و بايعوا محمد بن عبدالله من آل علي . وعظم امر محمد هذا وحاربه المنصور ولم يتغلب عليه الاَّ بعد العناء الشديد . فرجع اهل المدينة الى بيعة المنصور قهراً وظلَّ مالك مع ذلك ينكر حق البيعة لبني العباس فعلم امير المدينة يومئذٍ وهو جعفر بن سليمان عم المنصور بذلك فغضب ودعا بمالك وجرَّده من ثيابه وضربه بالسياط وخلع كتفه[2]

الرأي والقياس

وكانت علوم القرآن قد انتشرت في العراق وفارس ونبغ من ابنائهما من درس الفقه والفتيا ولكنهم ما زالوا عيالاً فيهما على اهل المدينة لانهم اوثق الناس بحفظ الحديث وقراءة القرآن . وكان الحديث قليلاً في العراق على الخصوص . وكان المسلمون غير العرب هناك اكثرهم الفرس وهم اهل تمدن وعلم فعمدوا الى استخدام القياس العقلي في استخراج احكام الفقه من القرآن والحديث فخالفوا بذلك اهل المدينة لانهم كانوا شديدي التمسك بالتقليد — فكان من جملة مساعي المنصور في تصغير امر المدينة وفقهائها وخصوصاً مالك بعد ان افتى بخلع بيعته انه نصر فقهاء العراق القائلين بالقياس وكان كبيرهم يومئذٍ ابو حنيفة النعمان في الكوفة فاستقدمه المنصور الى بغداد واكرمه وعزز مذهبه . وكان ابو حنيفة لا يحب العرب ولا العربية حتى انه لم يكن يحسن الاعراب ولا يبالي به[3] ولذلك كان الربيع حاجب المنصور يقاومه لان الربيع ينتسب الى العرب. وكان يكره الفرس وابنه الفضل هو الذي سعى في قتل البرامكة[4]

فلما نصر المنصور ابا حنيفة واصحابه وهم المعروفون باهل الراي او القياس ازداد مالك تمسكاً برايه وتبعه فقهاء الحجاز وهم اهل الحديث . وانقسم الفقهاء الى قسمين اهل الحديث واهل الراي وزعيم الاول مالك وانصاره من اهل الحجاز واصحاب الشافعي واصحاب سفيان

---

(١) الجزء الثاني من هذا الكتاب ٣٠ (٢) ابن خلكان ٤٣٩ ج ١

(٣) ابن خلكان ١٦٥ ج ٢ (٤) الجزء الثاني من هذا الكتاب ١٠٧

الثوري واصحاب احمد بن حنبل وغيرهم من اهل التقليد وعرفوا باصحاب الحديث لان عنايتهم مبذولة في تحصيل الاحاديث ونقل الاخبار وبناء الاحكام على النصوص ولا يرجعون الى القياس الجلي اوالخفي ما وجدوا خبراً او اثراً ويدلك على شدة تمسكهم بذلك قول الشافعي « اذا وجدتم لي مذهباً ووجدتم خبراً على خلاف مذهبي فاعلموا ان مذهبي ذلك الخبر »

وزعيم اصحاب الراي ابو حنيفة النعمان واصحابه فقهاء العراق ومنهم محمد بن الحسن وابو يوسف القاضي وزفر بن هذيل والحسن بن زياد وابن سماعة وابو مطيع البلخي وعافية القاضي وغيرهم وقد سمُّوا اهل الراي لان عنايتهم بتحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الاحكام وبناء الحوادث عليها وهم يقدمون القياس الجلي على احاد الاخبار (١)

وجاء بعد مالك من اصحاب مذهبه محمد بن ادريس المطلبي الشافعي فرحل الى العراق وخالط اصحاب ابي حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب خالف فيه مالكاً في كثير من مذهبه • ثم جاء بعده احمد بن حنبل وكان من علية المحدثين وقرأ أصحابه على أصحاب الامام ابي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر • ووقف التقليد في الامصار عند هؤلاء الاربعة وتولد منهم مذاهب الاسلام الاربعة وهي الحنفي والمالكي والحنبلي والشافعي

وللفقه فروع وشروح يضيق المقام عنها هنا فنترك الكلام فيها وفي غيرها من فروع العلم الى تاريخ آداب اللغة العربية

منزلة العلماء عند الخلفاء

يراد بالعلماء في عرض الكلام عن العلوم الاسلامية علماء الحديث والقرآن والفقه وقد علمت ما كان من منزلة هذه العلوم في الخلافة فلا عجب بعد ذلك اذا رأيت الخلفاء يكرمون الفقهاء واصحاب الحديث والزهاد والعلماء وقد رأيت ان بني أمية كانوا يستشيرون فقهاء المدينة في الامور الهامة • وكثيراً ما كان اهل التقوى من الخلفاء يسألون العلماء عن شروط العدل ليجروا عليه — كتب عمر بن عبدالعزيز الى الحسن البصري يسأله عن صفة الامام العادل فاجابه جواباً وافياً (٢) فلما وصله الكتاب وقع منه بمواقع وعظه ومحل يقظه وقد يحمل ذلك على مبالغة هذا الخليفة بالتقوى والورع فما قولك بالمنصور المشهور

(١) الشهرستاني ١٦٠ ج ١ (٢) العقد الفريد للملك السعيد ٥٣

بالشدة والحزم والدهاء اذ دخل عليه عمرو بن عبيد بعد مبايعة المهدي فقال له المنصور « يا أبا عثمان هذا ابن امير المؤمنين وولي عهد المسلمين » فقال عمرو « أراك قد وطدت له الامور وهي تصير اليه وانت عنه مسئول » فاستعبر المنصور وقال « عظني يا عمرو » فوعظه [١] ولما مات عمرو رثاه المنصور بابيات [٢] — ناهيك بحكاية المنصور وهو يطوف بالكعبة ليلاً اذ سمع ذلك العابد يشكو ظهور البغي والفساد ولما سأله المنصور عمن يعني صرح له انهُ يعنيه هو وحكومته ووعظه عظة شديدة لم يستنكف المنصور من سماعها [٣] وقس على ذلك عظات الاوزاعي وابن السماع وسفيان الثوري وشبيب بن شيبة للمنصور والمهدي والرشيد (راجع كتاب الثوري الى الرشيد في الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ١٤١) وكثيراً ماكان الوعظ يبكي الخلفاء لانهم كانوا يجلون العلماء ويكرمونهم حتى تسابقوا الى احترامهم بما لا يصدر الا من خادم الى مولاه فقد صب الرشيد الماء على يدي ابي معاوية الضرير وهو يغسل [٤]

وكان الاكرام في أول الامر للفقهاء والمحدثين خاصة ثم اطلق على اصحاب سائر العلوم الاسلامية كالنحاة واللغويين فقد كان الرشيد يجلس الكسائي ومحمد بن الحسن على كرسيين ويأمرهما ان لا ينزعجا لنهضته [٥] ولما مات هذان في الري في يوم واحد قال الرشيد « دفنت الفقه والعربية في الري » [٦] . وقد تنازع الامين والمأمون ولدا الرشيد في حمل نعال استاذهما الفراء وتقديمها اليه حتى اصطلحا على ان يقدم كلٌّ منهما واحدة [٧]

واكرام الخلفاء للعلماء اقتضى اكرام العامة لهم فلما توفي ابن حنبل مشى في جنازته ٨٠٠,٠٠٠ رجل و ٦٠,٠٠٠ امرأة [٨] وناهيك بهذا الاكرام . ولما سار ابو اسحق الشيرازي من قبل الخليفة المقتدي الى السلطان ملك شاه تنافس أهل البلاد في اقائه والتمسح باطرافه والتماس البركة من ملبوسه ومركوبه [٩]

---

(١) المسعودي ١٧٣ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٣٨٥ ج ١
(٣) العقد الفريد ٢٨٧ ج ١ (٤) الفخري ١٧٥ (٥) المزهر ٢١١ ج ٢
(٦) ابن خلكان ٤٥٤ ج ١ (٧) طبقات الادباء ١٣٠
(٨) ابن خلكان ١٧ ج ١ (٩) ابن خلدون ٤٧٤ ج ٣

٢ — العلوم اللسانية

النحو

النحو بمعناه الحقيقي طبيعيٌّ على لسان كل متكلم يتلقنه من مرضعه · لان الانسان يتعلم النحو وهو يتعلم النطق اذ بدونه لا يحسن التعبير عن افكاره اما اذا اراد ان يتعلم لسانًا غير لسانه فدرس قواعد النحو تسهل عليه تناوله · ولذلك فالامة قد تقضي قرونًا متطاولة وهي تتكلم وتخطب وتنظم الشعر قبل ان تدون قواعد النحو وتجعله علمًا · فاليونان لم يبدأُوا بضبط قواعد لسانهم الا في القرن الخامس قبل الميلاد واول من بدأَ بذلك منهم بروتغوراس المتوفى سنة ٤١١ ق · م · فتكلم في المذكر والمؤنث وبعض الاسماء ثم بروديكوس وقد عاصره وتكلم في المترادفات ثم جاءَ ارسطو وغيره واتموا علم النحو اليوناني وله تاريخ يشبه تاريخ النحو العربي · وكذلك فعل الرومان في نحو اللغة اللاتينية فانهم لم يدونوا قواعده الاَّ في القرن الاول قبل الميلاد في زمن بومبيوس وقد دونه عالم اسمه ديونيسيوس تراكس اقتداءً باليونان

فاليونان نبغ فيهم الشعراءُ والخطباءُ والادباءُ والفلاسفة قبل تدوين قواعد النحو في لسانهم · فنظم هوميروس الياذته واوذيسيته وهو لم يتعلم قواعد النحو فلم يضرّه ذلك شيئًا لان اللغة كانت ملكة فيه والف اشيلوس الروايات التمثيلية وسحر اليونان ببيانه ونبغ الفلاسفة فريسيدس وانا كسيمندر وطاليس وكتب هيرودوتس الرحالة تاريخه الشهير قبل وضع النحو · وكذلك الرومان فقد نبغ فيهم جماعة من الشعراء والخطباء والادباء قبل تدوين النحو

وضع النحو العربي وواضعه

وهكذا العرب فقد نظموا الشعر والقوا الخطب وتناشدوا وتراسلوا قبل تدوين النحو لان ملكة اللغة كانت طبيعية فيهم · على انهم اضطروا الى ضبط تلك القواعد وتدوينها باسرع مما اضطر اليه اليونان والرومان التماسًا للدقة في ضبط معاني القرآن · فلم يمضِ على دولتهم نصف قرن حتى شعروا بالحاجة الى النحو · ويغلب على ظننا انهم نسجوا في تبويبه على منوال السريان لان السريان دونوا نحوهم والفوا فيه الكتب في اواسط القرن الخامس للميلاد واول من باشر ذلك منهم الاسقف يعقوب الرهاوي الملقب بمفسر الكتب المتوفى سنة

٤٦٠ م[١] فالظاهر ان العرب لما خالطوا السريان في العراق اطلعوا على آدابهم وفي جملتها النحو فاعجبهم فلما اضطروا الى تدوين نحوهم نسجوا على منواله لان اللغتين شقيقتان . ويؤيد ذلك ان العرب بدأوا بوضع النحو وهم في العراق بين السريان والكلدان واقسام الكلام في العربية هي نفس اقسامه في السريانية

اما استعجال العرب في تدوين النحو فانه تابع لاستعجالهم في الفتح ونشر الدين لان الفتوح دعت الى الاختلاط بالاعاجم والاختلاط دعا الى فساد اللغة فاصبح الناس يهملون الاعراب . لان العرب كانوا عند ظهور الاسلام يعربون كلامهم على نحو ما في القرآن . الا من خالطهم من الموالي والمتعربين فان هؤلاء كانوا حتى في ايام النبي يخطئون الاعراب وقد ذكروا رجلاً لحن بحضرة النبي فقال « ارشدوا اخاكم فقد ضل » وقال ابو بكر « لأن اقرأ فاسقط احبُّ اليَّ من ان اقرأ فالحن »[٢] ولكن اللحن لم يكثر الا بعد الفتوح وانتشار العرب في الآفاق فتذمر العمال مما كانوا يسمعونه من اللحن وخصوصاً في قراءة القرآن فاحسوا بحاجة شديدة الى ضبط قواعد اللغة

اما واضع علم النحو او مدوّنه فهو بالاجماع ابو الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ ﻫ وكان من سادات التابعين صحب عليّ بن ابي طالب وشهد معه واقعة صفين ثم اقام في البصرة وكأنه تعلم لغة السريان او اطلع على نحوها فرغب في النسج على منواله فعرض ذلك على والي العراقين يومئذٍ زياد بن ابيه فأبى[٣] لاسباب تقدم بيانها . حتى اذا جاءه رجل يشكو اليه امراً فسمعه يقول « اصلح الله الامير توفي ابانا وخلف لنا بنون » فاستنكف زياد من سماع ذلك اللحن فبعث الى ابي الاسود ان يضع ما كان قد نهاه عنه

وقيل بل السبب في وضعه ان بنت خويلد الاسدي دخلت على معاوية وقالت « ان ابويَّ ماتا وتركا لي مالاً » (بالامالة) وبلغ ذلك عليًّا فرسم لابي الاسود باب « انَّ » وباب الاضافة وباب الامالة . ثم سمع ابو الاسود رجلاً يقرأ « ان الله بريءٌ من المشركين ورسولِهِ » بخفض رسوله فصنف باب العطف والنعت . ثم ان بنته قالت له يوماً « يا ابت ما احسن السماء » على طريق الاستفهام فقال « نجومها » فقالت « انما التعجب من حسنها » فقال « قولي ما احسن السماءَ افتحي فاك » وقالت له يوماً « ما اشد الحر » على لفظ الاستفهام على نحو ما جرى في الجملة الماضية فصنف باب التعجب[٤]

---

(١) شعراء السريان للقرداحي ١٨ (٢) المزهر ١٩٩ ج ٢

(٣) ابن خلكان ٢٤٠ ج ١ (٤) مفتاح السعادة (خط)

واختلاف المؤرخون في هذه الروايات وذكروا غيرها ولكن الفحوى واحد — فهم مجمعون على ان ابا الاسود وضع النحو لنحو الاسباب التي قدمناها وهو يقول انه تلقى ذلك عن علي بن ابي طالب . فوضعُ علم النحو او الشروع فيه على الاقل ثابتٌ لابي الاسود ويؤيد ذلك ما ذكره ابن النديم صاحب الفهرست مما شاهده بعينهِ في عرض كلامه عن خزانة كتب اطلعه عليها احد جماعي الكتب فكان في جملة ما فيها قمطر كبير فيه نحو ٣٠٠ رطل جلود فلجان وصكاك وقرطاس مصري وورق صيني وورق تهامي وجلود ادم وورق خراساني وبينها اربعة اوراق قال « احسبها من ورق الصين ترجمتها هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من ابي الاسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوي وتحته هذا خط النضر بن شميل ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر » [1]

على ان ما وضعه ابو الاسود من القواعد لم يكن ليسد الحاجة المستعجلة لضبط القراءة فعمد الى ضبطها بعلامات يتميز بها المنصوب من المرفوع او الفعل من الاسم فوضع علامات كانت عند السريان يدلّون بها على الرفع والنصب والجر او يميزون بها الفعل من الاسم كما تقدم في كلامنا عن تاريخ الخط العربي

فالعرب كانوا يعرفون الاعراب قبل علم النحو كما كانوا يحسنون النظم قبل علم العروض وكان ذلك ملكة طبيعية فيهم حتى اختلطوا بالاعاجم واسلم هؤلاء وليس فيهم ملكة اللغة ليفهموا القرآن فاضطروا الى ضبطها وكانوا اكثر المسلمين اشتغالاً في ذلك . بدأ بعلم النحو ابو الاسود واتمَّـه من جاء بعده من اهل البصرة والكوفة . واول من اخذ عنه عنبسة ابن معدان المهري واخذ عن هذا ميمون الاقرن واخذ عنه عبدالله الحضرمي واخذ عنه عيسى ابن عمر واخذ عنه الخليل بن احمد امام علم العروض واللغة ومنه اخذ سيبويه امام علم النحو [2] فتنوقل النحو في هؤلاء من الواحد الى الآخر وهو ينمو ويرتقي عملاً بناموس الارتقاء والفوا فيه الكتب لكنه نضج في ايام سيبويه (توفي سنة ١٨٠ هـ) فالف فيه كتابه الشهير واصبح كل ما الف في النحو عيالاً عليه وعلى كتاب العين الآتي ذكره . وكانوا اذا قالوا « الكتاب » ارادوا كتاب سيبويه وكان الناس يتهادونه كانخر التحف

---

(١) الفهرست ٤٠ (٢) ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢

الادب واللغة

لما اخذ المسلمون في تفسير القرآن احتاجوا الى ضبط معاني الفاظه وتفهم اساليب عباراته فجرّهم ذلك الى البحث في اساليب العرب واقوالهم واشعارهم وامثالهم ولا يكون ذلك سالمًا من العجمة او الفساد الاّ اذا أُخذ عن عرب البادية الذين كانت قريش في الجاهلية تتخيّر من الفاظهم واساليبهم . فعني جماعة كبيرة من المسلمين في الرحلة الى بادية العرب والتقاط الاشعار والامثال والسؤال من افواه العرب عن معاني الالفاظ واساليب التعبير وسموا الاشتغال بذلك مع ما يتبعه من صرف ونحو وبلاغة بعلم الادب

والقبائل التي نقلوا عنها العربية قيس وتميم واسد وعن هذه القبائل الثلاثة اكثر ما اخذ من اللغة وعليها عوّل الناقلون في الغريب وفي الاعراب والتصريف ثم قبيلة هذيل وبعض كنانة وبعض طي ولم يؤخذ من غيرهم من سائر القبائل ولا اخذوا شيئًا عن الحضر ولا من البدو الذين كانوا يسكنون البراري المجاورة للامم الاخرى — فلم ياخذوا من لخم وجذام لمجاورتها اهل مصر ولا من قضاعة وغسان واياد لمجاورتهم اهل الشام واكثرهم نصارى يقرأُون العبرانية والسريانية . ولا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس ولا من عبد القيس والازد وعمان لانهم كانوا بالبحرين يخالطون الهند والفرس ولا من اهل اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف واهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن ولا من حاضرة الحجاز لان الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأُوا ينقلون لغة العرب وقد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت السنتهم — والذين نقلوا اللغة واساليبها عن القبائل المذكورة واثبتوها في الكتب وصيروها علمًا هم اهل البصرة والكوفة فقط[1] وكان اكثر المشتغلين في جمع اللغة وآدابها العجم لحاجتهم الى ذلك اكثر من العرب

علماء الادب بالبصرة والكوفة

ومن اقدم المشتغلين في جمع اللغة والادب واوسعهم حفظًا ورواية ابو عمرو بن العلاء التميمي المتوفى بالكوفة سنة ١٥٤ ه وهو من مواليد مكة وكانت كتبه عن العرب الفصحاء تملأُ بيته الى قريب السقف[2] وقال مع ذلك « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقلّه ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير »

(١) المزهر ١٠٥ ج ١ (٢) ابن خلكان ٣٨٦ ج ١

ونبغ في العراق جماعة كبيرة من طلاب الادب واللغة في القرن الثاني للهجرة اشهرهم اربعة في عصر واحد وهم ابو زيد وابو عبيدة والاصمعي والخليل وكان العلم كله عندهم والثلاثة الاول اخذوا عن ابي عمرو المذكور اللغة والنحو والشعر والقراءة [1]

فابو زيد كان من الانصار توفي سنة ٢١٤ ﻫ وهو من رواة الحديث ثقة في اللغة واخذ عنه سيبويه · وابو عبيدة كان اعلم الجميع بايام العرب واخبارهم واجمعهم لعلومهم ومن اقواله « ما التقى فرسان في جاهلية او اسلام الاّ عرفتهما وعرفت فارسيهما » توفي سنة ٢٠٩ ﻫ والاصمعي غلبت عليه اللغة وحفظ الشعر ونقده توفي سنة ٢١٣ ﻫ

واما الخليل بن احمد المتوفى سنة ١٧٠ فانه اسبقهم جميعاً وقد لقبوه بسيد علم الادب لانه اول من دوّن اللغة على حروف المعجم في كتابه المشهور بكتاب العين سماه بذلك لانه رتبه على الحروف باعتبار مخارجها من الحلق فاللسان فالاسنان فالشفتين وبدأ بحرف العين وهاك ترتيبه ع ح ﻫ خ غ ق ك ج ش ص ض س ر ط د ت ظ ذ ث ز ل ن ف م و ا ي فكأن الخليل حذا بذلك حذو الهنود في ترتيب حروف لغتهم السنسكريتية فانهم يبدأون باحرف الحلق حتى ينتهون الى الاحرف الشفوية [2]

وكان من عادة العرب ان يسمّوا الكتاب باول لفظ من الفاظه ككتاب الجيم للهروي وهو كتاب رتبه على حروف المعجم بدأ به بحرف الجيم [3] وكتاب الجيم لابي عمرو الشيباني [4] ومن هذا القبيل كتاب الغين في الحروف وكتاب الميم ونحوهما · ويستفاد من ملاحظة ترتيب الحروف في كتاب العين ان الجيم كانوا يتلفظون بها كالكاف الفارسية وان كثيراً من الاحرف تختلف عما ننطق به الآن

وكان الحفاظ والرواة يدققون في ما يأخذونه عن العرب من شعر او مثل او قول او غير ذلك وما يسمعونه من معانيها لان عليها يتوقف تفسير القرآن ولذلك فانهم تحدّوا في نقل اللغة طريقة الاسناد المتسلسل كما كانوا يفعلون في رواية الحديث وعني الناس بحفظها مثل عنايتهم بحفظه لاعتبارهم ان ناقل اللغة يجب ان يكون عدلاً كما يشترط في ناقل الحديث لانها واسطة تفسيره وتأويله · على انهم لم يستطيعوا ذلك تماماً

وزها القرن الثاني وبعض الثالث في البصرة والكوفة ونبغ فيهما النحاة والرواة والحفاظ

---

(١) المزهر ٢٠٢ ج ٢ (٢) William's Sanskrit Grammar 15
(٣) طبقات الادباء ٢٦٠ (٤) ابن خلكان ٦٥ ج ١

والادباء والشعراء . والبصرة متقدمة في ذلك واهل الكوفة يأخذون عن اهل البصرة وهؤلاء يستنكفون ان ياخذوا عن اهل الكوفة لاعتقادهم انهم غير محققين . ولم يعلم ان احداً من البصريين اخذ عن اهل الكوفة الاّ ابو زيد الانصاري [1] على ان الشعر كان في الكوفة اكثر واجمع منه في البصرة ولكن كثيرًا منه مصنوع . واشهر علماء الكوفة الكسائي [2] المتوفى سنة ١٨٢ ه يليه في النحو تلميذه الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ ه وعلي الاحمر اللحياني وغيره كما اشتهر في البصرة سيبويه ومن ذكرناهم من النحاة واهل الادب

علماء الادب في بغداد

وما زال هذان المصران مصدر العلوم الاسلامية حتى بنيت بغداد وانتقل العلم اليها . وغلب ورود اهل الكوفة الى بغداد لقربهم منها . وكان العباسيون يكرمونهم لانهم نصروهم لما قاموا لطلب الخلافة . فقدمهم الخلفاء على اهل البصرة واستقدموهم اليهم ووسعوا لهم ورغب الناس في الروايات الشاذة وتفاخروا بالنوادر وتباهوا بالترخيصات وتركوا الاصول واعتمدوا على الفروع . واشتهر منهم في عصر الفراء عبدالله بن سعيد الاموي وابو الحسن الاخفش الكوفي وابو عكرمة الضبي وابو عمرو الشيباني وغيرهم

وآل الامر بعد نضج علم الادب في العصر العباسي الى اربعة هم اركانه وعمدته دونوا علمهم في كتب شهيرة هي (١) كتاب ادب الكاتب لابن قتيبة (٢) كتاب الكامل للمبرد (٣) البيان والتبيين للجاحظ (٤) كتاب النوادر للقالي . وهذه الكتب هي مصادر علم الادب عند العرب الى الآن واكثر ما الف بعدها نقل عنها [3]

ولما قدّم العباسيون اهل الكوفة ارتقوا في عين انفسهم وارادوا مسابقة اهل البصرة ومفاخرتهم فقامت المجادلات بين البلدين في مسائل كثيرة في النحو والادب واللغة اشهرها مسألة الزنبور والنحلة التي انتشبت نارها بين سيبويه من البصرة والكسائي من الكوفة . وكان الكسائي يعلم الامين بن الرشيد فكان الامين ينصره كأنّ على انتصار احد النحويين يتوقف انتصار اهل بلده جميعًا . ولا باس من ايراد خلاصة المسالة ليظهر مقدار اهتمام الخلفاء في المسائل العلمية — وذلك ان الكسائي كان مقيماً في بغداد يعلم الامين واتفق ان سيبويه قدم اليها من البصرة فجمع الامين بينهما في مجلس فتناظرا في امور كثيرة من جملتها مسألة الزنبور فذكر الكسائي من امثال العرب مثلاً رواه على هذه الصورة «كنت اظن الزنبور اشدّ لسعًا من النحلة فاذا هو اياها» فقال سيبويه ليس المثل كذلك بل « فاذا

(١) طبقات الادباء ١٧٥ (٢) المزهر ٢٠٦ (٣) ابن خلدون ٤٨٦ ج ١

هو هي » وتشاجرا طويلاً واتفقا على مراجعة عربي خالص لا يشوب كلامه شيء من كلام اهل الحضر . وكان الامين شديد العناية بالكسائي لكونه معلمه فاستدعى عربياً وسأله فقال كما قال سيبويه فقال له « نريد ان تقول كما قال الكسائي » فقال « لساني لا يطاوعني على ذلك فانه ما يسبق الاّ الى الصواب » فقرروا معه ان شخصاً يقول « قال سيبويه كذا وقال الكسائي كذا فالصواب مع من منهما » فيقول العربي « مع الكسائي » فقال « هذا يمكن » ثم عقد لهما المجلس واجتمع ائمة هذا الشان وحضر العربي وقيل له ذلك فقال « الصواب مع الكسائي وهو كلام العرب » فعلم سيبويه انهم تحاملوا عليه وتعصبوا للكسائي فخرج من بغداد وقد حمل في نفسه لما جرى عليه وقصد بلاد فارس

و يدلُّ ذلك على عناية اهل الدولة بالمسائل الادبية وان كانت في الواقع لا تخلو من غرض سياسي . على انهم كانوا يهتمون بالاداب من ايام بني امية فقد ذكروا ان عبد الملك بن مروان كان يعقد المجالس للمذاكرة فقال مرة لبعض اهل مسامرته « ايكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه » اراد ان يعدد اعضاء بدنه فيذكر عضواً اوله حرف الالف ثم عضواً اوله حرف الباء وهكذا الى الياء فقام سويد بن غفلة فعدَّها فقام احد الحاضرين فعدَّها في جسد الانسان مرتين [1] فاجاز الاثنين

وكانت علوم اللغة في أول أمرها مشتركة مختلطة ثم تميزت وتشعبت فصارت علوماً عديدة كل منها مستقلٌّ عن الآخر كالنحو والصرف واللغة والمعاني والبيان والاشتقاق والعروض والقوافي وأخبار العرب وامثالهم والجدل وغيرها وقد يطلقون عليها علم الادب ولكل منها تاريخ وشروح هي من شأن تاريخ أداب اللغة

بلاغة الانشاء

البلاغة في الانشاء مما اقتضاهُ القرآن لانه مثال البلاغة والفصاحة عندهم يتحدونه في خطبهم ورسائلهم وانشائهم واذا لم يتحدوه عمداً فشيوع حفظه فيهم أكسبهم ملكة البلاغة مع ما كانوا فيه من أسباب الحماسة والأنفة في ابان دولتهم • فدخلت لغة العرب بعد الاسلام في طور جديد من البلاغة والفصاحة ظهر في عباراتها على اختلاف طرق تأديتها خطابةً او كتابةً • اما بلاغة الخطابة فسيأتي الكلام عليها • واما الكتابة فينظر فيها من

(١) الكشكول ١٥٥

عدة وجوه ترجع الى كتابة الرسائل وكتابة الكتب

انشاء الرسائل

فالرسائل كانت عبارتها عندهم مثل عبارة الخطابة من حيث التفنن في اساليب الخيال بالتهديد او الوعيد او النصح او الاستنهاض او الاستعطاف او نحوذلك من المعاني الشعرية. وكانوا في أوائل الاسلام يتوخون الاختصار فيها على قدر الامكان عملاً بالحديث القائل « اوتيتُ جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً » فكانوا يجمعون المعنى الكبير في اللفظ القليل حتى تكاد ترى المعنى مجرداً من اللفظ. وكان لتلك الرسائل تأثير مثل تأثير الخطب البليغة كأنهم استعاضوا بعد زمن الفتح ببلغاء الكتاب عن بلغاء الخطباء.

ومن أمثلة الرسائل المختصرة البليغة ان عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص أمير مصر وكان الحجاز في ضنك عام الرمادة « من عبدالله عمر أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص سلام عليك أما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي اذا شبعت انت ومن معك ان اهلك انا ومن معي فياغوثاه ثم ياغوثاه » فكتب اليه عمرو « لعبدالله عمر أمير المؤمنين من عبدالله عمرو بن العاص اما بعد فيالبيك ثم يالبيك قد بعثت اليك بعيرٍ اولها عندك وآخرها عندي والسلام عليك ورحمة الله »

ومن أمثلة تأثير المكاتبة البليغة ان عبد الملك بن مروان بنى باباً في بيت المقدس باسمه وامر الحجاج فبنى باباً باسمه هو فاتفق ان صاعقة وقعت فاحترق بها باب عبد الملك فقط فعظم ذلك عليه وتشاءم منه فكتب الحجاج اليه « بلغني ان ناراً نزلت من السماء فاحرقت باب أمير المؤمنين ولم تحرق باب الحجاج وما مثلنا في ذلك الا كمثل ابني آدم اذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر» فسري عن عبدالملك بذلك

وكان الخلفاء يختارون كتابهم من البلغاء ويتوخون جهدهم في الاختصار مع البلاغة ومن أمثلة ذلك أن المأمون استكتب كاتبه عمرو بن مسعدة كتاباً الى بعض العمال بالوصية عليه والاعتناء بامره فكتب « كتابي اليك كتاب واثق بمن كتب اليه معنىً بمن كتب له ولن يضيع بين الثقة والعناية » وكثيراً ما كانوا يجيبون على الكتاب بعبارة مختصرة وخصوصاً اذا أرادوا التهديد او نحوه كما أجاب الرشيد نقفور ملك الروم وكان قد كتب اليه ينذره بقطع ما كان يحمله الروم الى بغداد من الاموال ويطالب اليه ارجاع ما كان قد قبضه منها الى ان قال « وافتد نفسك بما تقع به المصادرة والاَّ فالسيف بيننا وبينك » فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزَّه الغضب فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب

بعد البسملة « قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه » وأجاب مثل ذلك الجواب يوسف بن تاشفين للاذفونش ملك الافرنج لما هدده بكتاب فكتب يوسف على ظهر الكتاب « الذي يكون ستراه »

التوقيعات

ويعدُّ من هذا القبيل أيضاً التوقيعات وهي ما كان يوقعهُ الخلفاء على ما يرفع اليهم من القصص بما يشبه (التأشير) في دواوين هذه الايام وكانوا يتفننون في التوقيع تفنناً بديعاً . ويغلب ان يجعلوا اجوبتهم آيات من القرآن او جملاً من الحديث او اشعاراً مشهورة ومن أمثلة ذلك ان سعد بن ابي وقاص كتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه في بنيان بيتٍ فوقع عمر في أسفل الكتاب « ابن ما يكنك من الهواجر واذى المطر » ووقع عثمان ابن عفان في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا انه امر بوجء اعناقهم « فان عصوك فقل اني بريءٌ مما تعملون » وكتب سلمان الفارسي الى علي بن ابي طالب يسأله كيف يحاسَب الناس يوم القيامة فوقع على جوابه « يحاسبون كما يرزقون »

وكتب عبدالله بن عامر الى معاوية في أمر يعاتبه فيه فوقع في أسفل الكتاب « بيت امية في الجاهلية أشرف من بيت حبيب في الاسلام فانت راهُ » وكتب اليه ربيعه ابن عسل اليربوعي يسأله ان يعينه في بناء داره بالبصرة باثني عشر الف جذع فوقع في أسفل الكتاب « أدارك في البصرة أم البصرة في دارك » وكتب الحجاج الى عبد الملك بن مروان يخبره بسوء طاعة أهل العراق ومايقاسي منهم ويستأذنه بقتل أشرافهم فوقع له « ان من يمن السائس أن يتألف به المختلفون ومن شؤمه ان يختلف به المتألفون » ووقع عبد الملك في كتاب ابن الاشعث

فما بال من اسعى لاجبر عظمه حفاظاً وينوي من سفاهته كسري

ووقَّع عمر بن عبد العزيز الى عامل شكاه الناس « كثر شاكوك وقلّ شاكروك فاما اعتدلت واما اعتزلت والسلام » [1] وكتب اليه بعض عماله يستأذنه في بناء مدينة فوقع على الكتاب « ابنها بالعدل ونقِّ طرقها من الظلم »

وقس على ذلك سائر توقيعات بني امية وبني العباس وهي كثيرة وكلها بليغة كتوقيع المهدي لعامله على خراسان لامر جاء عنه « انا ساهر وانت نائم » وتوقيع الرشيد الى عامله

(١) المسعودي ١٢١ ج ٢

على مصر « احذر ان تخرب خزانتي وخزانة اخي يوسف فيأتيك من لا قبل لك به ومن الله اكثر منه » وتوقيع المأمون الى ابن هشام في أمر تظلم فيه « من علامة الشريف ان يظلم من فوقه و يظلمه من تحته فاي الرجلين انت ؟ »

وكان الامراء والوزراء ايضاً يوقعون مثل توقيعات الخلفاء في ما يرفع اليهم من القصص . فتظلم احدهم الى زياد بن ابيه من بعض عماله بكتاب فوقع له « انا معك » ووقع الحجاج في كتاب اتاه من صاحب الكوفة يخبره بسوء طاعة أهلها وما يقاسي من مداراتهم « ما ظنك بقوم قتلوا من كانوا يعبدونه » ووقع جعفر بن يحيى في قضية محبوس « ولكل اجل كتاب » ووقع لآخر « الجناية حبسته والتوبة تطلقه » وقد اقتبس العرب التوقيع على هذه الصورة من الفرس لانهم سبقوهم الى ذلك .

وما زال الاختصار عمدة البلاغة في رسائلهم ومكاتباتهم حتى تحضروا واختلطوا بالفرس بالمصاهرة والمعاشرة فاقتبسوا منهم التفخيم والمبالغة والتوسع . وقد بدأوا بذلك من اوائل القرن الثاني للهجرة . واول من اطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب وفتق اكمام البلاغة عبد الحميد الكاتب المشهور المتوفى سنة ١٣٢ ﻫ وهو من اهل الشام [1] غير عربي . وسار الكتّاب بعده على خطته وقلدوه وتوسعوا في طريقته فنبغ جماعة من مشاهير البلغاء فيهم الوزراء والامراء واكثرهم من غير العرب ومنهم يحيى بن خالد البرمكي فارسي والفضل بن الربيع من الموالي والفضل بن سهل فارسي والصاحب بن عباد من الطالقان وابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ ﻫ خراساني وعماد الدين الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧ ﻫ اصبهاني وهو اكثرهم توسعاً واطناباً

انشاء الكتب

ونريد بها الكتب المؤلفة في المواضيع الادبية او العلمية او التاريخية او نحوها وهي تختلف بلاغة وفصاحة باختلاف مواضيعها . وكتب الادب احوج الى البلاغة لما تقتضيه المواضيع الادبية من التخيلات الشعرية والكنايات ونحوها . والغالب في كتّاب الادب ان يطالعوا آداب العرب و يخالطوهم و يحفظوا اساليبهم في اشعارهم وخطبهم واقوالهم فتحصل فيهم ملكة البلاغة العالية ولذلك كان الفقهاء واهل العلوم الطبيعية قاصرين في البلاغة لاستغناء هذه العلوم عن الخيال فيتعودون التعبير بعبارات وضعية بعيدة عن اساليب الادباء . ولو حاولوا الكتابة في الادب او نظم الشعر لجاء كلامهم ضعيفاً ركيكاً

---

(١) ابن خلكان ٣٠٧ ج ١

فلغة الكتَّاب قبل انتشار الفقه ونقل العلوم الطبيعية الى العربيـة كانت اقرب الى البلاغة مما صارت اليه بعد ذلك لانها كانت مصوغة على مثال القرآن وهو عنوان البلاغة لكنه اقرب الى التعبير الشعري منه الى الكلام المرسل . فالذين تحدوه في صدر الاسلام اجادوا في الخطب والمراسلات لافتقارها الى ذلك الاسلوب بما فيه من اسباب التأثير في النفوس . فلما اقدم المسلمون على تأليف الكتب وكان معظم المؤلفين من الفرس اصطبغت بلاغة العربية بشيء من اسلوب الفرس فنشأ عنها الكلام المرسل المتناسق . واحسن امثلته عبارة ابن المقفع في كتاب كليلة ودمنة فانها لا تزال عنوان البلاغة والسهولة الى هذا اليوم

ابن المقفع كان ابن المقفع عريقاً في الفارسية عالماً بآدابها متمكناً من اساليبها لانها لغته ولغة آبائه . وكان يعرف اللغتين الفهلوية واليونانية وقد نشا في البصرة في النصف الاول من القرن الثاني للهجرة وهي حافلة بالادباء والشعراء فبرع في اللغة العربية وآدابها وكان سليم الذوق ذا قريحة انشائية . فلما اقدم على نقل كتاب كليلة ودمنة من الفارسية الى العربية جاءت عبارته شاملة للبلاغة والسهولة وقد تحداها من جاء بعده لانه اقدم من حفظ انشاؤه في المواضيع الادبية باللغة العربية (توفي سنة ١٤٣ ﻫ)

على ان سائر كتاب الادب نحو ذلك العصر قلما انشأوا شيئاً من عند انفسهم لان اكثر ما كانوا يكتبونه قطع كانوا يروونها عن اهل البادية او عن بلغاء الخطباء بنصها وربما وصلوا بينها بفقرات لا تتجاوز قولهم حدثنا فلان او اخبرنا فلان او خطب فلان فقال كذا وكذا وكتب فلان الى فلان كذا وكذا مما لا يعدُّ من قبيل الانشاء المرسل — حتى ما كتبه اركان علم الادب في اواسط القرن الثالث للهجرة كالجاحظ والمبرد وابن قتيبة وغيرهم فان كتبهم عبارة عن قطع من اقوال العرب او مروياتهم منقولة بالاسناد الى اصحابها وشأنهم في ذلك شان كتَّاب المغازي والفتوح والسير والاخبار والاشعار كحماد والاصمعي وابي عبيدة ومحمد بن اسحق فانهم كانوا يقولون ويسندون اقوالهم الى الرواة واكثرهم من اهل البادية . ويقال نحو ذلك في ما جمع بين هذه الفنون ككتاب العقد الفريد لابن عبد ربه وكتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني وغيرهما فانها عبارة عن اخبار مسندة الى اصحابها ويندر فيها الكلام المرسل من عند المؤلف

فكتاب كليلة ودمنة اقدم ما وصل الينا من الانشاء المرسل من لغة رجل واحد . وهو عالم من علماء الفرس وقد نقل الكتاب عن لغة الفرس ونظراً الى ما يمتاز به الكتاب المذكور من السهولة والرشاقة عن سائر ما كتب في عصره او ما بعده من كتب الادب يغلب على

ظننا انه اكتسب ذلك من تاثير اساليب اللغات الاخرى التي كان يعرفها الكاتب او لإقتدار خاص في الكاتب نفسه على مثل ذلك الاسلوب . وقد قلّ من جاء بمثلهِ بعده ولم يات احدٌ باحسن منهُ مع ما بلغ اليه العلم من الرقي في العصر العباسي وما نبغ فيه من علية الكتاب المشاهير مما يدلك على ان الانشاء قريحة خاصة مثل قريحة الشعر لا تقيَّد بالزمان او المكان الا قليلاً

وما زالت الكتب تؤلف بالاسناد والرواية حتى كثرت المؤلفات العربية في كل فن او علم وعمد الكتاب الى التلخيص والاختصار في القرن السادس او السابع فاخذوا يحذفون الاسانيد او يختصرونها الاَّ لاسباب خصوصية كما سترى في باب التاريخ

السجع

ولما نضج التمدن الاسلامي وكثر فيه الادباء والشعراء واصبح الشعر شائعًا على السنة الناس على اختلاف طبقاتهم وكثر تمثلهم به وتناشدهم اياه أَلف الناس التلذذ برنة القافية فاستحسنوا ادخالها اولاً في المراسلات وهو التسجيع وقد كان في اول امره مقبولاً لقلته وحسن وقعه حتى ادخلوه في الكتب وكتبوا به المقامات في اواخر القرن الرابع واول من فعل ذلك بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ ولعله اقتبس نسقها من احمد بن فارس الرازي المتوفى سنة ٣٩٠ هـ(١) وعلى منواله نسج الحريري ولكنه تباعد عن السهولة والطلاوة . وشاعت هذه المقامات واستحسنها الناس فزادتهم رغبة في الاسجاع فتكاثر التسجيع في القرون الاسلامية الوسطى حتى مجته الاسماع وعاد الى نحو ما كان عليه في ايام الكهان

والتسجيع في الكتب أَنبى على السمع مما في الرسائل وخصوصًا في مالا يحتاج الى تمنيق او اطناب او رنَّة او خيال ككتب التاريخ والعلم . فمن يطالع كتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ او الفتح القسّي في الفتح القدسي لعماد الدين الاصبهاني المتقدم ذكره او تاريخ آل سلجوق لعماد الدين أَيضًا يرَ ثقل الاسجاع على الاسماع في التاريخ وان حسنت احيانًا في الرسائل والخطب

على ان معظم مشاهير الكتاب في كل العصور لم يكتبوا الاَّ مرسلاً وقد اجادوا كابن خلدون وابن الاثير والمسعودي وغيرهم . وقد كتب غير واحد منهم في تقبيح السجع حتى في المراسلات ونسبوا ذلك الى ضعف ملكة الانشاء(٢)

(١) ابن خلكان ٣٥ و ٣٩ ج ١ (٢) ابن خلدون ٤٩٨ ج ١

٣ — التاريخ والجغرافية

التاريخ

بقي الانسان احقاباً لم يدون فيها التاريخ لانه لم يكن يعرف الكتابة ولان احواله لم تكن تستدعي التدوين لسذاجتها مع انصراف همه في تلك العصور الى ضروريات الحياة على انه ما لبث ان اصيب بطوارق الحدثان فحفظ اكثرها تأثيراً في احوال معائشه كالطوفان والقحط والحرب ونحوها وتنوقلت تلك الاخبار في اعقابه ادهاراً وهي تتعاظم وتتكيف على ماتطلبه طبيعة الانسان من التلذذ باستماع الغريب والمنافسة في التأثير على السامع بما يلقيه من الاخبار المنمقة المستغربة . فوصلت اخبار الاوائل الى زمن التاريخ وهي اشبه بالخرافات منها بالحقائق . واتخذ بعضها وجهة دينية والبعض الآخر حماسية واصطبغ بعضها صبغة شعرية او خيالية ويختلف ذلك باختلاف الامم والعصور . فنشأ من ذلك كله مايعرف بالخرافات القديمة كالميثولوجيا اليونانية في الالياذة واخبار الهنود في المهابهاراتة واخبار الفرس القدماء في الشاهنامة واخبار القبائل البائدة التي كان العرب يتناقلونها . فان ما ينسبونه الى عاد وثمود وطسم وجديس من الحوادث المستغربة لا تخلو من أصل تاريخي تعاظم وتضاعف بكرور الايام وكذلك حديث سيل العرم وبلقيس وغيرهما

و يلي ذلك طبقة من الاخبار اقرب الى التاريخ من تلك كالمهاجرات القديمة والحروب القديمة ومنها ايام العرب وحروبهم قبل الاسلام وعام الفيل ونحوها مما اشرنا اليه في باب علوم العرب قبل الاسلام . فجاء الاسلام وليس عند العرب من قبيل التاريخ غير انسابهم وشذرات من تلك الاخبار والخرافات ولا علم لهم بأحوال الامم الاخرى إلاَّ ما لهُ علاقة بهم . غير ما كانوا يسمعونه من حوادث التوراة والتلمود من أحبار اليهود او قسس النصارى ولا يخرج ذلك كله عن اخبار متقطعة يقتصر الخبر منها على حادثة او واقعة لا علاقة لها بالحوادث الاخرى

فالعرب قبل الاسلام كانوا يعدُّون من أضعف الامم المتمدنة في التاريخ . فلما ظهر الاسلام اشتغلوا بالفتوح والحروب حتى اذا استتب لهم الامر وفرغوا من الفتح تدرجوا في وضع التاريخ مثل تدرجهم في سائر العلوم الاسلامية . وقد عددنا التاريخ من هذه العلوم ليس لانه خاصاً بالاسلام بل لان الاسلام دعا الى وضعه كما سترى

قد تقدم في كلامنا عن « حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم » ان العرب كانوا يتنزهون عن الاشتغال بالعلم الاّ الاخبار فانهم كانوا يشتغلون بها و يعنون بحفظها وسماعها وتناقلها وخصوصاً اخبار الفرسان والشجعان والفصحاء والخطباء والشعراء لما في ذلك من بواعث القدوة واستنهاض الهمم وترويض النفوس

وكان اكثر الخلفاء دهاءً وسياسة اكثرهم رغبة في استماع الاخبار — فمعاوية بن أبي سفيان داهية بني امية كان يجلس لاصحاب الاخبار في كل ليلة بعد العشاء الى ثلث الليل فيقصون عليه اخبار العرب وايامها والعجم وملوكها وسياستها في رعيتها وسائر ملوك الامم وحروبها ومكائدها . ثم ينام ثلث الليل و يقوم فيأتيه غلمان مرتبون وعندهم كتبٌ قد وكلوا بحفظها وقراءتها فيقرأون عليه مافي تلك الكتب من سير الملوك واخبار الحروب ومكايدها وانواع السياسيات [1] والغالب في اعتقادنا ان تلك الكتب في اليونانية او اللاتينية وفيها اخبار ابطال اليونان والرومان كالاسكندر و يوليوس قيصر وهنيبال وان الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية لان العرب لم يدونوا الكتب الاّ بعد زمن معاوية

وسماع اخبار العظماء يستنهض الهمم الى الاقتداء بهم ولذلك كان اكثر القواد العظام الراغبين في العلي من العرب وغير العرب يستتلون اخبار من سبقهم من مشاهير القواد واذا وقع أحدهم في مشكلة سياسية تدبر ما حدث من امثالها قبله تسهيلاً لابداء حكمه فيها — يقال ان المنصور لما همّ بقتل ابي مسلم الخراساني تردد بين ان يمضي قتله أو يشاور فيه لما كان لابي مسلم من السعي الحميد في قيام الدولة العباسية . فتزايد بلباله حتى أرق فلما اصبح استدعى اسحق بن مسلم العقيلي وقال لهُ « حدثني حديث الملك الذي أخبرتني عنه في حران » فقص عليه الحديث وخلاصته ان سابور ملك الفرس أنفذ وزيره الى خراسان يدعو اهلها الى طاعته فمضى وسعى في تحبيب الناس به ودعاهم الى طاعة نفسه . فلما استفحل أمره صمم سابور على قتله عند رجوعه اليه بأعيان خراسان فلما رجعوا بغتهم فلم ينتبهوا الا وراس الوزير بين أيديهم فاضطروا الى طاعة سابور — فلما سمع المنصور تلك الحكاية بما فيها من المشابهة بحكاية ابي مسلم اطرق ملياً ثم رفع راسه وهو يقول :

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا ... وما علّم الانسانُ الاّ ليعلما

وأقرَّ على قتل أبي مسلم وقتله [2] وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل اذا دخل شهر رمضان احضرت له كتب التواريخ والسير وجلسوا يقرأون عليه احوال العالم فأصبح

(١) المسعودي ٥٢ ج ٢ (٢) البيان ١٥٥ ج ٢

علم التاريخ من علوم الملوك وأصحاب السيادة وكان من الامثال الشائعة في أوائل الاسلام قولهم « علم الملوك النسب والخبر وعلم اصحاب الحروب درس كتب الايام والسير وعلم التجار الكتاب والحساب » [1]

فلما ضعف شان الخلافة العباسية واستبد الوزراء في أمور الدولة اصبح همهم منع الخلفاء من مطالعة التاريخ او السير خوفاً من ان يتفطنوا الى أشياء لايحب الوزراء ان يتفطنوا لها — قيل ان المكتفي طلب من وزيره كتباً يلهو بها ويقطع بمطالعتها زمانه فتقدم الوزير الى النواب بتحصيل ذلك وعرضه عليه قبل حمله الى الخليفة فجاؤه ببعض الكتب وفيها شيء مما جرى في الايام السالفة من وقائع الملوك وأخبار الوزراء ومعرفة التحيل في استخراج الاموال . فلما رآه الوزير غضب وقال لنوابه « والله انكم اشد الناس عداوة لي انا قلت كم حصلوا له كتباً يلهو بها ويشتغل بها عني وعن غيري فقد حصلتم له مايعرّفه مصارع الوزراء ويوجد له الطريق الى استخراج الاموال ويعرفه خراب البلاد من عمارتها ردوها وحصلوا له كتباً فيها حكايات تلهيه واشعار تطربه » [2] فنعلوا

مصادر التاريخ الاسلامي

للتاريخ الاسلامي مصادر كثيرة تدرج فيها على مقتضى الاحوال واليك تمثيل ذلك :

لما اشتغل المسلمون بجمع القرآن وتفسيره وجمع الاحاديث احتاجوا الى تحقيق الاماكن والاحوال التي كتبت بها الآيات او قيلت بها الاحاديث فعمدوا الى جمع السيرة النبوية لانها شاملة لكل ذلك فتناقلوها مدة ثم دونوها . وأول من دونها على المشهور محمد بن اسحق المتوفى سنة ١٥١ الفها للمنصور . على اننا رأينا في كشف الظنون ان محمد بن مسلم الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ الف كتاباً في المغازي [3] وقد توفي قبل ابن اسحق ببضع وعشرين سنة . ولكن يؤخذ من ترجمتهما في وفيات الاعيان انهما كانا متعاصرين . ويقال أيضاً ان أول من صنف المغازي والسير عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٣ هـ ووهب بن منبه المتوفى سنة ١١٤ [4] وفي كل حال فان هذه السير ضاعت واقدم ما وصل الينا منها سيرة عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٣ هـ في كتابه المعروف بسيرة ابن هشام وهي منقولة عن ابن اسحق المذكور وقد طبعت غير مرة

---

(١) العقد الفريد ٥٠ ج ١ (٢) الفخري ٥

(٣) كشف الظنون ٣٩ و ٣٠١ ج ٢ (٤) كشف الظنون ٤٧٠ ج ٢

ولما اشتغل المسلمون في ضرب الخراج على البلاد اختلفوا في بعضها هل فتح عنوة او صلحاً او أماناً او قوةً وفي شروط الصلح او الامان • فاضطروا الى تدوين اخبار الفتح باعتبار البلاد فالفوا كتباً في فتح كل بلد على حدة • كفتوح الشام للواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وكتابه مشهور لكنه مملوءٌ بالمبالغات بما يشبه الحكايات • وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ وفتوح بيت المقدس ونحوها • ثم جمعوا فتوح البلاد معاً في كتاب واحد كفتوح البلدان او فتح الامصار للبلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ وهو اوثق كتب الفتح واشملها واقدم ما بين أيدينا منها الاَّ الواقدي

الطبقات والمغازي

وقد رأيت في ما تقدم من كلامنا عن القرآن والحديث والنحو والادب ان العلماءَ اضطروا لتحقيق مسائل هذه العلوم الى البحث في اسانيدها والتفريق بين ضعيفها ومتينها فجرَّهم ذلك الى النظر في رواة تلك الاسانيد وتراجمهم وسائر احوالهم حتى أصبح من شروط الاجتهاد في الفقه معرفة الاخبار بمتونها واسانيدها والاحاطة باحوال النقلة والرواة عدولها وثقاتها ومطعونها ومردودها والاحاطة بالوقائع الخاصة بها [(1)] فقسموا رواة كل فن الى طبقات فتألف من ذلك تراجم العلماء والادباء والفقهاء والنحاة وغيرهم مما يعبرون عنه بالطبقات • ومنها طبقات الشعراء وطبقات الادباء وطبقات النحاة وطبقات الفقهاء وطبقات الفرسان والمحدثين واللغويين والمفسرين والحفاظ والمتكلمين والنسابين والاطباء حتى الندماء والمغنين وغيرهم والفوا في كل باب غير كتاب • ولذلك كان المسلمون اكثر امم الارض كتباً في التراجم لافراد الرجال

واقدم كتب الطبقات التي وصلت الينا كتاب طبقات الصحابة لمحمد بن سعيد المعروف بكاتب الواقدي المتوفى سنة ٢٣٠ هـ وهو كبير ربما دخل في بضعة عشر مجلداً ويحتوي على تراجم الصحابة والتابعين والخلفاء الى أيام المؤلف [(2)] وكان هذا الكتاب مشتتاً في مكاتب العالم ومنه الجزء الثاني في دار الكتب الخديوية بمصر وقد علمنا ونحن نخط هذه الحروف ان جمعية المانية شرعت في طبعه واصدرت الجزءَ الأول منهُ • ثم طبقات الشعراءِ لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وقد طبع في ليدن في هذا العام بعناية الاستاذ دي كويه المستشرق الهولندي الشهير • ثم الف الناس طبقات كثيرة في أزمنة مختلفة ومنها استخرجوا كتب التراجم الكبرى كوفيات الاعيان والوافي في الوفيات وفوات الوفيات

(١) الشهرستاني ١٥٤ ج ١ (٢) ابن خلكان ٥٠٧ ج ١

وغيرها مما سيأتي ذكره • غير التراجم الداخلة في تواريخ البلاد كتاريخ دمشق لابن عساكر في ثمانين مجلداً وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي في نحو ذلك وفيهما تراجم كثيرة

وكان طلاب الادب الراحلون في جمع اللغة والشعر من افواه اهل البادية يلتقطون اخبار العرب ووقائعهم وحوادثهم ويدونون ذلك في كتب الادب كما تقدم • ناهيك بالاخبار المستخرجة من تلك الاشعار — قال ابن يونس « لولا شعر الفرزدق لذهب نصف اخبار الناس »[1]

ولما استبدّ بنو امية في الخلافة واعوجّوا في أحكامهم عن سبل الخلفاء الراشدين كثر تحدث الناس باخبار الراشدين وتذكر اعمالهم المؤسسة على العدل والرفق — وذلك طبيعي في هذه الاحوال • ثم الف بعضهم كتباً في تاريخ الخلفاء الراشدين ثم في الخلفاء على الاجمال واقدمهم الدينوري المتوفى سنة ٢٨١ هـ ويقال نحو ذلك في تأليف تراجم الوزراء وتواريخ عمال الشرطة وتواريخ الاذكياء والبخلاء والعشاق وغيرهم

التواريخ العامة

فانقضى القرن الثاني للهجرة ونصف الثالث وكتب التاريخ عند المسلمين الطبقات والمغازي والسير والفتوح على ما تقدم • اما التواريخ العامة مثل تواريخ الامم او البلاد قديماً او حديثاً فلم يشتغلوا بها الا بعد ذلك واقدم من كتب في التاريخ العام ابن واضح المعروف باليعقوبي وكتابه مطبوع في جزئين جزء فى التاريخ القديم كاليهود والهنود واليونان والروم والفرس وغيرهم والثاني في تاريخ الاسلام من ظهوره الى أيام المعتمد العباسى الذي تولى الخلافة سنة ٢٥٦هـ • ويليه ابن جرير الطبري المفسر الشهير المتوفى سنة ٣١٠ هـ وتاريخه كبير مرتب على السنين ينتهي الى حوادث سنة ٣٠٢ هـ وقد الف الفرغاني عليه ذيلاً ينتهي الى سنة ٣١٢ هـ وكلاهما مطبوع • ثم المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ صاحب مروج الذهب وفيه وصف البلاد والبحار والحيوانات وغيرها فضلاً عن التاريخ وهو مبوب حسب الدول او الامم ومطبوع • وللمسعودي كتاب سماه « اخبار الزمان » قد ضاع ولم يقف له احدٌ على أثر ولكن يظهر مما ذكر عنه في مروج الذهب انه مطول جدّاً • يليه حمزة الاصفهاني صاحب تاريخ سني ملوك الارض فرغ من تأليفه سنة ٣٥٠ هـ

وظل الناس على هذه التواريخ وقليل غيرها الى القرن السابع للهجرة اذ انقضت الدول

---

(٢) البيان ١٢٤ ج ١

الاسلامية العربية — العباسية في العراق والفاطمية في مصر والاموية في الاندلس ٠ وقامت دول الاتراك والاكراد والبربر فانتقل الناس الى عصر جديد فعمدوا الى تدوين تاريخ العصر المنقضي فاستعانوا بالكتب التي تقدم ذكرها فاختصروا مطولها وبوبوا مشوشها وجمعوا بين مواضيعها واضافوا ما لم يدركه أصحابها ٠ والفوا عدة تواريخ مطولة اشهرها واوعاها واضبطها كتاب الكامل لابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٠ ﻫ فقد ضمنه تاريخ الطبري كله بعد حذف الاسانيد واختصار النصوص المطولة وزاد عليه ماحدث بعده وما حدث في زمن الطبري في الاندلس وغيرها ٠ ورتب ابن الاثير كتابه على السنين مثل كتاب الطبري فجاء ١٢ مجلداً كبيراً وهو مطبوع ٠ وجاء بعده ابو الفداء صاحب حماة المتوفي سنة ٧٣٢ﻫ فاخذ الكامل فلخصه وأدخل فيه كثيراً من أخبار الادباء والعلماء وتوسع في اخبار العرب الجاهلية وابقاه على حوادث السنين فجاء في ثلاثة مجلدات وهو مطبوع ومنشور ٠ وجاء بعده عمر بن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ ﻫ فاختصر تاريخ ابي الفداء

ثم نبغ العلامة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ ﻫ والعرب قد ذهبت دولهم تمام الذهاب واتضحت عبرة التاريخ ٠ وكان ابن خلدون عالماً دقيق النظر صحيح القياس فألف تاريخه المشهور ورتبه على الدول بدل السنين وافاض خصوصاً في اخبار المغرب والاندلس مما لم يسبقه اليه احد ٠ ويمتاز هذا التاريخ عما سبقه بمقدمة فلسفية لم ينسج احد على مثالها قبلها حتى علماء اليونان والرومان وغيرهم من الامم القديمة ٠ وفي شهرتها ما يغني عن وصفها

ونهج بعض المؤرخين في تآليفهم منهجاً آخر فجعلوا مؤلفاتهم باسماء المدن فضمنوا كتبهم وصف تلك المدن وتراجم الذين عاشوا فيها ٠ واطول المؤلفات من هذا الصنف تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ ﻫ وتاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ ﻫ في ثمانين مجلداً وقد تقدم ذكرهما وكلاهما لم يطبعا والثاني اكثر وجوداً من الاول ٠ ومن هذا القبيل خطط مصر للكندي ثم للقضاعي ثم للمقريزي وهذه الاخيرة مشهورة ومثلها اخبار مصر القاهرة لابي المحاسن والسيوطي

التراجم والمعجمات

واما التراجم فكانت في القرون الاولى تدوّن في الطبقات باعتبار المهن او العلم الذي يجمع كل طبقة كما تقدم ٠ فلما نضج العلم واخذ العلماء في الترتيب والتبويب نبغ جماعة من المؤرخين استخرجوا من الطبقات وغيرها كتب التراجم ورتبوها على حروف المعجم واشهر تلك الكتب « وفيات الاعيان » لابن خلكان المتوفي سنة ٦٨١ﻫ ثم «فوات الوفيات» لصلاح

الدين الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ ﻫ استدرك فيه مافات ابن خلكان ذكره وكلاهما مطبوعان ومشهوران · وكتاب « الوافي في الوفيات » لصلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ ﻫ وهو كبير لكنه لم يوجد مجموعاً في مكتبة واحدة ولا جمعوه بعد فهو لم يطبع ومنه اجزاء متفرقة في مكاتب اوربا · ومثله كتاب « مرآة الزمان » لسبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ في ٤٠ مجلداً وهو مشتت · وفي تراجم اهل الاندلس كتب كثيرة منها كتاب « الصلة » لابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ وكتاب « المعجم » لابن الابار وغيرهما

ومن هذه المعجمات التاريخية ماهو خاص بفئة من الناس او طبقة من طبقاتهم ككتاب « أُسد الغابة » في اخبار الصحابة لابن الاثير صاحب الكامل وهو في خمسة اجزاء كبيرة وخاص بالصحابة وهو مطبوع ومنشور · و« تراجم الحكماء » لابن القفطي غير مطبوع

على ان كثيراً من التراجم والاخبار التاريخية منتشر في كتب الادب ككتاب الاغاني والعقد الفريد والكشكول والمستطرف والبيان والتبيين · وقد تجد فصولاً تاريخية مهمة في كتب العلم الطبيعي ككتاب حياة الحيوان للدميري فان فيه فصولاً تاريخية قلما نعثر عليها في كتب التاريخ

ويمتاز التاريخ عند العرب على سواه عند سائر الامم التي تحضرت قبلهم بكثرة ما كتبوه من التراجم واكثره بشكل القواميس وهم السابقون في ذلك وعنهم اخذ اهل العالم تأليف المعجمات التاريخية · فعندهم من قواميس التراجم بضعة صالحة هي كنوز في التاريخ والجغرافية والادب والعلم · فوفيات الاعيان معجم يزيد عدد الترجمات فيه على ٨٢٠ ترجمة مرتبة على احرف الهجاء غير ما جاء عرضاً في اثناء الكلام على الآخرين · ومن مزاياه انه يضبط الاعلام من اسماء الرجال والاماكن ويذكر سني الوفاة والولادة ويضمن التراجم كثيراً من الفوائد الادبية والعلمية مما يندر في سواه · ويقال نحو ذلك في قواميس التراجم الاخرى كفوات الوفيات وفيه اكثر من ٤٥٠ ترجمة لم يذكرها ابن خلكان · وكتاب الوافي في الوفيات واسد الغابة في اخبار الصحابة وكتاب تراجم الحكماء · غير كتب التراجم المرتبة على غير الهجاء ككتب الطبقات للشعراء والفقهاء والاطباء ومن احاسنها كتاب طبقات الاطباء لابن ابي أُصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ ﻫ فانه جامع تاريخ الطب والاطباء والعلم والعلماء والفلسفة والفلاسفة عند اليونان والفرس والهنود والكلدان فضلاً عن العرب والمسلمين وهو مرتب بحسب العصور والبلاد · ناهيك بما يتخلل ذكر مؤلفاتهم ووصفها من العادات والآداب الاجتماعية وغيرها · وهو مطبوع ومشهور

عدد كتب التاريخ

فالمسلمون ألفوا في التاريخ كتباً لاتحصى وما من امة قبل العصر الحديث بلغت في هذا العلم ما بلغ اليه المسلمون · فان كتب التاريخ الواردة اسماؤها في كشف الظنون فقط تزيد على ١,٣٠٠ كتاب غير الشروح والاختصارات وغير ما ضاع من تلك الكتب واهمل ذكره وهو كثير جداً — يدلك على ذلك ما تراه في مقدمات بعض كتب التاريخ او الجغرافية اذ يذكر المؤلف كتباً عديدة نقل عنها او اعتمد عليها في تأليف كتابه فاذا بحثت عنها رأيت اكثرها ضاع ولم يرد ذكره في كتب الفهارس ككشف الظنون او غيره · فالمسعودي ذكر في مقدمة كتابه مروج الذهب عشرات من الكتب التي كانت شائعة في ايامه وقد نقل عنها ولم يذكر منها صاحب كشف الظنون الاّ القليل · فلو بقيت الكتب التي الفها العرب في التاريخ كلها لزادت على بضعة آلاف وفيها كتب كبيرة يدخل الواحد منها في اربعين مجلداً او خمسين او ثمانين ومنها في عشرة او خمسة او اقل او اكثر

ومن كتب التاريخ العام ما هو مرتب احسن ترتيب باعتبار السنين كالطبري وابن الاثير وابي الفداء او باعتبار الامم او الدول كالمسعودي والفخري وابن خلدون او بحسب المدن او الملوك مما لا يحصى · واكثرها حسن العبارة بليغها مع اسهاب ربما زاد في بعض الاحوال حتى يخرج عن موضوع الكتاب · و يغلب الصدق في روايات كتاب المسلمين لما تعودوه من الاسناد في تناقل الاخبار الاّ ما دخل تواريخهم في العصر الاوّل لاغراض بعض ذوي المطامع او الاهواء والعرب لا يزالون على سذاجتهم

عيوب المؤرخين المسلمين

وانما يعاب المؤرخون المسلمون لاقتصارهم في التواريخ أو التراجم على ايراد الحوادث على عواهنها كما بلغت اليهم وقد يسندونها الى راوٍ او عدة رواة بلا انتقاد ولا تمحيص ولا قياس اكتفاءً بالاسناد · وقد فاتهم ان بعض الاخبار المسندة موضوع في الصدر الاول او ما بعده لاغراض سياسية كما وضع كثير من الاحاديث لاسباب تقدم بيانها

ومما ينتقد عليهم ايضاً انهم يصرفون عنايتهم في التواريخ الى تدوين اخبار الحرب والفتح والعزل والولاية والولادة والوفاة · وقلما يذكرون تاريخ الاداب او العلوم او احوال الدولة من الحضارة واسبابها وتعليل الحوادث وما نجم عنها وقياس بعضها على بعض الاّ ما يجيء عرضاً · فيندر ان ترى لمؤرخ منهم رأياً في حادثة او انتقاداً على خليفة او امير او ملاحظة على نكتة حتى في الاحوال التي يعلم انه لا يسيء به الخليفة بل قد يكون في انتقاده

ما يسرُّ ذلك الخليفة كما كانت حال مؤرخي الدولة العباسية في شؤون الدولة الاموية فان شدة العباسيين على الامويين مشهورة ومع ذلك فان المؤرخين الذين كتبوا في عهد الدولة العباسية قلَّما ذكروا شيئًا من مساوىء بني امية الاَّ ماقد يجيء عرضًا — ولعل السبب في ذلك السكوت ان حوادث التاريخ الاسلامي اكثرها متصل باسباب دينية او شرعية بين فرقة واخرى او مذهب وآخر . فاذا انتشبت حرب بين خليفتين او اميرين مسلمين لا يخلو ان يكون احدهما ظالمًا والآخر مظلومًا فالمؤرخ المسلم يتحاشى الطعن في احدهما احترامًا لمقام الدين فينقل الخبر على علاته و يترك الحكم فيه للقارىء — وهذا هو السبب في ما نقاسيه من العناء في استخراج حقائق التمدن الاسلامي من كتب التاريخ

وقد يكون من اسباب سكوتهم عن مساوىء بعض الامراء التزلف اليهم او الاستجداء بمدحهم وكثيرًا ما كان الخلفاء والامراء او السلاطين يقترحون على المؤرخين تأليف الكتب و يجيزونهم على تأليفها فكان المؤرخون يراعون بها جانب المقترح ولو خالفوا الحقيقة وهم يعلمون . ومن الطف الشواهد على ذلك ما قاله ابو اسحق الصابي الكاتب الشهير وقد كلفه عضد الدولة بن بويه ان يؤلف له كتابًا في اخبار الدولة الديلمية فالف له تاريخًا سماه « التاجي » فاتفق وهو يؤلفه ان دخل عليه صديق له فسأله عما يعمله فقال « اباطيل انمقها واكاذيب الفقها »[1]

وقد يكون السبب عداوة بين المؤلف والمترجم فيبخسه حقه عمدًا كما فعل الفتح ابن خاقان في ترجمة ابن باجة الفيلسوف الاندلسي الشهير[2]

و يندر ان ترى من بعض المؤرخين تصريحًا بمساوىء احد الخلفاء او الامراء او غيرهم من اولي الامر . واكثر ما عثرنا عليه من امثال ذلك في كتاب الآداب السلطانية للفخري وتاريخ ابن خلدون . اما الفخري فقد صرح بذلك انتصارًا لآل علي كقوله على اثر حكاية وقعت للرشيد مع ابي نواس فاورد الفخري قول ابي نواس في الرشيد

قد كنت خفتك ثم امنني   من ان اخافك خوفك الله

ثم قال « ولم يكن الرشيد يخاف الله وافعاله باعيان آل علي (عم) اولاد بنت نبيه بغير جرم الخ » وهذا تصريح لم نرَ له شبيهًا في كتب مؤرخي المسلمين الاَّ ماقد يقوله الشيعة في اعمال اهل السنة او بالعكس . واما ابن خلدون فقد انتقد اعمال بعض الدول او الخلفاء مدفوعًا بالقياس الصحيح والحكم الفلسفي

---

(١) ابن خلكان ١٢ ج ٢ (٢) نفح الطيب ٦١٢ ج ٤

ومما يؤاخذ به مؤرخو المسلمين أيضاً بالنظر الى اداب هذه الايام انهم اذا عرض لهم في بعض الاخبار الفاظ بذيئة او واقعة يخجل سماعها الاديب فانهم يذكرونها بالفاظها كما يذكرون سائر الحوادث ويدخل في ذلك كثير من الاشعار السفيهة وهم يسمون ذلك إحماضاً • وقد يتبادر الى الذهن انه من مقتضيات تلك الاعصر أو انه لم يكن منكراً عندهم والحقيقة ان اهل الادب الصحيح من أولئك المؤرخين كانوا يتحاشون الوقوع في ذلك وفي جملتهم ابن خلكان فانه من ابعدهم عن الفحش في القول ومن الادلة على أدبه انه لما ترجم حسين بن محمد المنعوت بالبارع وهو من الشعراء المشهورين ساقه الحديث الى قصيدة نظمها أحدهم للبارع المذكور وقصيدة أجابه البارع بها فذكر ابن خلكان البيت الأول من القصيدة ثم قال « ولولا ما اودعها من السخف والفحش لذكرتها »

الجغرافية او تقويم البلدان

لفظ الجغرافية وحده كافٍ للدلالة على ان هذا الفن ليس من موضوعات العرب ولكننا ذكرناه هنا لارتباطه بالتاريخ ولان العرب كتبوا في وصف الطرق والبلاد والمدن قبل نقل الجغرافية الى العربية لاسباب خاصة بالاسلام

لم يقدم البشر على وضع علم او فنٍّ الاَّ لاسباب حملتهم على ذلك لانهم يساقون في شؤونهم واعمالهم بالحاجة ولذلك قالوا الحاجة ام الاختراع • واضطرارهم الى الجغرافية لم يأت دفعة واحدة بل جاءَ بالتدريج فنما واتسع عملاً بناموس الارتقاء • واهم الاسباب التي دعت الى نشوء هذا العلم احتياج الناس قديماً الى معرفة الطرق والبلاد والابعاد بينها اما للتجارة او للفتح فجمعوا معلومات التجار والفاتحين بتوالي الازمان وجعلوا يتداولونها ويتدارسونها للعمل بها حتى اتيح لها من رتب أبوابها وضبط اجزاءَها وجعلها علماً

واول من وضع أساس هذا العلم الفينيقيون لانهم أقدم تجار العالم واكثرهم اسفاراً فقد رادوا شواطيء البحر الابيض واستعمروا بعضها منذ بضعة وثلاثين قرناً • وكانت مدينة صور مركز العالم التجاري في تلك الايام تجتمع حاصلات الامم ومصنوعاتهم فيها وتتفرق منها حتى الهند فقد كانوا يحملون منها العاج والطيب والقردة وغيرها • واسماء هذه السلع الباقية في الفينيقية والعبرانية تدلُّ على اصلها الهندي • فاطلع الفينيقيون في أثناء اسفارهم على أحوال كثير من البلاد وعرفوا المسافات بينها واخبار اهلها

ولما حمل الاسكندر بجيوشه على العالم واخترق اسيا الى بلاد الهند برًّا وبحراً اطلع رجاله على احوال اواسط اسيا واعاليها فاشتغلوا في جمع الاخبار والاوصاف لغرابتها • وفعل البطالسة نحو ذلك بشواطيء البحر الاحمر الى الحبشة • ثم الرومان وغيرهم

فكانت تلك المعلومات تتجمع بتوالي الاجيال والناس يتناقلونها متقطعة متفرقة ثم توجهت الاذهان الى جمعها وترتيبها • وأول من فعل ذلك اراتستين اليوناني المتوفى سنة ١٩٦ ق م على عهد البطالسة فألف كتاباً دوّن فيه كل ما عرفه الفينيقيون أو رواه قواد الاسكندر وغيرهم • وجاء بعده غيره وغيره كالرحالة استرابون والجغرافي بلينيوس الى زمن بطليموس القلوذي في أواسط القرن الثاني للميلاد فألف كتاباً وافياً في الجغرافية عين فيه الاماكن بالحسابات الفلكية ورسم الخرط على الحسابات الرياضية وضبط الاقسام الجغرافية وحقق أماكنها على ما بلغ اليه العلم في عصره وذكر فيه عدد المدن في أيامه ٤,٣٥٠ وسماها مدينة مدينة وعدد الجبال ٢٠٠ جبل ذكر ما في بطونها من المعادن وذكر ما على الارض من الخلائق وغير ذلك • فجاء الاسلام وكتاب بطليموس هو المعوَّل عليه في تقويم البلدان • فلما أخذ العرب في ترجمة العلم في العصر العباسي كان هذا الكتاب في جملة ما نقلوه الى لسانهم وسموه جغرافية وترجموا كتابهُ الآخر في الفلك وسموه المجسطى وعلى هذين الكتابين بنوا اكثر ما كتبوه في علم الجغرافية

الجغرافية عند المسلمين

ولكن المسلمين بدأوا بوضع الجغرافية قبل اطلاعهم على كتاب بطليموس لثلاثة أسباب غير السببين اللذين دعوا اليونان او غيرهم الى وضعها • لان العرب من اكثر الامم فتحاً وغزواً وقد تفرقوا بعد الاسلام في أربعة اقطار المسكونة • وهم وخصوصاً أهل الحجاز كانوا تجاراً من زمن الجاهلية ثم اتسعت تجارتهم في الاسلام باتساع مملكتهم — اما الاسباب الثلاثة التي يمتاز بها العرب على سواهم : فاولها الحج لان المسلمين على اختلاف بلادهم واقاليمهم يحجون الى مكة والحج فريضة على المسلم ولو كان في الهند او الصين او غيرها والقدوم الى مكة يستلزم معرفة الطرق والمنازل • وثانيها الرحلة في طلب العلم فقد رأيت في ما تقدم ان المسلمين كانوا يرحلون في طلب العلم الى سائر الامصار الاسلامية والرحلة تستلزم معرفة الاماكن والمناطق • ولذلك كان أول ما ألفه العرب في الجغرافية من عند انفسهم ذكر الاماكن العربية والمنازل البدوية • وأول من ألف في ذلك رواة الادب والشعر كالاصمعي والسكوني ثم ألفوا في بلاد العرب كلها كما فعل الهمذاني في

جزيرة العرب وابو الاشعث الكندي في جبال تهامة[١] وغيره • والسبب الثالث ان العرب فتحوا العالم واختلفوا في طرق الفتح باختلاف البلاد بين ان تكون قد فتحت صلحاً او عنوة او أماناً او قوة والكل من ذلك حكم في قسمة الفيء واخذ الجزية وتناول الخراج واجتناء المقاطعات والمصالحات وانالة التسويفات والاقطاعات لا يسع الفقهاء جهلها فضلاً عن الامراء • فأصبح علم ذلك عندهم من قبيل الدين ولا يتوصل اليه الاّ بالتاريخ والجغرافية

ولما ترجمت الجغرافية الى العربية واطلع العرب عليها أخذوا في تأليف الكتب على مثالها وتوسعوا في ذلك وزادوا عليه ما عرفوه من قبل • ولم يكتفوا بالنقل والسماع ولكنهم ركبوا البحار وجابوا الاقطار شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وكتبوا ما شاهدوه او تحققوه وصححوا كثيراً من مغالط بطليموس • والظاهر ان علم الجغرافية عند العرب لم ينضج الاّ في القرن الرابع للهجرة فتهافت الناس على التأليف فيه مثل تهافتهم على تأليف التاريخ العام في ذلك القرن

وأول من دون الجغرافية منهم على نحو ما عند اليونان الشيخ ابو زيد البلخي ألف في أول القرن الرابع كتاباً في الجغرافية سماه « صور الاقاليم » ذكر فيه أمثلة منها بعد ان قسمها الى عشرين جزءاً ثم شرح كل مثال ولكنه اختصره وترك كثيراً من امهات المدن • وكان من معاصريه رجل من علماء الفرس اسمه ابو اسحق الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي وكان محباً للاسفار فسافر وحقق بنفسه كثيراً من البلاد والبحار والمدن وعوّل في ما بقي على كتاب البلخي وألف كتاباً سماه « مسالك الممالك » وهو مطبوع ومنشور وأما كتاب البلخي فقد ضاع

وجرى الاصطخري في كتابه على تقسيم البلخي فجعل بلاد المسلمين عشرين قسماً بدأ بديار العرب وانتهى الى ما وراء النهر (تركستان) ووصف كل قسم على حدة وذكر البلاد وحرفها وتجارتها وغير ذلك • ونبغ نحو ذلك الزمن ابن حوقل فألف كتاب المسالك والممالك وقد سار بنفسه أيضاً لمشاهدة البلاد — قال في مقدمة كتابه « فبدأت سفري هذا من مدينة السلام يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ » فلما أتم رحلته كتب الكتاب المذكور ووضحه بالخارطات الكثيرة • لكل اقليم من أقاليم الاسلام خارطة او غير خارطة ورسم المدن والأنهر والجبال والبحار والجزر وغيرها

(١) معجم ياقوت ٧ ج ١

وتقسيمه كتقسيم الاصطخري والعبارة تكاد تكون واحدة في كثير من الاماكن

ثم ألف ابن الفقيه الهمذاني والمقدسي والمسعودي وغيرهم • وقد رحل المسعودي رحلات عديدة بلغ بها الى اقاصي الهند وذكر ما شاهده وخبره في كتبه الجغرافية والتاريخية • وجميع هؤلاء من أهل القرن الرابع للهجرة وكتبهم مطبوعة الآن الاّ الخارطات فقد ضاعت ولم يبق غير ذكرها او الاشارة اليها

وظل الناس على هذه الكتب وقليل غيرها حتى نهض المسلمون لتأليف التاريخ وترتيبه وجمعه على ما بيناه في مكانه فنهض جماعة الفوا في الجغرافية كما الفوا في التاريخ · فوضعوا المعجمات الجغرافية على احرف الهجاء واشهر من فعل ذلك ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ فقد الف كتاباً ضخماً سماه معجم البلدان اتى فيه على وصف البلدان والجبال والاودية والقيعان والقرى والمحال والاوطان والبحار والانهار والاصنام والابداد والاوثان وضمن ذلك كثيراً من تراجم الناس في اثناء ذكره للبلاد التي ولدوا فيها او نسبوا اليها · فهو قاموس جغرافي تاريخي ادبي · ولابي الفداء صاحب حماه ايضاً كتاب في تقويم البلدان ولغيره غيرها فضلاً عن الرحلات الكثيرة التي خدم العرب بها الجغرافية فنكتفي بالاشارة اليها ونترك التفصيل لتاريخ آداب اللغة العربية

الآداب العربية الجاهلية

الخطابة بعد الاسلام

الخطابة والشعر من الفنون الجاهلية التي زادها الاسلام رونقاً وبلاغة وارتقاء ولكن الخطابة سبقت الشعر في الارتقاء لحاجة المسلمين اليها في الفتوح والغزوات والعرب يومئذٍ لا يزالون على بداوتهم تتأثر نفوسهم من التصورات الشعرية سواء سبكت في قالب الخطابة او الشعر · والخطابة اقرب تناولاً ولم يرد في القرآن ما ينفر الناس منها كما ورد في الشعر والشعراء — فكما كان الشاعر في الجاهلية يقدَّم على الخطيب بفرط حاجتهم الى الشعر الذي يقيد مآثرهم ويفخم شانهم ويهول على عدوهم ويهيب فرسانهم اصبح الخطيب في الاسلام مقدماً على الشاعر لفرط حاجتهم الى الخطابة[1] في استنهاض الهمم وجمع الاحزاب وارهاب الاعداء

(١) البيان ٩٨ ج ١

والفرق بين الخطابة في الجاهلية وفي الاسلام ان الاسلام زادها بلاغة وحكمة بما كان يتوخاه الخطباء ومن تحدي اسلوب القرآن واقتباس الآيات القرآنية وقد كان للقرآن نحو هذا التاثير في الشعر ايضاً ولكن الخطابة اوسع مجالاً للاقتباس . فاخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات تمثلاً او اشارة او تهديداً حتى لقد يجعلون الخطبة برمتها مجموع آيات كما فعل مصعب بن الزبير لما قدم العراق واراد ان يحرض اهله على الطاعة لاخيه عبدالله فصعد المنبر وقال « بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبإِ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤْمنون انَّ فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين (واشار بيده نحو الشام) ونريد ان نمنَّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمةً ونجعلهمُ الوارثين (واشار بيده نحو الحجاز) ونمكن لهم في الارض ونريَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (واشار بيده نحو العراق) »[1]

وزادت الخطابة بعد الاسلام قوة ووقعاً في النفوس بنهضة العرب للحروب وانتصارهم في اكثر مواقعها فازدادوا انفة وسمت نفوسهم فسما بها ذوقهم في البلاغة وشحذت قرائحهم بما شاهدوه من البلاد الجديدة والامم الجديدة والالسنة الجديدة فبلغت الخطابة عندهم مبلغاً قلَّما سبقهم فيه احدٌ من الامم التي تقدمتهم بلاغةً وايقاعاً وتاثيراً حتى اليونان والرومان — لاننكر ما كان من تبرز هاتين الامتين في الخطابة وما نبغ بين رجالهما من الخطباء الذين لا يشق لهم غبار كديموستنيس واشينس وهيبريدس من خطباء اليونان وشيشرون ويوليوس قيصر وسالوستس ولوكيرتس من خطباء الرومان ولكن العرب لم ياتوا باقل مما اتى به اولئك بلاغة ووقعاً . وربما كان الخطباء في الاسلام اكثر عدداً وخطبهم اوفر وابلغ مع اعتبار الفرق بين الامتين لغة وخلقاً وادباً

فقد ذكروا لديموستنيس اخطب خطباء اليونان ٦١ خطبة نصفها منسوب اليه خطأً وهذه خطب الامام علي تعدُّ بالمئات . واما في كثرة الخطباء فالعرب كانوا في صدر الاسلام من اكثر الامم خطباء لان خلفاءهم وامراءهم وقوادهم كان معظمهم من الخطباء حتى النساك والزهاد[2] ولا غرابة في ذلك لان العرب اهل خيال وذوو نفوس حساسة وللبلاغة تاثير شديد في عواطفهم تقعدهم وتقيمهم . وقد كان ذلك من جملة ما ساعد على نشر الاسلام بينهم — وكثيراً ما توقف فتح البلد او الحصن على خطاب يتلوه القائد على رجاله فتثور

(١) البيان ٢٩ ج ٢ (٢) البيان ١٣٥ ج ١

فيهم النخوة وتسري في عروقهم الحماسة فيستهلكون في الدفاع او الهجوم . وفي اخبار الفتوح ادلة كثيرة لا يساعد المقام على ايرادها . ونعرف قواداً انما ساعدهم على النصر قوة عارضتهم وتاثير خطبهم في نفوس رجالهم

فالحجاج بن يوسف كان خطيباً بليغاً زادته الخطابة عظمة وسطوة — كان العراق متمرداً على عبد الملك فلما اعجزه امره ولَّى الحجاج عليه فدخل الحجاج الكوفة وصعد المنبر متلثماً متنكباً قوسه واضعاً ابهامه على فمهِ فاحتقره الناس وكادوا يرمونه بالحصى كما كانوا يفعلون في الولاة قبله . فوقف وازاح لثامه عن وجهه ولفظ خطبته التي قال في مطلعها :

انا ابن جلا وطلاَّع الثنايا   متى اضع العمامة تعرفوني

الى ان قال

« اما والله لا احمل الشر بثقله واحذوه بفعله واجزيه بمثله . اما والله اني لأرى رؤُوساً قد اينعت وحان قطافها وكأني ارى الدماء بين العمائم واللحى

هذا اوان الشر فاشتدي زيم   قد لفها الليل بسواق حطم

« ألا وان امير المؤمنين عبد الملك بن مروان كبَّ كنانته فعجم عيدانها فوجدني اصلبها عوداً فوجهني اليكم . فانكم اهل بغي وخلاف وشقاق ونفاق طالما سعيتم في الضلالة وسننتم سنن البغي . اما والله لالحونكم لحو العصا ولاعصبنكم عصب السلمة ولاقرعنكم قرع المروة ولاضربنكم ضرب عزائب الابل . والله ما احلف الاَّ فريت ولا اعد الاَّ وفيت . . . الخ »[(١)]

فما فرغ من خطبته حتى هابوه واذعنوا لهُ وكان شديداً عليهم وامره مشهور . ومع ذلك فقد كان اذا رقي المنبر وذكر احسانه الى اهل العراق وصفحه عنهم واساءتهم اليه يخيَّل للسامع انه صادق وان اهل العراق ظالموه[(٢)] ولذلك كان الامراء والخلفاء يخافون الخطباء كما يخافون الشعراء لما في اقوالهم من التاثير في تلك النفوس الحساسة

واذا رجعت الى حوادث الفتح او جمع الاحزاب او اخماد الثورات رأيت عجباً . واول ثورة كادت تهبُّ في الاسلام لما بلغ اهل المدينة موت النبي فهاجوا حتى خاف الصحابة سوء العاقبة فقام ابو بكر خطيباً فقال « ايها الناس ان يكن محمد قد مات فان الله حيٌّ لم يمت . وما محمد الاَّ رسولٌ قد خلت من قبله الرسل افإن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم . . وقد علمتم اني اكثركم قتباً في برّ وجارية في بحر فاقروا اميركم وانا ضامن ان لم يتم الامر ان

(١) العقد الفريد ٧ ج ٣ وغيره   (٢) البيان ٢٠ ج ١

اردها عليكم »[١] فهذه الكلمات القليلة كانت كافية لاخماد تلك الثورة

وقس على ذلك خطبته في السقيفة وخطب من تولى بعده من الخلفاء الراشدين واخطبهم بلا خلاف عليّ بن ابي طالب وفي كتاب « نهج البلاغة » المنشور بين ظهرانينا اكبر شاهد على ذلك وان لم تصح نسبة كل تلك الخطب اليه فاكثرها من اقواله وفيها امثلة من كل ضروب الخطب ومنها الدينية والادبية والعلمية والحماسية والفخرية

وكان اكثر الخلفاء يخطبون ولكنهم يتفاوتون في البلاغة وقوة العارضة على ان تلك القوة اخذت تضعف فيهم بعد الفراغ من الفتوح والانغماس في اسباب الترف والسكون الى الرخاء والبذخ وتحولت من الحماسة الى المواعظ ثم الى الشكاية · وتداعى فن الخطابة بتداعي دولة العرب في الشرق فلما قامت دولتهم في الاندلس بعثوه وقربوا الخطباء كما قربوا الشعراء لكنهم قلما كانوا يستخدمونهم لانهاض الهمم او اخماد الفتن لذهاب الحاجة الى ذلك بذهاب البداوة والفراغ من الفتح · على انهم كانوا اذا احتفلوا بتنصيب خليفة او بالنصر على عدوّ او باستقبال قادم كبير تقدمت الخطباء للترحيب به واعظام شانه او شان مقعده ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة[٢]

واما الامراء والقواد فكانوا يخطبون في الجند قبل الاغارة على العدو فيحرضونهم على الثبات · وكثيرًا ما كانت الخطبة سببًا للنصر كخطبة خالد بن الوليد في وقعة اليرموك وخطبة المغيرة في وقعة القادسية وخطبة خليد بن المنذر في غزوة فارس وخطبة طارق بن زياد في فتح الاندلس ونحو ذلك مما لا تسعه المجلدات

ناهيك بشيوع الخطابة في القبائل على اختلاف اصقاعها كما كانت في الجاهلية · وكانت ترد الوفود الى المدينة او دمشق او بغداد او غيرها من عواصم المسلمين لتهنئة الخليفة او استنماره او استنجاده او استجدائه · وكان شباب الكتاب اذا قدم الوفد حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم لشيوع حب الخطابة فيهم[٣] ولاقتباس اساليب البلاغة منهم

ويعدُّ من قبيل الخطابة عند العرب البلاغة في المكاتبات فقد كان الخلفاء وخصوصًا في صدر الاسلام اذا كاتبوا اميرًا في امر تحدّوا البلاغة كانهم واقفون على منبر الخطابة والغالب في قوي العارضة في الخطابة ان يكون بليغًا في الكتابة · وقد مرّ الكلام على ذلك

(١) البيان ١٢٢ ج ١ والشهرستاني ١١ ج ١   (٢) نفح الطيب ١٧٥ ج ١
(٣) العقد الفريد ٢٦٧ ج ٢

الشعر بعد الاسلام

الشعر وبنو أُمية

لما ظهر الاسلام ودهش العرب بأساليب القرآن وبالنبوة والوحي واشتغلوا بالغزو والفتح ونشر الاسلام انصرفت قرائحهم الشعرية الى الخطابة لحاجتهم اليها في استنهاض الهمم وتحريك الخواطر للجهاد واستحثاث القلوب على العبادة • فانقضى عصر الراشدين والعرب في شاغل عن الشعر حتى اذا طمع بنو امية في الخلافة مع كثرة المطالبين بها من أهل بيت النبي واحتاجوا الى من يؤيدهم استنفروا الناس لنصرتهم وابتاعوا الاحزاب بالاموال واستخدموهم بالدهاء فكان الشعر في جملة ما تساعدوا به على ذلك لما قدمناه من تأثيره في النفوس • وكان خلفاؤهم يبالغون في اكرام الشعراء اما ليرغبوا الناس في خلافتهم او ليقطعوا السنتهم فيسكتوا عن هجوهم ولذلك عبّروا عن اجازة الشاعر بقطع لسانه

فكان الخلفاء من بني امية يرغبون الناس في الشعر ويجيزونهم باعظم الجوائز على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم في أفواههم وكانوا يطالبون أولادهم بحفظ الاشعار والآثار • على أن تحريض الناس على تعليم أولادهم الشعر بدأ في أيام عمر كما تقدم • اما بنو امية فقد بذلوا المال والسعي في هذا السبيل • قال معاوية مؤسس دولتهم « اجعلوا الشعر اكبر همكم واكثر آدابكم » [1] وكان يبالغ في اكرام الشعراء ولو هجوه واقتدى به خلفاؤه وامراؤه حتى الحجاج فانه كان يهتم بذلك ويسأل أدباء زمانه عن أشعر الشعراء ويبحث في تفاضلهم واذا امتنع عليه ذلك مشافهة كاتب به أهل العلم كما كاتب قتيبه بن مسلم [2] • وكانوا اذا أمسك الشعراء عن أبوابهم استوفدوهم واستزاروهم وغمروهم بالاموال والاكرام • ومن اكثرهم رغبة في الشعر عبد الملك بن مروان فكان الناس في أيامه حيثما اجتمعوا يتناشدون الاشعار ويتدارسون اخبار الشعراء [3]

وقد يتبادر الى الاذهان انهم كانوا يفعلون ذلك رغبة في الادب وتنشيطاً لاهله لان الشعر سجية في العرب ودولة الامويين عربية بحتة • فلا يبعد ان يكون لذلك يدٌ في الامر ولكن الاغلب أنهم كانوا يفعلونه للاستعانة بألسنة الشعراء على مقاومة أهل البيت

(١) ابن خلكان ١٠٧ ج ٢ (٢) المزهر ٤٢٠ ج ١
(٣) لطائف المعارف ٧٠

لعلمهم ان الجمهور يعتقدون الحق في الخلافة لهؤلاء • وكثيراً ما كان الشعراء المغمورون بنعم بني امية لا يتمالكون عن التصريح بذلك في بعض الاحوال

فالفرزدق مثلاً امتدح بني امية ونال جوائزهم وكان متشيعاً في الباطن لبني هاشم والامويون يعلمون ذلك ويسترضونهُ • ومن جملة اخباره ان مروان بن الحكم وكان عاملاً لمعاوية على المدينة بلغه عن الفرزدق قولٌ أوجب حدَّهُ فطلبه ففرَّ الفرزدق الى البصرة • فقال الناس لمروان « أخطأت فيما فعلت فانك عرضت عرضك لشاعر مضر » فوجه وراءه رسولاً ومعه مائة دينار وراحلة خوفاً من هجائه • ومع ذلك اتفق ان الخليفة هشام بن عبد الملك ذهب الى الحج وبينما هو في الطواف شاهد علي بن الحسين وانكرهُ فسأل عنه وكان الفرزدق حاضراً فنظم قصيدتهُ المشهورة في مدح أهل البيت ومطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأتهُ والبيت يعرفهُ والحلُّ والحرم

ومما يدلُّ على ان بني أُمية كانوا يقربون الشعراء لغرض عائد الى تأييد سلطانهم ان عمر بن عبد العزيز أتقاهم واعدلهم لما أراد ان يتمثل بالخلفاء الراشدين في التقوى والزهد منع الشعراء من بابه واعلن أنه لا يقبل الشعر ولا يقابل الشعراء(١) فلم يطل حكمه وعاد خلفاؤه الى المباراة في اكرام الشعراء والاغداق عليهم بالاموال

الشعر وبنو العباس

فلما انقضت دولة بني امية وقامت دولة العباسيين عدل المنصور عن اكرام الشعراء وكانوا قد تعودوا الوفود على الخلفاء او نيل جوائزهم فاصبحوا اذا أتوا المنصور منعهم من الدخول عليه اياماً حتى تنفد نفقاتهم ويملون الانتظار وحاجبه يرفع أمرهم اليه وهو يؤخرهم • ثم اذا أذن لهم بعد ذلك اشترط عليهم ان لا يمدحوه كما كانوا يمدحون بني امية (٢) وكان بخيلاً عليهم فتغيرت قلوب الشعراء عليه فساعد ذلك على تباعد قلوب العرب عنهُ وميلهم الى العلويين فاستفحل امر محمد بن عبدالله بالمدينة وقاسى المنصور امرَّ العذاب في اخماد ثورته • فاصبح الخلفاء بعد المنصور يتجنبون أغضاب الشعراء ويبالغون في اكرامهم . وكان الشعراء يتقربون اليهم بهجو العلويين وخصوصاً الرشيد فقد كان مروان بن أبي حفصة يتقرب اليه بهجائهم (٣) وبعد ان كان الشعراء يسمون في أيام بني

(١) العقد الفريد ١١٥ ج ١ (٢) العقد الفريد ٩٢ ج ١

(٣) ابن خلكان ٨٩ ج ٢

امية السؤّال سماهم وزيره جعفر الزوّار • وبالغ المأمون في اكرامهم حتى كان يغضي عنهم اذا هجوه • ذكروا ان دعبلاً الشاعر الخزاعي هجا ابراهيم بن المهدي فرفع ابراهيم امره الى المأمون فقال له المأمون « لك اسوة بي فقد هجاني واحتملته وقال فيَّ :

ايسومني المأمون خطة جاهل او ما رأى بالامس رأس محمد
اني من القوم الذين سيوفهم قتلت اخاك وشرفتك بمقعد
سادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الاوهد »

فقال ابراهيم « زادك الله حلماً يا أمير المؤمنين » (١)

وتزاحم الشعراء بباب المهدي والرشيد والمأمون ونبغ بشار بن برد العقيلي وابونواس وابو العتاهية وغيرهم

الشعر ودول العرب

والشعر كما قدمنا من العلوم العربية فلما تغلب العنصر الاعجمي في دولة بني العباس وصارت الامور الى أيدي الاتراك ضعف أمر الشعراء • حتى اذا قامت دولة بني حمدان وهم عرب عاد الشعر الى رونقه وتزاحم الشعراء بباب سيف الدولة حتى قيل أنهُ لم يجتمع بباب خليفة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ما اجتمع ببابه • وكان هو أديباً شاعراً فاشتهر في عصره أبو فراس والمتنبي والسري الرفاء والنامي والببغاء والواواء وغيرهم

فلما انقضت تلك الدولة العربية عاد الشعر في الشرق الى الخمول وكان قد أينع في دولة بني أمية بالاندلس وراجت سوقه واتسع نطاقه وكثرت فنونه على ما يجيء

اما دول المسلمين غير العرب فقد كان فيهم من يحبُّ الشعر ويكرم الشعراء ولكن الغالب فيهم ان يفعل الملك منهم ذلك على سبيل القدوة او المباهاة وهو لا يفهم ما يقرأُه من مدائحه — ومما يضحك من هذا القبيل ان الشعراء وفدوا على يوسف بن تاشفين وهو من البرابرة اللمتونية بالمغرب ونظموا القصائد في مدحه بواسطة المعتمد بن عباد • فلما انشدوه قصائدهم قال له المعتمد « ايعلم امير المسلمين ما قالوه » قال « لا اعلم ولكنهم يطلبون الخبز » ولما انصرف المعتمد الى ملكه كتب الى ابن تاشفين رسالة قال في جملتها :

بنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا شوقاً اليكم ولا جفّت مآقينا
حالت لفقدكم ايامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

فلما قرئ عليه هذان البيتان قال للقارئ « يطلب منا جواري سوداً وبيضاً » قال

(١) ابن خلكان ١٧٩ج١

« لا يا مولانا ما اراد الاَّ ان ليله كان بقرب امير المسلمين نهاراً لان ليالي السرور بيض فعاد نهاره ببعده ليلاً لان ليالي الحزن سود » فقال « والله جيد اكتب له في جوابه ان دموعنا تجري عليه ورؤوسنا توجعنا من بعده »(١)

جمع الشعر ورواته

لما اخذ المسلمون في تفسير القرآن واحتاجوا الى تحقيق معاني الالفاظ كان الشعر في جملة ما رجعوا اليه في تحقيقها فاضطروا الى جمعه بالاخذ عن رواته ٠ شرعوا في ذلك من القرن الاول للهجرة ٠ واكثر الناس اشتغالاً في جمع الشعر اهل العراق مما يلي بلاد العرب اي في البصرة والكوفة وكان اهل الكوفة اجمع للشعر من اهل البصرة(٢) واول من جمع اشعار العرب وساق احاديثها حماد الراوية الديلمي الكوفي المتوفى سنة ١٥٥ هـ(٣) وخلف بن حيان الاحمر الفرغاني مولى ابي بردة(٤) وابو عمرو بن العلاء وابو عبيدة والاصمعي وغيرهم واكثرهم من رواة الادب واللغة وقد مرَّ الكلام على ذلك في بابه

وبلغ ما جُمع من شعر الجاهلية عشرات الالوف من القصائد ما لم يسمع له مثيل في امة من الامم كما تقدم ٠ على ان بعض الرواة كانوا ينظمون الشعر وينسبونه الى العرب لاسباب دعتهم الى ذلك لكنهم لم يفعلوا في هذا النحو ما يتجاوز الابيات القليلة ٠ قال خلف الاحمر « اتيت الكوفة لاكتب عنهم الشعر فبخلوا عليَّ به فكنت اعطيهم المنحول وآخذ الصحيح حتى مرضت فقلت لهم ويلكم انا تائب الى الله هذا الشعر لي فلم يقبلوا مني فبقي منسوباً الى العرب لهذا السبب »(٥)

وقال ابو عمرو بن العلاء « ما زدت في شعر العرب الاَّ بيتاً واحداً وهو :

وانكرتني وما كان الذي نكرت ... من الحوادث الاَّ الشيب والصلعا

ادخلته في جملة ابيات الاعشى » ٠ وفعل حماد ايضاً نحو ذلك(٦) على ان العرب ما لبثوا ان اخذوا في تمحيص الروايات بالاسانيد بعد ان تعودوا ذلك في رواية الحديث

ومن عادة العرب في رواية الشعر انهم كانوا من ايام الجاهلية اذا نبغ الشاعر صحبه رجل يروي اشعاره ويتلوها او يروي له اشعار غيره للشاهد او نحوه ٠ ويغلب في الراوية ان يكون مرشحاً للشاعرية كأنه تلميذ يتدرب على يد استاذه يأخذ عنه ٠ وكانت عمدتهم في الجاهلية على الحفظ لانهم لم يكونوا يكتبون فكان كثيّر عزة راوية جميل بثينة وجميل راوية

---

(١) نفح الطيب ٧٨١ ج ٢ (٢) المزهر ٣٠٦ ج ٢ (٣) ابن خلكان ١٦٤ ج ١
(٤) طبقات الادباء ٦٩ (٥) ابن خلكان ٣٠٨ ج ١ (٦) ابن خلكان ٢٨٧ ج ١

هدبة بن خشرم وهدبة كان راوية الحطيئة والحطيئة راوية زهير وابنه [١] وكان الراوية في الجاهلية واوائل الاسلام يروي للشاعر الواحد و يصحبه و ينشد له و يعجب به اعجاب التلميذ باستاذه و يناضل عنه و يفضله على سواه · فلما احتاج العرب الى جمع الشعر كثر رواته او جماعه وكلٌّ منهم يجمعه و يرويه لغرض — فالنحويون كانوا يعتنون بحفظ الاشعار التي يستشهد بها في الاعراب والشعراء كانوا يروون كل شعر فيه لفظ غريب او معنى صعب يحتاج الى الاستخراج والاخباريون كانوا يجمعون من الشعر ما يجدون فيه الشاهد والمثل · وكان فيهم من يروي اشعار المجانين ولصوص الاعراب والارجاز الاعرابية القصار واشعار اليهود — على ان هؤلاء لم يكونوا يعدون من الرواة · وتفرد جماعة بجمع كل انواع الشعر وهم الرواة الذين ذكرناهم ومنهم حماد وخلف وغيرهما · وكانت لهم في الحفظ نوادر غريبة لتعويد ذاكرتهم على ذلك مذ اخذ الناس في ذلك العصر بتعويد حوافظهم على حفظ القرآن والحديث لتجنب الكتابة للاسباب التي قدمناها · فكان فيهم من يحفظ بضعة وعشرين الف قصيدة يرويها باسانيدها ومعاني الفاظها كما تقدم · وكان للشعراء عناية خصوصية في حفظ اشعار العرب لاكتساب ملكة العرب فيها · لانهم كانوا يعتقدون ان من يحفظ شعر شاعر فحل يشعر مثله · او للجواب على ما قد يعرض عليهم من الاسئلة اذ كان للخلفاء والامراء في الدولة الاموية وصدر الدولة العباسية عناية كبيرة في استطلاع اشعار العرب

طبقات الشعراء

العرب مطبوعون على الشعر ولكنه يختلف فيهم معنى واسلوباً باختلاف العصور والاقاليم · فالبدوي الذي كان ينظم القصيدة وهو يسوق بعيره في عرض البيداء لا يرى حوله الا رمالاً او اطلالاً إذا لذعته الشمس او جنّه الظلام أوى الى بيت من الشعر او الوبر انيسه فيه البعير والفرس وطعامه اللبن والتمر وضجيعه السيف والرمح يتوسد على حذر من عدوّ يبغته او حشرة تلسعه واذا واعد حبيبه فموعدهما الرقمتان او العقيق فيلتقيان على اكمة او في وادٍ · يعبد آلهة من الحجارة او الاخشاب او يصنعها من التمر واذا جاع اكلها — فالبدوي الذي هذه حاله لا يكون خياله الشعري مثل خيال رجل نشأ بين القصور الشماء والحدائق الغنّاء ولبس الحرير وتوسد الديباج وتعوّد ابهة الدولة وجلال الملك وعاشر الخلفاء والوزراء وعانى اسباب التأنق وانغمس في الترف والبذخ — فان

(١) الاغاني ٧٨ ج ٧

الشعر تختلف طبقته باختلاف هذه الاحوال · ولذلك كان الشعر الجاهلي اقرب الى الخشونة والمتانة مع خلوه من زخرف الكلام واساليب الكناية والمجاز

فلما جاء القرآن وشاع حفظه وحفظ الاحاديث وعني الناس بجمع الآداب والامثال واستظهار احاسنها واحاسن الشعر نهضت طباع الناس وارتقت اذواقهم في البلاغة ورسخت ملكاتهم واتسعت تصوراتهم في الشعر والخطابة · فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم اسمى رتبة واصفى رونقًا واقتبسوا من الفرس اساليب الاطناب · ولذلك كان الشعراء الاسلاميون اعلى طبقة في البلاغة واذواقها من شعراء الجاهلية — فشعر حسان بن ثابت وعمر بن ابي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وذي الرمة والاحوص ارفع طبقة في البلاغة والتفنن في اساليب التعبير من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة وطرفة [1] كما كان الخطباء الاسلاميون احسن ديباجة وابلغ عبارة من خطباء الجاهلية

فالجاهليون طبقة أُولى تليهم طبقة الاسلاميين الى أَواخر دولة بني امية وهم المخضرمون ثم طبقة ثالثة في الدولة العباسية هي طبقة المولدين تليها طبقة المحدثين · ولا يسعنا تعيين حد فاصل بين كل طبقة وما يليها لان كثيرين من الشعراء ادركوا اواخر احدى هذه الطبقات واوائل التي تليها · فمن شعراء الجاهلية من ادرك الاسلام ومن المخضرمين من ادرك زمن المولدين وقس على ذلك

وانما نقسم الشعراء الى هذه الطبقات تقسيمًا اجماليًّا · فالطبقة الاولى شعراء الجاهلية والمراد بهم من كان شعره جاهليًّا او نظم اكثره قبل الاسلام · ومزية الشعر الجاهلي البساطة والخشونة فاذا وصفوا عاطفة مثلوها بطبيعتها او وصفوا اسدًا او بيتًا او ظبيًا لم يكن في عبارتهم تكلف ولا تعمل او مبالغة · واشهر اهل هذه الطبقة اصحاب المعلقات

والطبقة الثانية وهي المخضرمون تشبه الاولى من حيث بقاء أهلها على البداوة في عهد الامويين ولكنها أسمى منها في البلاغة للاسباب التي قدمناها وعليها مسحة من الحضارة ومن أشهر الشعراء المخضرمين حسان بن ثابت وكعب بن زهير وجرير والاخطل والفرزدق

والطبقة الثالثة المولدون وشعراؤها من معاصري الرشيد والمأمون في عصر الزهو العباسي عصر الترف والبذخ والتأنق والرخاء فرقّت طباعهم وارتقت اذواقهم بالمعاشرة والمخالطة فظهر ذلك في أشعارهم فعمدوا الى وصف الخمر ومجالس الانس وحدائق القصور ونحو ذلك · فشعر المولدين يمتاز عن الطبقتين السابقتين بالرقة والخلاعة واشهر

---

(١) ابن خلدون ٨ ه ج ١

المولدين بشار العقيلي وابو العتاهية وابو نواس وأبو تمام والبحتري

واما الطبقة الرابعة فنريد بها الشعراءَ الذين نبغوا بعد انتشار الفلسفة اليونانية وعلوم اليونان وشيوع علم الكلام • وفي شعر أهل هذه الطبقة صبغة فلسفية حكمية جدلية كشعر المتنبي والمعري والشريف الرضي والصفي الحلي

الشعراءُ في الاسلام واشعارهم

تكاثر الشعراءُ في العصر الاسلامي فوق تكاثرهم في العصر الجاهلي لرواج سوق الشعر في القرون الاولى • على ان احصاءَهم بالضبط غير متيسر لضياع أكثر أخبارهم لكننا نستدل من بعض النصوص ان عددهم كان عظيماً جدًّا • فقد ذكر ابن خلكان « ان هرون بن علي المنجم البغدادي صنف كتاب البارع في أخبار الشعراءِ المولدين وجمع فيه ١٦١ شاعراً وافتتحه بذكر بشار العقيلي وختمهُ بمحمد بن عبد الملك بن صالح » والفترة بينهما قصيرة • وذكر المؤلف انه اقتصر على خيرة الشعراءِ ونخبتهم فقس على ذلك الشعراءَ المخضرمين والمحدثين من أهل الطبقة الرابعة ناهيك بشعراءِ الاندلس فانهم يعدون بالمئات

اما مقدار ما نظمه اولئك الشعراء من القصائد والدواوين فمما لا يحصيه عدٌّ وقد فقد معظمه في الفتن وغيرها في العصور الاسلامية الوسطى فنكتفي منها بما ذكره صاحب كشف الظنون فانه ذكر نحو ستماية ديوان لستماية شاعر من المشاهير اورد اسماءَهم والقابهم وسني وفاتهم وهم من اهل العراق والشام وفارس وخراسان ومصر والاندلس وغيرها • ويختلف حجم هذه الدواوين ومقدار صفحاتها من الفي صفحة الى مئة وما تحتها وتقدير الورقة في اصطلاحهم صفحتان كل صفحة عشرون سطراً • فديوان بشار العقيلي مثلاً الف ورقة في الفي صفحة اي ٤٠,٠٠٠ سطر او بيت • وابن هرمة ٥٠٠ ورقة في ٢٠,٠٠٠ بيت وشعر ابي نواس في نحو الف ورقة ومسلم بن الوليد ٢٠٠ ورقة وقس على ذلك[1]

واذا اعتبرت الدواوين التي ضاعت وفات صاحب كشف الظنون ذكرها والشعراء الذين لم تجمع اشعارهم ولم يكن لهم دواوين زاد استغرابك كثرة الشعر العربي وتعداد شعرائه مما لاتجد له مثيلاً في لغة من لغات العالم القديم أو الحديث

عروض الشعر

المشهور ان الخليل بن احمد المتوفى سنة ١٧٠ ه اول من وضع عروض الشعر العربي اي

---

(١) الفهرست ١٥٩

استنبطه واخرجه الى الوجود وحصر اقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحرًا ثم زاد فيه الاخفش بحرًا واحدًا سماه الخبب [١] . ولكن الغالب ان بحور الشعر كانت معروفة من قبل ولولا ذلك لم يستطع العرب ضبط منظوماتهم على ما نراه في اشعارهم . و يؤيد ذلك قول الوليد بن المغيرة منكرًا قول من قال ان القرآن شعر « لقد عرضته على اقراء الشعر وهجزه ورجزه وكذا وكذا فلم اره يشبه شيئًا من ذلك » [٢] فكيف يقول هذا وهو لا يعرف بحور الشعر . فالظاهر ان الخليل اول من جعل العروض علمًا ورتبه هذا الترتيب وزاد فيه انواعًا من الشعر ليست من اوزان العرب [٣] وربما زادوا فيه بعد ذلك شيئًا من بحور اليونان او اساليبهم لان بعض الذين كانت لهم عناية باللغة اليونانية في ذلك العصر كانوا يقابلون بين شعرها وشعر العرب . ولابن الهيثم في اوائل القرن الخامس للهجرة رسالة في صناعة الشعر ممتزجة من اليوناني والعربي [٤] لم نقف عليها . على ان ابن شرشير الشاعر المعروف بالناشئ الاكبر المتوفى سنة ٢٩٣ هـ كان قد نظر في قواعد العروض وادخل عليها شبهًا ومثّلها بغير امثلة الخليل [٥]

ولا مشاحة في ان عروض الشعر ارتقت وتفرعت بتوالي القرون شأن كل ما هو من قبيل الاحياء فتولد في النظم ضروب من القصائد كالاصمعيات والشعر البدوي والحوراني وغيرها

اما الاندلس فقد كان للشعر فيها تاريخ خاص لرواجه عندهم بعد اشتغال الامم الاخرى عنه فانهم هذبوا مناحيه وفنونه حتى بلغ التنميق فيه الغاية واستحدثوا الموشح ونظموا به الموشحات الاندلسية المشهورة استنبطه مقدم بن معافر الفريري الاندلسي في اواخر القرن الثالث للهجرة [٦] ولما شاع التوشيح عندهم واخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه نسجت العامة من اهل الامصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير ان يلتزموا فيها اعرابًا واستحدثوا فنًّا سموه « الزجل » شهره ابو بكر بن قرمان القرطبي و يعرف بامام الزجالين

ثم استحدث اهل الامصار في المغرب فنًّا آخر من الشعر في اعاريض مزدوجة نظموه بلغتهم الحضرية وسموه « عروض البلد » استنبطه ابن عمير الاندلسي . وشاع هذا الفن بفاس فنوعوه اصنافًا سموه المزدوج والكاري والملعبة والغزل وغيرها كما شاع الآن انواع الزجل المصري في مصر والقرّيض اللبناني والمعنّى في الشام

(١) ابن خلكان ١٧٢ ج ١ (٢) المزهر ١٧٧ ج ٢ (٣) المزهر ٢٠٢ ج ٢
(٤) طبقات الاطباء ٩٤ ج ٢ (٥) ابن خلكان ٢٦٣ ج ١
(٦) ابن خلدون ٥١٨ ج ١ وابن الاثير ٢٨ ج ٨

وكان لعامة بغداد فنٌّ من الشعر يسمونه «المواليا» تحته فنون كثيرة ذكروا منها «القوما» و«كان وكان»(١) ومنه مفرد ومنه في بيتين وغير ذلك . ثم انتقل الى الامصار وتفننوا فيه وهو شائع الآن في سوريا والعراق ومصر

الشعر والدولة

بينّا في كلامنا عن الشعر في الجاهلية ما كان له من التأثير في نفوس العرب لشدة حساستها وسرعة تأثرها . فلما صار العرب دولة وارتقت عقولهم زاد شعورهم رقة فازدادوا حساسة وتضاعف تأثير الشعر فيهم . واتسعت دائرة ذلك التأثير باتساع دولة المسلمين واستبدادهم في احكامهم وخصوصاً في الدول العربية لاشتغال الخلفاء انفسهم في الشعر واهتمامهم بالشعراء واشعارهم . فقد رأيت ما كان من احتفاء بني امية بالشعراء واستقدامهم اليهم وظلّ ذلك في صدر الدولة العباسية وفي كل دولة عربية . فاذا وفد الشاعر على الخليفة او الامير استأذن في الدخول عليه فاذا دخل انشد قصيدته جهاراً والخليفة وارباب مجلسه يسمعون(٢) و يترنمون فيأمر الخليفة او الامير بالجائزة وقد تتجاوز مئة الف درهم الى الف الف(٣) وقد يرتب له الرواتب الشهرية ويخلع عليه الخلع ويقلده الوظائف(٤) . ومن اكثر الخلفاء سخاء على الشعراء المهدي والرشيد العباسيان والناصر والمنصور الاندلسيان . ومن اسخى الامراء خالد القسري امير العراقين في زمن الامويين وسيف الدولة بن حمدان

على ان الخلفاء والامراء عموماً كانوا يبذلون الاموال للشعراء الاّ نادراً . وكانوا يعينون يوماً كل اسبوع او كل شهر او سنة يستقبلون فيه الشعراء لا يدخلون فيه سواهم(٥) كأنهم يريدون التفرغ للنظر في الشعر وآدابه . وكان الشعراء يتناظرون و يتنافسون في ذلك المجلس ولا يخفى ما يترتب على تلك المناظرة من شحذ الاذهان وانهاض العزائم . وكان الاندلسيون اكثر عناية في ذلك من سواهم — كان للمعتضد عباد المتوفى سنة ٤٦١هـ دار خاصة بالشعراء يجلسون فيها على الرحب والسعة فاذا آن يوم الشعراء وهو يوم الاثنين من كل اسبوع يدخلون عليه ولا يدخل عليه سواهم . وكان للشعراء مراتب عندهم ولهم رئيس يوليه السلطان(٦) وسجل خاص يقيدون فيه اسماءهم كأنهم يعدونهم من جملة موظفي الحكومة(٧) وكان امراء

(١) ابن خلدون ٥٣٠ ج ١ (٢) ابن خلكان ٧٢ ج ١
(٣) ابن خلكان ١٩٨ ج ١ (٤) نفح الطيب ٧٢٩ ج ٢
(٥) الاغاني ٤٤ ج ٩ وابن خلكان ١٦٩ ج ١ (٦) نفح الطيب ١١٩ ج ٢
(٧) نفح الطيب ٨٩٥ ج ٢

الاندلس اذا عاد احدهم من فتح جلس للناس فيقرأ القراء ثم يقوم الشعراء فينشدون . ونظنهم كانوا يبالغون في اكرام الشعراء اقتداء بخلفاء بغداد كما اقتدوا بهم في كثير من آدابهم ونظاماتهم وسائر احوالهم

الشعر والخلفاء والامراء

ومن اسباب رواج صناعة الشعر في الدول العربية ان الخلفاء انفسهم كانوا ينظمون الشعر و يبحثون فيه ولبعضهم القصائد والمقاطيع الحسنة. ومن اشهر الخلفاء الشعراء يزيد ابن معاوية فقد جمعوا شعره في ثلاث كراريس ذكر ابن خلكان انه قرأها وحفظ ابياتها لشدة غرامه بها [1] ولا غرابة في ذلك لان يزيداً نشأ في البادية ووالدته ميسون بنت بحدل الكلبية التي لم تعجبها قصور معاوية في الشام فحنت الى البادية وأنشدت الابيات المشهورة التي مطلعها :

لبيتٌ تخفق الارواح فيه احب اليَّ من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني احبُّ اليَّ من لبس الشفوف

فسمعها معاوية فطلقها فسارت الى اهلها في نجد وهي حامل بيزيد فولدته بالبادية فارضعته سنتين [2] هناك . ومن الخلفاء الشعراء ايضاً الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهرون الرشيد . واكثر الخلفاء العباسيين كانوا ينظمون الشعر واشعرهم بلا استثناء عبدالله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ولم يتول الخلافة الا يوماً وليلة وكان من رجال العلم وله ديوان شعر [3] قد طبع ونشر بمصر . وآخر من نظم الشعر منهم الراضي بالله المتوفى سنة ٣٢٩ هـ فانه آخر خليفة دوّن له شعر وآخر خليفة خطب على منبر وجالس الندماء ووصل اليه العلماء [4]

واما خلفاء الاندلس وامراؤهم فقد نظم الشعر منهم عبد الرحمن الاوسط والمستعين بالله . وقد الف الصولي كتاباً مستقلاً في اشعار خلفاء بني العباس فحسدهم خلفاء بني امية بالاندلس فكان همُّ الخليفة الحكم الاندلسي من يؤلف له كتاباً في شعراء خلفاء بني امية مثل كتاب الصولي في بني العباس [5]

واذا تدبرت ما تقدم رأيت اكثر الخلفاء والامراء عناية في الشعر اكثرهم اقتداراً على نظمه لانهم كانوا يقدرون الشعر قدره — وذلك شأن العلم في الدول المطلقة فانما يروج فيها من الصنائع والفنون والعلوم والآداب ما كان للملوك او الامراء رغبة فيه . فالوليد بن يزيد

(١) ابن خلكان ٥٠٨ ج ١ (٢) الدميري ٢١٨ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٢٥٨ ج ١
(٤) الفخري ٢٥٢ (٥) نفح الطيب ١٠٠٣ ج ٢

ابن عبد الملك اعطى يزيد بن منبه على قصيدة مدحه بها عن كل بيت الف درهم[١] وهو اول خليفة عدّ الشعر واعطى على البيت الف درهم . و يقال نحو ذلك في سائر الخلفاء الشعراء وكذلك الامراء فان سيف الدولة لم يرج الشعر في عصره الاّ لانه كان هو نفسه شاعرًا[٢]

فكان الغرض من تقريب الشعراء في اول دولة بني امية سياسيًّا ثم صار ادبيًّا يندفع الخلفاء والامراء اليه تلذذًا بالشعر وآدابه . ولذلك كانوا يجالسون الشعراء و يقترحون عليهم نظم القصائد او الابيات او يستقدمونهم للسؤال عن بيت اغلق عليهم فهمه او نسوا بعضه وقد يكون بينهم و بين الشاعر بعد شاسع . فقد بعث هشام بن عبد الملك بدمشق الى اميره على العراق يوسف بن عمر الثقفي ان يوجه اليه حمادًا الراوية و يدفع له ٥٠٠ دينار وجملاً مهريًّا فسار حماد الى الشام في ١٢ ليلة ولما وصلها وسأل عن سبب استقدامه فقال لهُ هشام «خطر ببالي بيت لا اعرف قائله وهو :

دعوا بالصبوح يومًا فجاءت قينة في يمينها ابريق »

فقال حماد «يقولهُ عدي بن زيد العبادي » وانشده باقي القصيدة[٣] . وكثيرًا ما كانوا يفعلون ذلك وهم في مجلس من مجالس الطرب لا يجوزه الشرع فان يزيد بن عبد الملك صاحب حبابة التي مات في سبيل تهتكه بها كانت تغنيه ذات ليلة وتسقيه فطرب ثم غنته :

اذا رمتُ عنها سلوة قال شافع من الحسن ميعاد السلو المقابرُ

فسألها عن قائل هذا البيت فقالت لا ادري فبعث الى الزهري ليستخبرهُ وكان قد ذهب من الليل شطره فجاء وهو يرتعد خوفًا فلما علم السبب سري عنه[٤]

على ان الغالب في مجالسة الشعراء ان تكون لغرض ادبي كوصف منظر او اداة كما فعل الهادي اذ استقدم الشعراء اليه واقترح عليهم ان يصفوا سيفًا اهداه اليه المهدي وهو سيف عمرو بن معدي كرب . فوضع السيف بين يديه وقال للشعراء صفوه فنال الجائزة ابن يامين المصري[٥]

وكان الرشيد من اكثر الخلفاء بحثًا في الشعر وقائليه فقد سأل اهل مجلسه مرة عن صدر هذا البيت « ومن يسأل الصعلوك اين مذاهبه » فلم يعرفه احد وكان الاصمعي مريضًا لايقدر على المجيء فارسل اليه اسحق الموصلي و بعث معه الف دينار لنفقته فجاء الجواب ان البيت من قصيدة لابي النشناش النهشلي وهذا صدره :

---

(١) ابن الاثير ١٣٧ ج ٥ (٢) ابن خلكان ٣٦٥ ج ١ (٣)ابن خلكان ١٦٥ ج ١
(٤) حلبة الكميت ٦٠ (٥) المسعودي ١٨٧ ج ٢

وسائلة اين الرحيل وسائل ومن يسأل الصعلوك اين مذاهبه [1]

وكثيرًا ما كان الرشيد يعقد المجالس للبحث في معنى بيت . وقد سأل اهل مجلسه يومًا عن معنى هذا البيت :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرمًا ورعًا فلم ارَ مثله مخذولا

وكان في المجلس الكسائي والاصمعي فطال الجدال بينهما والخليفة يسمع [2] واعطى الرشيد الفضل خاتمًا قيمته ١,٦٠٠٠٠ دينار مكافأة على احسن بيت قالته العرب في الذئب [3] والمأمون ولى ابن الجهم ولاية من اجل بيت طلبه منه واشترط عليه ذلك [4] . وقس على ذلك ما كان يجري من هذا القبيل في مجالس سيف الدولة وغيره من محبي الشعر

تأثير الشعر في الدولة

ويقال بالاجمال ان الشعر كان عند العرب كل آدابهم يتناشدونه ويتسامرون به ويتذاكرون فيه ولم يكن ذلك قاصرًا على الخلفاء او الامراء او الادباء ولكنه كان عامًا في الرجال والنساء . وكانوا لكثرة ما يحفظونه منه يرمزون باسم الشاعر الى بيت من ابياته مشهور بمعنى ويريدون ذلك المعنى كما اتفق لرجل كان قاعدًا على جسر بغداد فرأى امرأة بارعة في الجمال قادمة من جهة الرصافة فاستقبلها شاب فقال « رحم الله علي بن الجهم » فقالت له المرأة « رحم الله ابا العلاء المعري » وما وقفا بل سارا مشرقًا ومغربًا — قال الرجل « فتبعت المرأة وقلت لها والله ان لم تقولي لي ما أراد وما أردتِ لافضحنكِ قالت اراد بعلي بن الجهم قوله :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري

واردتُ بابي العلاء قوله :

فيادارها بالخيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك اهوال [5]

فلا غرو بعد ماتقدم ان رأيت للشعر تأثيرًا شديدًا في نفوس كبار القوم حتى يترتب على انشاد البيت الواحد ايقاد نار الحرب او قتل جماعة او انقاذهم من القتل

ومن أمثلة ذلك ان ابا العباس السفاح اول خلفاء بني العباس لما استوثق له الامر بالخلافة تتبع بقايا بني امية ورجالهم ووضع السيف فيهم . ولكن جماعة من كبارهم كانوا قد استأمنوا وصاروا يحضرون مجلس السفاح فاتفق مرة ان احدهم سليمان بن هشام

(١) المزهر ٨٣ ج ١ (٢) المزهر ٢٧٨ ج ١ (٣) النجوم الزاهرة ٤٦٢ ج ١
(٤) الاغاني ١٦ ج ١٣ (٥) حلبة الكميت ٩٥

ابن عبد الملك كان في مجلس السفاح وقد اكرمه فدخل سديف بن ميمون الشاعر وأنشد :

لا يغرنك ما ترى من رجال ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فالتفت سليمان وقال قتلتني ياشيخ ثم أُخذ سليمان فقتل • ودخل على السفاح شاعر آخر وقد قدم الطعام وعنده نحو سبعين رجلاً من بني أمية فأنشده:

أصبح الملك ثابت الآساس بالبهاليل من بني العباس

ثم ذكر مظالم بني أُمية الى ان قال :

واذكروا مصرع الحسين وزيد وقتيلاً بجانب المهراس
والقتيل الذي بحرّان اضحى ثاويا بين غربة وتناس

فامر بهم السفاح فضربوا بالسيوف حتى قتلوا وبسط النطوع عليهم وجلس فوقهم فاكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً [1]

ويقال نحو ذلك في القصيدة التي هاجت الرشيد لمحاربة نقفور ملك الروم ومطلعها :

غدر الذي اعطاك نقفور فعليه دائرة البوار تدور [2]

وكثيراً ما كان ينجو الرجل من القتل ببيت يعجب به الخليفة فيخلي سبيله وحكاية مالك بن طوق مع الرشيد مشهورة • فانه بعد ان استوجب القتل وركع على النطع قال القصيدة التي مطلعها :

أرى الموت بين النطع والسيف كامناً يلاحظني من حيث ما اتلفتُ

الى ان قال :

وما بي من خوف اموت وانني لأعلم ان الموت شيءٌ موقتُ
ولكن خوفي صبية قد تركتهم واكبادهم من حسرة تتفتت
كاني اراهم حين أُنعى اليهم وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا
فان عشت عاشوا آمنين بغبطة اذود الردى عنهم وان متُّ موتوا
فكم قائل لايبعد الله داره وآخر جذلان يسرُّ و يشمت

فبكى الرشيد وقال «لقد سكتّ على همة وتكلمت على علم وحكمة وقد عفوت لك عن الصبوة ووهبتك للصبية فارجع الى ولدك ولا تعاود» فقال «سمعاً وطاعة» وانصرف [3]

(١) الفخري ١٣٤ (٢) المسعودي ١٤٢ ج ١

(٣) فوات الوفيات ١٤٣ ج ٢

وكم من قائد رجع عن الهزيمة ببيت تذكرهُ فتحمس — قال معاوية لما رغّب الناس في الشعر « فان فيه مآثر اسلافكم ومواضع ارشادكم فلقد رأيتني يوم الهزيمة وقد عزمت على الفرار فما ردّني الاّ قول ابن الاطنابة الانصاري :

ابت لي عفتي وابي بلائي واخذي الحمد بالثمن الربيح »(١)

وقس على ذلك كثيراً من امثال هذه الحوادث في الجاهلية والاسلام

العلوم الدخيلة

فرغنا من الكلام في ما اقتضاه التمدن الاسلامي من العلوم الاسلامية وفي الاسباب التي دعت الى نشوئها وفي الآداب العربية الجاهلية وما بلغت اليه في الاسلام · ونحن متقدمون في ما يلي الى الكلام في العلوم الدخيلة التي نقلها المسلمون الى العربية ونريد بها العلوم القديمة التي كانت شائعة عند ظهور الاسلام في الممالك التي عرفها المسلمون · وهي عبارة عن خلاصة ابحاث رجال العلم والفلسفة والادب في ممالك التمدن القديم على اختلاف الامم والدول والاماكن والاصقاع في القرون المتوالية من أقدم ازمنة التاريخ الى ايامهم وفيها زبدة علوم الاشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان · ولا يراد بذلك ان العرب اخذوا علم كل أمة عن اهلهِ رأساً ولكنهم جاؤا والعلوم قد تحلبت بتوالي الادهار وتفاعل العناصر واجتمع معظمها لليونان فبوّبوها ورقوها وظهرت النصرانية فأثرت فيها وبقي بعضها في بقايا الدول القديمة كالفرس والكلدان والهنود وغيرهم ممن دانوا للمسلمين وانتظموا في خدمتهم · فاخذوا من هؤلاء جميعاً · ولذلك كان من جملة افضال التمدن الاسلامي على العلم انهُ جمع شتات تلك العلوم من اليونانية والفارسية والهندية والكلدانية الى العربية وزاد فيها ورقاها كما سيأتي

فلنبحث أولاً في حال العلم والادب في البلاد التي عرفها المسلمون وهو يتناول النظر في آداب اليونان والفرس والهنود والكلدان على ما يأذن به المقام · ثم نتقدم الى الكلام في ما نقله العرب من ذلك والاسباب التي دعت الى نقله

---

(١) ابن خلكان ١٠٧ ج ٢

آداب اللغة اليونانية

اليونان من القبائل الآرية التي نزحت قبل زمن التاريخ من أعالي الهند واستقرت في الارخبيل اليوناني وما يقابله من شواطىء اسيا الصغرى حول بحر ايجيا • وللشعوب الارية آداب مشتركة واخلاق متشابهة • فنزل اليونان هناك ومعهم كثير من معتقدات اسلافهم وعاداتهم التي نزل بها اخوانهم الآريون الى بلاد الهند ودونوا معظمها في كتبهم الدينية السنسكريتية (البرهمية) في اقدم أزمنة التاريخ

اما اليونان فكانوا يسمون هلاّس او الهيلينيين وهم ثلاث قبائل كبرى اليونيون والايوليون والدوريون • فنزل اليونيون شواطىء اسيا الصغرى والايوليون في لسبس وما والاها ونزل الدوريون في المورة وصقلية وغيرها • وكان التمدن القديم يومئذ مورقاً في وادي النيل ووادي الفرات وكان الفينيقيون جيران اليونيين برّاً والدوريين بحراً وقد استعمروا شواطىء اسيا الصغرى مما يلي بلادهم • فأصبح اليونيون او اليونان الاسيويون) على مقربة منهم فحمل اليهم الفينيقيون كثيراً من اسباب التمدن واكثره منقول عن البابليين والاشوريين والمصريين • فاقتبس اليونيون مبادىء العلم والادب كالفلك والطب والدين ونقلوها الى اخوانهم الدوريين في الجانب الغربي من بحر ايجيا • وكان اليونانيون على الاجمال اهل ذكاء ونشاط فما لبثوا حيناً حتى نظموا الشعر والقوا الخطب وهي من قرائحهم الفطرية ونبغ منهم الشعراء والخطباء ثم الفلاسفة والعلماء والاطباء وجعلوا للعلم قواعد لاتزال مرعية في اكثر وجوهها الى اليوم

ويقسم تاريخ آداب اللغة اليونانية الى ثلاثة اعصر:

(١) عصر الآداب اليونانية القديمة ويبتدىء قبل زمن التاريخ الى سنة ٥٢٩ للميلاد وهي السنة التي امر فيها القيصر يوستنيان باقفال المدارس الوثنية في مملكة الروم

(٢) العصر البيزنتي او القسطنطيني ويبتدىء سنة ٥٢٩ م وينتهي بفتح العثمانيين القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م

(٣) العصر الحديث يبتدىء بذلك الفتح ولا يزال

ولا يهمنا في هذا المقام الاّ العصر الأول وبعض الثاني

الآداب اليونانية القديمة

من قبل التاريخ الى سنة ٥٢٩ م

وتقسم الآداب اليونانية القديمة الى ثلاثة ادوار (١) دور الشعر وينتهي سنة ٤٧٥ قبل الميلاد (٢) دور الروايات التمثيلية والتاريخ والفلسفة من سنة ٤٧٥ — ٣٠٠ قبل الميلاد (٣) دور العلم بعد نضجه او الدور الاسكندري ويقسم الى عصرين العصر اليوناني والعصر الروماني

١ — الشعر اليوناني

اليونان من الامم التي استنبطت آدابها الخيالية استنباطاً ولم تقلد بها احداً ولا اخذتها عن احد وشأنهم في ذلك شأن العرب في علومهم الاسلامية وآدابهم العربية . واقدم آداب اليونان الشعر وقد اتقنوه وأجادوا فيه من قديم الزمان لان كل قبيلة منهم تولت اتقان فرع منهُ فاشتغل اليونيون في الشعر القصصي والايوليون في الشعر الموسيقي البسيط واشتغل الدوريون في اتقان هذا الشعر والتوسع فيه واخيراً اشتغل الأتيون وهم فرع من اليونيين في اتقان الشعر التمثيلي وسائر الفنون الخيالية وتطرقوا منها الى الفنون النثرية كالتاريخ والفلسفة وغيرها . وكانت لغات هذه القبائل تختلف بعضها عن بعض مثل اختلاف لغات قبائل العرب في عصر الجاهلية

ويغلب على الظن ان اليونان نظموا الشعر قبل تشتت قبائلهم واقدم اشعارهم « اناشيد الفصول » تليها اشعارٌ وصفوا بها الآلهة او الحروب على شكل الحكايات المتقطعة كانوا يتناشدونها بالآلات الموسيقية . فلما تفرقوا اختص اليونيون بالشعر القصصي فالفوا من تلك الحكايات الملاحم واقدم الملاحم الالياذة والاذيسية نظمهما هوميروس في القرن التاسع قبل الميلاد وصف بها الايام العشرة الاخيرة من حصار طروادة

وقد زها الشعر القصصي عند اليونان قبل سائر ضروب الشعر لانه يصف وقائعهم وحروبهم . وكانوا في اوائل احوالهم مثل قبائل العرب وكان امراؤهم يحبون سماع اخبار اسلافهم من الابطال وانصاف الآلهة فحببوا الى اصحاب القرائح نظم تلك الاخبار في الملاحم . وفي اواسط القرن الثامن قبل الميلاد اخذت السلطة الاستبدادية في الافول واخذ اليونان يتمتعون بحريتهم الشخصية استعداداً للحكم الجمهوري . فنمت شعائرهم الاستقلالية

واحسَّ كل منهم بذاتيته وتولد فيه الميل الى وصف عواطفه وامياله فنظمها شعرًا هو الشعر الموسيقي . واكثر المشتغلين به الايوليون والدوريون وله عند كل منهما مميزات واشهر نوابغ الشعر الموسيقي عند اليونان سيمونيدس وبندار — الاول يوني الاصل دوري النظم واكثر منظوماته في وصف احوال الحرب بين اليونان والفرس والثاني دوري المولد والمنشأ واسلوبه ونظمه دوريَّان

٢ — الادب والعلم والفلسفة عند اليونان

من سنة ٤٧٥ — ٣٠٠ ق م

الادب والتاريخ

ويسمَّى هذا الدور ايضًا الدور الأَتي او الاتيكي نسبة الى اتيكا في جزائر اليونان وسكانها مزيج من اليونيين والدوريين — فبعد ان اشتغل اليونيون والايوليون والدوريون في انشاء الشعر ودونوا به اخبارهم ووصفوا حروبهم وعبروا به عن عواطفهم وعواطف ذويهم استحثتهم قرائحهم الوقادة الى ما يمثلون به تلك الاخبار ويشخصون به العواطف ليراها الناس رأي العين او يشعروا بها كأَنها بين جنبيهم فاحدثوا فن التمثيل (الدراما) ومنه التراجيديا والكوميديا واجادوا في كليهما ونبغ منهم مشاهير عظام من اهل هذا الفن مما يطول بنا الكلام فيه وهو خارج عن موضوعنا وانما يقال بالاجمال ان اليونان اتقنوا الشعر على اختلاف ضروبه ومواضيعه قبل ان يعتنوا بالنثر المرسل لاستغنائهم عنه بالشعر القصصي . واقدم آثارهم النثرية واكملها كتابات هيرودوتس الرحالة الشهير المتوفى سنة ٤٠٦ ق م وهي بالنظر الى نثر اليونان مثل الياذة هوميروس بالنظر الى شعرهم

على ان هيرودوتس ليس اول من كتب النثر المرسل عندهم فقد ظهر قبله جماعة من العلماء دونوا به آراءهم في الفلسفة او الميثولوجيا او التاريخ او غيرهما من العلوم النثرية . واما هيرودتس فتغلب نثره على نثرهم لحسن اسلوبه واهمية المواضيع التي كتب فيها . فقد كتب رحلته قبل سنة ٤٣١ ه ق م وهي التاريخ المعروف باسمه بيَّن فيه اسباب الحروب التي انتشبت بين الفرس واليونان في القرن السادس واول الخامس قبل الميلاد . ولا يزال كتابه فريدًا في بابه الى اليوم ولذلك لقبوه بابي التاريخ . وبعده بقليل انتشبت بين اهل اثينا واهل المورة حربٌ اهلية هائلة هي الحرب الموريَّة او البيلوبونيسية من سنة ٤٣١ —

٤٠٤ ق م فأرخها ثوسيدس وكان معاصراً لهيرودوتس واصغر منه . ثم ظهر جماعة من كتاب التاريخ عندهم كخينوفون وغيره . ثم اشتغل اليونان بالخطابة ونبغ منهم ديموستنيس واشينس وهبريدس وغيرهم واشتغل آخرون في وضع الشرائع مثل صولون وآخرون بوضع قواعد اللغة او غيرها مما لا يهمنا البحث فيه هنا

العلم والفلسفة

وهما من نتاج الدور الآتي فقد ظل اليونانيون على نحو ما تقدم من الآداب الشعرية والتاريخية والادبية حتى تنبهت اذهانهم الى البحث في الخليقة والعلل والمعلولات بنهضة حدثت على اثر الحرب المورية المذكورة . فانها توالت ٢٧ سنة وفي نهايتها دخلت اثينا في حوزة اللقديمونيين واصبح الاثينيون بعد العز اذلاء فساقتهم العبرة والمذلة الى النظر في الوجود فنهضوا نهضة فلسفية زعيمها وواضع اساسها سقراط . والحروب يغلب ان يعقبها نهضة ادبية او علمية او سياسية على ما قررناه في غير هذا المكان

على ان اليونان تنبهوا الى النظر في الموجودات الطبيعية واحوالها قبل تلك النهضة على اثر احتكاك الافكار في اثناء حروبهم مع الفرس . وانما كان نظرهم فيها قاصراً على تفهم نواميسها على نحو ما نعبر عنه اليوم بالطبيعيات . واقدم من وصل خبره الينا من الفلاسفة الطبيعيين طاليس المليطي ولد في مليطة من بلاد يونيا سنة ٦٤٠ قبل الميلاد وقد اخذ علمه من فينيقية ومصر وكريت ويونيا وغلب عليه النظر في النجوم والهندسة وله آراء في الوجود والموجودات واصل العناصر . ووضع كثيراً من القواعد الرياضية لاستخراج الكسوف والخسوف وقياس الاجسام المرتفعة بالنظر الى ظلها . ونبغ بعده جماعة من تلامذته وتلامذتهم . ومنهم ارخيلاوس وهو الذي نقل الطبيعيات من يونيا الى اثينا وهناك تتلمذ له سقراط المولود سنة ٤٦٩ ق م وفي ايام هذا الفيلسوف حدثت الحرب المورية فامتزجت الطباع وتحاكّت الافكار فهاجت القرائح وثارت العواطف واصبح الناس متضاغنين متنافسين وربما كان للرجل عدوٌّ من قبيلته واهله

فلما اصيبت اثينا بالذل بعد تلك العظمة اصاب اهلها اضطراب وانكسار — والانسان اذا اصيب بنكبة لاحيلة له في دفعها اشتغل عنها بالتعليلات الفلسفية عن الوجود واصله ليخفف وطأة تلك المصيبة عليه . خصوصاً في مثل ما اصيبت به اثينا بعد عزها ورفعة شانها واصبح اهلها بعد سقوطها يتلفتون الى الوراء آسفين وينظرون الى الامام خائفين وقد ذهبت اسباب مفاخرتهم القديمة ولم تنتظم حكومتهم الجديدة . فتنبهت اذهانهم وانصرفت

في مغارة بقيت فيها ١٨٧ سنة • فلما استخرجوها في رأس المئة الاولى قبل الميلاد وجدوا بعضها قد تهرّأ بالعفونة والرطوبة والبعض الآخر اكله الدود والعث فباعوها صفقة واحدة الى كتبي اسمه ابليكون فارجعها الى اثينا • فلما استولى سولا الروماني على أثينا سنة ٨٦ ق م كانت مكتبة هذا الرجل في جملة غنائم الرومانيين فنقلوها الى رومية فتوصل اليها بعض اليونانيين المقيمين هناك فاشتغلوا في نسخها وضبطها • واول المشتغلين في ذلك تيرانيون صاحب شيشرون • ثم تولى اندرونيكوس الرودسي تصحيحها وترميمها ثم تناقلها الناس • فكل ما وصل الى العالم من مؤلفات ارسطو انما هو من تصحيح اندرونيكوس المذكور في أواسط القرن الاول قبل الميلاد

على انها ما لبثت ان ظهرت في العالم حتى تناولها الناس واشتغلوا فيها بين درس ونقل وترجمة وتلخيص وشرح ونقد • بدأ بذلك اليونان انفسهم ثم الرومان فالفرس فالعرب فاهل الاجيال الوسطى في اوربا فأهل اوائل التمدن الحديث وخصوصاً فلاسفة القرون الاولى لهذه النهضة • وكانت مدرسة الاسكندرية الآتي ذكرها تعلم الفلسفة بكتب ينسبونها الى ارسطو وكتبه لا تزال مدفونة • فلما فتح الرومان الاسكندرية وكانوا قد وقفوا على نسخ اندرونيكوس فاعتمدوا عليها دون سواها وأصبحت عمدة التعليم في رومية والاسكندرية على السواء • حتى ظهرت النصرانية فبطل تعليمها في رومية وظل في الاسكندرية • ولما سعى قياصرة الروم في ازالة الوثنية من مملكتهم بحثوا عن العلوم الوثنية وابطلوها ومن جملتها كتب ارسطو الا بعض كتبه المنطقية • على انهم كانوا يعلمونها سرّاً حتى جاء الاسلام وانتقل التعليم من الاسكندرية الى انطاكية على يد عمر بن عبد العزيز • فانتقلت الى هناك وظل تعليمها محظوراً لا يتعلمها الا بعض اليهود او الحرانيين لتقوى بها حجتهم على النصرانية

الطب والنجوم

والطب أيضاً من ثمار تلك النهضة على أثر الحرب الموريّة وكان اليونان قبل ذلك يعالجون مرضاهم بالكهانة وينسبون الامراض الى اعمال الشياطين والعلاجات الى اعمال الآلهة • وكان الفلاسفة يتكلمون في الطب باعتبار انه فرع من العلم الطبيعي ولم يستقلّ احد منهم بالبحث فيه • وأول من رتب الطب وبوبه وبناه على اسس صحيحة ابقراط المتوفى سنة ٣٥٧ ق م ولذلك سموه أبو الطب وهو من نتاج الحرب المورية فقد نشأ في اثنائها ونبغ بعد انقضائها وسافر الى سوريا ولعله اطلع على طب البابليين والمصريين فأضافهما

الى طب اليونان والف فيه الكتب • وأساس معالجته الاعتماد على الطبيعة وكان يفصد ويحجم ويكوي ويحقن ويشخص الامراض بالسماعة ويصف المسهلات النباتية والمعدنية • وله كتب في الطب كثيرة ذكروا منها ٨٧ كتاباً ولم يثبت له منها الا نحو العشرين وسيأتي ذكرها في ما نقله المسلمون من كتب الطب الى العربية • وما زالت كتب ابقراط معوَّل الاطباء الى العصر الجديد وفيهم من شرحها او فسرها او ترجمها او عاق عليها • وممن اشتغل من اليونانيين في ترقية العلوم الطبية بعد ابقراط ارسطو وغيره من الفلاسفة العظام فلما انشئت مدرسة الاسكندرية على عهد البطالسة كان للطب شأن كبير فيها كما سيجيء

والنجوم او علم الفلك قديم عند سائر الامم كما قد رأيت في كلامنا عن علوم العرب قبل الاسلام • أخذ اليونان مبادىء هذا العلم عمن سبقهم من أمم التمدن القديم على يد الفينيقيين وتوسعوا فيه من عند انفسهم • وكان النظر فيه من جملة ابحاث الفلاسفة واقدمهم طاليس المتقدم ذكره وقلّ من جاء بعده من فلاسفة اليونانيين ولم يتعرض لهذا الفن وأشهرهم فيه انكسيمندر وانكسيمينس وانكساغوراس • وكان للقسم الايطالي من بلاد اليونان عناية كبرى في النجوم ومقدام فلاسفتهم فيه فيثاغورس الشهير المتوفى سنة ٥٠٠ ق م أخذ بعض هذا العلم من مصر وتوسع فيه وتبعه في ذلك كثيرون • ويكاد لايخلو فيلسوف من فلاسفة اليونان من النظر في النجوم واحكامها مما يطول شرحه • على ان هذا العلم بلغ قمة مجده في مدرسة الاسكندرية • ويقال نحو ذلك في سائر العلوم الرياضية كالحساب والهندسة فقد اشتغل فيها الفلاسفة لكنها لم تنضج الاَّ في مدرسة الاسكندرية على يد اوقليدس

٣ — الدور الاسكندري

مدرسة الاسكندرية ومكتبتها

لم يكد اليونان يتخلصون من مصائبهم بالحروب المورية حتى انقضَّ عليهم الرجل المكدوني العظيم (الاسكندر) فغلبهم على ما في ايديهم ثم حمل بهم على العالم المتمدن في ذلك العهد ففتح مصر وبنى فيها الاسكندرية واكتسح الشام والعراق وفارس الى بلاد الهند • فأصاب العالم بتلك الحروب هزَّة انتفضت لها اعصابه واختلطت عناصره فالتقى اليوناني بالفينيقي والمصري والفارسي والكلداني والهندي وتحاكت الافكار وتلامست المطامع وتقاطعت المصالح وكان من اقل نتائجها : اولاً نشر علوم اليونان وآدابهم وتمدنهم

في امم الارض • ثانياً نقل علوم الفرس والكلدان وغيرهم الى بلاد اليونان او مصر • فقد ذكروا ان الاسكندر لما فتح اصطخر عاصمة الفرس اخرب ابنيتها وشوه نقوشها ونسخ ما كان مجموعاً من ذلك في الدواوين والخزائن هناك ونقله الى اللسان اليوناني والقبطي • وبعد فراغه من نسخ حاجته منه احرق ما كان مكتوباً بالفارسية • وأخذ ما كان يحتاج اليه من علم النجوم والطب والطبائع وبعث به وبسائر ما أصاب من العلوم والاموال والخزائن والعلماء الى بلاد مصر [1]

ولما مات الاسكندر سنة ٣٢٣ ق م انقسمت مملكته بين قواده فانتقل علماء اليونان من بلادهم للاقامة في مستعمراتهم الجديدة في مصر والشام والعراق فابتنوا المدارس في الاسكندرية وانطاكية وبيروت وغيرها وكان حظ البطالسة في الاسكندرية اوفر من حظوظ سائر الدول اليونانية في الشرق في ترقية شؤون العلم والفلسفة • وكان سوتر اول البطالسة عادلاً محباً للعلم (حكم من سنة ٣٠٦ — ٢٨٥ ق م) فتقاطر اليه العلماء والفلاسفة من بلاد اليونان على اختلاف القبائل والاماكن فاكرم وفادتهم ونشطهم في مواصلة البحث والدرس واطلق لهم الاموال فزادوا احتراماً له ورغبة في العلم

وكان في جملة المقربين اليه خطيبٌ اثيني اسمه ديمتريوس فاليروس أشار عليه بانشاء مكتبة يجمع اليها الكتب من انحاء العالم فأجابه الى ذلك وهي مكتبة الاسكندرية الشهيرة التي بحثنا عن اسباب حريقها في ما تقدم من هذا الكتاب • والظاهر ان الكتب التي بعثها الاسكندر من اصطخر وغيرها وضعوها في هذه المكتبة • وديمتريوس هذا هو الذي سماه ابن القفطي « زميرة » وسبب الفرق تصحيف في النسخ • وباشارته ايضاً انشأ سوتر المتحف او النادي (Museum) على شكل مدارس اوربا الجامعة يجتمع فيه العلماء والادباء والفلاسفة للدرس والبحث وهو مدرسة الاسكندرية الشهيرة

وكان البطالسة خلفاء سوتر يقتفون اثره في تنشيط العلم واكثرهم العلماء وخصوصاً فيلاذلفوس (من سنة ٢٨٥ — ٢٤٧ ق م) فانه اضاف الى المكتبة مالم يكن فيها من كتب العلم اليونانية وغير اليونانية فابتاع الكتب التي كانت عند ارسطو وجمع كثيرًا من مؤلفات اليهود والمصريين القدماء حتى لا ينقص هذه المكتبة علم ولا خبر وخلفه بطليموس اورجينس (سنة ٢٤٧ — ٢٢٢ ق م) فاضاف الى المكتبة كثيرًا من كتب الادب والشعر والتمثيل مما وجدوه في خزائن اثينا وفرض على كل من يقيم في الاسكندرية او يمرّ

(١) الفهرست ٢٣٩

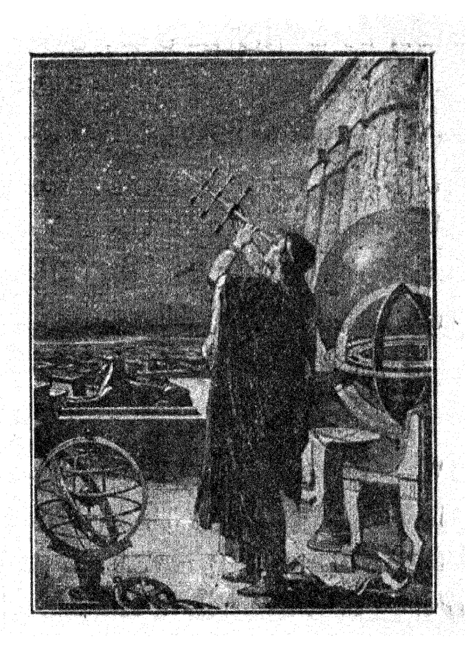
بها من رجال العلم ان يقدم للمكتبة نسخة من كل ما يملكه من الكتب . فزهت الاسكندرية بالعلم ونبغ فيها العلماء في كل موضوع حتى فاقت كل ما تقدمها او عاصرها من مدن العالم القديم وما زالت رافلة بالعلم والعلماء الى ظهور الاسلام اي عبارة عن نيف وتسعماية سنة تقسم الى مدتين الاولى يونانية تبتدئ بولاية سوتر وتنتهي بدخول مصر في حوزة الرومان سنة ٣٠ قبل الميلاد والثانية رومانية تبتدئ من هذه السنة وتنتهي سنة ٦٤٠ م لما فتحها ابن العاص . وكان غرضها في المدة الاولى علمياً ادبياً وغايتها ترقية العلوم اليونانية وتوسيع نطاقها وكانت المرجع العلمي الوحيد في تلك العلوم الى اواخر القرن الثاني للميلاد فاخذت تتقهقر لاسباب كثيرة اهمها فساد الحكومة واعوجاج الاحكام وظهور مدارس اخرى من نوعها في سوريا ورودس وغيرهما فتحولت همم رجال العلم الى بلاد العدل والحرية . فلما دخلت الاسكندرية في حوزة الرومان اتسعت شهرتها باتساع دولتهم ولكن رغبة رجال العلم تحولت عنها الى رومية . واتفق ظهور الديانة المسيحية واشتغال ذوي القرائح في اثباتها او نفيها . ونظراً لتوسط الاسكندرية وقربها من ميدان الجدال اتخذت مدرستها خطة فلسفية دينية — فللمدرسة الاسكندرية بهذا الاعتبار عصران الأول يوناني علمي ادبي والثاني روماني فلسفي ديني

العصر الاسكندري اليوناني من سنة ٣٠٦ — ٣٠ ق م

زهت الاسكندرية في عصرها الاول بمن انتقل اليها من جالية اليونان على اثر ما اصاب بلادهم من الذل بعد ذهاب استقلالهم وحملوا معهم كتب العلم والفلسفة والطب والشعر والادب واللغة والتاريخ غير ما جمعه البطالسة من الكتب الاخرى كما تقدم . فاقام اليونانيون في الاسكندرية على الرحب والسعة في ظل حكومة يونانية وعادات وآداب يونانية . لكنهم كانوا قد اضاعوا انفة الاستقلال وروح الحرية لتقيد عواطفهم وشعائرهم بالحكم المطلق الذي لا يقترب منه الاّ المتزلفون ففسدت القرائح وضاقت العقول فاشتغل يونانيو الاسكندرية في الشعر والخطابة والتاريخ والميثولوجيا لكنهم لم يجيدوا بشيء منها مثل اجادتهم في اثينا والمورة وساقس وغيرها ناهيك بانصراف الاذهان الى العلوم الطبيعية والرياضيات وقد كان لهذه العلوم حظ وافر في تلك المدرسة فنبغ فيها جماعة من علماء الفلك والطب والهندسة والجغرافية وان كانت مؤلفاتهم في الغالب مبنية على مؤلفات القدماء او شروحاً لها

الرياضيات — نبغ اقليدس الصوري المولود سنة ٣٢٣ ق م وقد طلب العلم في

بلاد اليونان واتقن الرياضيات بنوع خاص وكانت الاسكندرية قد دخلت في حكم البطالسة وافضت الحكومة الى بطليموس فيلاذلفوس فاستقدمه اليه في جملة من استقدمهم من رجال العلم ووسع له الرزق وامره بتدريس الهندسة وكان فيلاذلفوس أَول من تلقاها عنه وهناك الف كتابه المعروف باصول اقليدس ولا يزال عليه المعوَّل في هذا الفن الى اليوم وقد نقل الى كل لغات العالم المتمدن



فلكيٌّ يوناني يرصد الكواكب في مرصد الاسكندرية ·

ونبغ من الرياضيين بعد اقليدس ارخميدس او ارشميدس الصقلي المولود سنة ٢٨٧ قبل الميلاد وجاء مدرسة الاسكندرية تلقى فيها الرياضيات وعاد الى بلاده وكان ملكها يحترمه فقربه اليه وكان في حرب ضد الرومان فاعانه بعلمه ما لم يستطعه القواد بسيوفهم ولكنه ذهب ضحية تلك المساعي فقتله بعض جنود الرومان في اثناء الفتح وهو لا يعرفه · ولارخميدس اكتشافات مهمة في النواميس الطبيعية المتعلقة بالهندسة او الحساب وذكروا له من الكتب كتاباً في الكرة والاسطوانة وآخر في تربيع الدائرة وتسبيعها والدوائر المماسة

والمثلثات والخطوط المتوازية والمأخوذات والمفروضات[١]

ثم نبغ ابولونيوس المولود سنة ٢٥٠ ق م صاحب الابحاث في قطع المخروط وهيبارخوس المتوفى سنة ١٢٥ ق م مؤسس الراي الفلكي للسموات واشتغلوا في اثناء ذلك بالجغرافية الرياضية وأول من كتب فيها اراتستين المتوفى سنة ١٩٥ ق م وهو اول من وضع جداول اسماء الملوك الفراعنة واول من قاس الارض

ثم ظهر بطليموس القلوذي الشهير في اواسط القرن الثاني بعد الميلاد فأخذ راي هيبارخوس وبنى عليه كتاب المجسطي الذي كان عليه المعوّل في مدارس العالم الى عهد غير بعيد . ومن اقوالهم « لا يعرف كتاب أُلّف في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم واحاط باجزائه غير ثلاثة كتب المجسطي في علم هيأة الفلك وحركات النجوم وكتاب ارسطوطاليس في صناعة المنطق وكتاب سيبويه في النحو »[٢] ومن مؤلفات بطليموس المذكور كتاب الاربعة وكتاب الحرب والقتال وكتاب الجغرافية في المعمور وغيرها

واشتغل علماء الاسكندرية خصوصاً برصد الافلاك واستخراج الازياج وكان عندهم مرصد يرصدون منه الاجرام وظل هو المرصد الوحيد في العالم الى ايام الاسلام

الطب — اما الطب فقد كان يعلَّم في مدرسة برغامس فلما زهت مدرسة الاسكندرية توجهت الانظار اليها وكثر طلبة الطب فيها وكانت عمدة التدريس فيها على مؤلفات ابقراط لكنهم اشتغلوا خصوصاً في فن التشريح حتى فاقوا فيه سائر مدارس الطب في ذلك العهد واشتهر فيها اثناء العصر اليوناني طبيبان لكل منهما مذهب في الطب والعلاج وهما هيروفيلوس واراسستراتس الاول من خلكيدونة وتلقى العلم في مدارس اليونان واشتغل خصوصاً في التشريح والف كتباً وافق ابقراط في اكثرها ويعدونه في المنزلة الاولى بعده . اما الثاني فكان معاصراً لهيروفيلوس وهو من انطاكية وجاء الاسكندرية للتبحر في علم التشريح وله مؤلفات ذهب فيها مذهباً غير مذهب هيروفيلوس فكان لكل من هذين الطبيبين تلامذة يؤيدون رايه واصحاب هيروفيلوس ينصرون ابقراط والآخرون ضده . وظل المذهبان الى القرن الثاني بعد الميلاد وقد مهّد الارسستراتيون الطريق للتدجيل الذي شاع بعدئذٍ في الاجيال المظلمة

انقضى عصر مدرسة الاسكندرية اليوناني وبعض العصر الروماني والاطباء فئتان لهما مذهبان متناقضان حتى ظهر جالينوس القلوذي المولود في برغاموس سنة ١٣٠ م تلقى اصول

---

(١) الفهرست ٢٦٦ (٢) تراجم الحكماء (خط)

العلم على ابيه ثم شرع في درس الطب هناك . وسافر سنة ١٥٠ م الى ازمير ثم قدم الى الاسكندرية لاتقان فن التشريح وطاف بلاداً اخرى في طلب العلم حتى عاد سنة ١٥٨ م الى برغاموس وسافر سنة ١٦٤ الى رومية وهي آهلة بالعلماء واتفق له معالجة بعض كبار القوم وشفاؤهم على يديه فذاع صيته وسموه «الخطيب العجيب» فحسده زملاؤه فرجع الى بلده سنة ١٦٨ ثم توفق في الرجوع الى رومية وخدم بعض امبراطوريها حتى توفي سنة ٢٠٠ م وله مؤلفات عديدة في الطب اشهرها يعرف بالكتب الستة عشر وبعضها يعرف باسماء خاصة حسب مواضيعها وسياتي ذكرها في جملة ما نقل من كتب الطب الى العربية — وجالينوس ليس من اهل العصر الاسكندري اليوناني الذي نحن في صدده وانما ذكرناه استيفاء للكلام في تاريخ الطب

العصر الاسكندري الروماني من سنة ٣٠ ق م — ٦٤٠ م

هو العصر الاسكندري الثاني ويبتدىء بالحقيقة قبل الفتح الروماني بنصف قرن اي منذ دخول اثينا في حوزة الرومان في القرن الاول قبل الميلاد فان قائدهم سولا بعد ان فتح اثينا حمل منها الى رومية احمالاً من كتب العلم والفلسفة كما تقدم فانتقل العلم من ذلك الحين من اثينا الى رومية ولما أسس اوغسطس قيصر المكتبة الشهيرة في رومية قسمها الى قسمين لاتيني ويوناني . ولم ترث رومية كتب اثينا فقط ولكنها ورثت علماءها وفلاسفتها أيضاً فاصبح اليونان انفسهم اذا اردوا التبحر في العلم رحلوا الى رومية . وليس من شأننا الآن البحث في آداب الرومان

فمدرسة الاسكندرية أخذت قبل دخولها في حوزة الرومان في الانحطاط فلما صارت رومانيــة زادت ضعفاً . وكانت علومها قد تغيرت وجهتها وانحصرت في الفلسفة لان الاسكندرية مابرحت منذ تأسيسها وفيها جماعة من اليهود نزحوا اليها كعادتهم في الرحيل للارتزاق او فراراً من الاضطهاد فآنسوا في الاسكندرية ترحاباً وراحة فتكاثروا . فترتب على اختلاطهم باليونان وتمـازج الاذواق والابحاث تغير مهم في الفلسفة والدين لان اليهود اهل توحيد ووحي وتقليد واليونان اهل فلسفة ومنطق وخرافات دينية فأدى التمـازج الى التقارب وزاد ذلك بظهور النصرانية . ولما تأيدت النصرانية واعتنقها اليونان اخذوا في تطبيق فلسفتهم على الدين فتولد من ذلك ما يسمونه الفلسفة الافلاطونية الجديدة (Neo-Platonic) والفلسفة الفيثاغورية الجديدة (Neo-Pythagoric) وجملة القول ان العصر الاسكندري الثاني قلما أفاد العلم لان ابحاثه كانت غايتها فلسفية دينية

ومما اختصت مدرسة الاسكندرية في ترقيته من العلوم: أولاً التشريح لان المصريين كانوا يفتحون الجثث لاجل تحنيطها فسهل عليهم درس فن التشريح بها • ثانياً علم الكيمياء لانه كان في مصر قبل دخولها في سلطة اليونان ولما انشئت مدرسة الاسكندرية اشتغل علماؤها في درس هذا العلم وجمعوا ما كان عند الامتين في علم واحد

وظلت مدرسة الاسكندرية مركز التدريس في الشرق الى اواخر القرن الاول للهجرة حتى نقله عمر بن عبد العزيز الى مدرسة انطاكية فمدرسة حران وغيرها من مدارس تلك الايام (١)

العصر البيزنتي من سنة ٥٢٩ — ١٤٥٣ م

سمي هذا العصر بالبيزنتي نسبة الى بيزانتيوم (القسطنطينية) لان أداب اللغة اليونانية هناك كان لها فيه شأن خاص فلا بأس من الاشارة الى ما يهمنا منه • ويقال بالاجمال ان الآداب اليونانية قلما تقدمت في تلك العاصمة مع ان العلم كان في خزائنها كما كان في خزائن الاسكندرية وخصوصاً بعد موت يوستنيان • فلما قامت الخصومة على الايقونات كان من جملة نتائجها اعدام الكتب واهمال العلم • واقتصر النوابغ فيها على ما لا يحتاج الى مواهب خصوصية او الى بحث او نظر فكانوا اذا نشأ احد القياصرة وأراد التشبه بمنشطي العلم القدماء رغَّب الناس في المطالعة والتأليف • وتأليفهم عبارة عن تلخيص القديم اوشرحه اوجمعه على شكل الموسوعات وقد يفعل القيصر نفسه ذلك • فان قسطنطين السابع (٩٠٥ — ٩٥٩ م) كان محباً للعلم مشتغلاً في التأليف فألف كتباً متسلسلة في تاريخ الحكومة ونظامها • وكذلك كانوا يفعلون في سائر المواضيع الادبية كالتاريخ والشعر واللغة بدون نقد ولا نظر كما فعل مؤلفو العرب بعد ذلك في مثل هذه الحال • اما الفلسفة فتحولت عندهم الى اللاهوت لان علماء النصرانية استخدموا الادلة الفلسفية لاثبات بعض العقائد او الاراء الدينية في مجادلاتهم او في مواعظهم على نحو ماقدمناه عن الفلسفة الافلاطونية الجديدة • وممن اشتهر في هذا الشأن يوحنا الدمشقي (٧٠٨ — ٧٤١ م) صاحب المؤلفات الكثيرة في الدين والفلسفة وغيره مما لا حاجة بنا الى ذكره

(١) طبقات الاطباء ١١٦ ج ١

آداب اللغة الفارسية قبل الاسلام

الفرس من الشعوب الآرية اخوان الهنود واليونان وهم أمة قديمة حاربت اليونان قبل المسيح ببضعة قرون فجردت على بلادهم جيشاً قد يمتنع على اعظم دول الارض اليوم حشده ونقله بمهماته ومؤونته من أواسط اسيا الى البحر الابيض فكيف منذ بضعة وعشرين قرناً . فالدولة التي هذا مبلغ قوتها لاتخلو من أدب وعلم والفرس اهل ذكاء وتعقل وفيهم استعداد فطري لاسباب التمدن فلا بد من اجادتهم في نظم الشعر على نحو ما فعل اخوانهم الهنود في المهابهاراتة ونحوها وان كان ما وصل منهُ الينا قليلاً . ناهيك بالعلوم القديمة التي هي من قبيل الطبيعيات والرياضيات كالنجوم والانواء فقد احرزوا شيئاً منها وخصوصاً لانهم ورثوا البابليين والاشوريين واحتكوا باليونان وهم في أبان تمدنهم واختلطوا بجيرانهم الهنود . وكانوا يعرفون الكتابة وينقشونها على الاحجار باللغة الفهلوية ويؤيد ذلك ماجاء في كتب الاخبار عن فتوح الاسكندر بلاد فارس وما عثر عليه في عاصمتهم اصطخر من خزائن الكتب فاستنسخها واحرقها كما تقدم وفيها ما كان قد جمعه الفرس من علوم الهند والصين الى تلك الايام

وليس ذلك كل ماكان عند الفرس من كتب العلم فقد عثروا في أوائل القرن الرابع للهجرة على مخابىء في رستاق جي بفارس هي عبارة عن ازج معقود بالحجارة فوجدوا هناك كتباً كثيرة مكتوبة في لحاء التوز وفيها أصناف من علوم الاوائل باللغة الفارسية القديمة (الفهلوية) وقد تبين من قراءتها « ان طهمورث الملك المحب للعلوم والعلماء خاف الامطار على كتب العلم فأودعها ذلك الرستاق » وهي كتب نفيسة في علم النجوم وعلل حركاتها مما كان عند الفرس والروم والكلدان [1] . وعثروا نحو ذلك الزمن أيضاً على ازج آخر انهار فانكشف عن كتب كثيرة لم يهتد احد الى قراءتها . والظاهر ان عادة حبس الكتب في المغر او نحوها كانت شائعة في ذلك الزمان - قال ابن النديم « والذي رأيته انا بالمشاهدة ان ابا الفضل ابن العميد انفذ الى هنا في سنة نيف واربعين (وثلاثمائة) كتباً متقطعة اصيبت باصفهان في سور المدينة في صناديق وكانت في اليونانية فاستخرجها اهل هذا الشأن مثل يوحنا وغيره وكانت اسماء الجيش ومبلغ ارزاقهم ... الخ »

على ان الشائع من علوم الفرس لم يكن يتجاوز بعض الاشعار والاخبار وكتب

(١) الفهرست ٢٤٠

العقائد والاديان الى ايام سابور بن ازدشير من الدولة الساسانية في اواسط القرن الثالث للميلاد . وفي ايامه ظهرت طائفة المانوية وانتشبت بين سابور والروم حروب انتهت بنصرته وقد حمل معه عدداً كبيراً من اسراهم الى بلاده فأنشأ لهم في الاهواز مدينة سماها جنديسابور نسبة اليه واكرم وفادتهم فحببوا اليه العلم فعمل على استرجاع علوم الفرس من اليونان او الاستعاضة بمثلها • فبعث الى بلاد اليونان استجلب كتب الفلسفة وأمر بنقلها الى الفارسية [١] واختزنها في مدينته واخذ الناس في نسخها وتدارسها

فلما تولى كسرى انوشروان العادل (من سنة ٥٣١—٥٧٨ م) فُتح للفرس موردٌ جديد للعلم والفلسفة بما كان من اضطهاد يوستنيان قيصر الروم للفلاسفة الوثنيين على اثر اقفاله الهياكل والمدارس الوثنية • وكانت الفلسفة الافلاطونية الجديدة قد نضجت ففرَّ بعض اصحابها من وجه الاضطهاد وتفرقوا في العالم وجاء منهم سبعة الى انوشروان فاكرم وفادتهم وامرهم بتأليف كتب الفلسفة او نقلها الى الفارسية فنقلوا المنطق والطب [٢] وألفوا فيهما الكتب فطالعها هو ورغب الناس فيها • وعقد المجالس للبحث والمناظرة كما فعل المأمون بعده بقرنين وبعض القرن حتى خيل لليونان الذين جالسوا انوشروان انه من تلامذة افلاطون • والمظنون ان تلك الفلسفة كانت أساساً لتعاليم الصوفية التي نشأت بعد ذلك

ولم يقتصر انوشروان على نقل علوم اليونان الى لسانه ولكنه نقل علوم الهنود أيضاً من السنسكريتية الى الفارسية [٣] وانشأ في جنديسابور مارستاناً (مستشفى) لمعالجة المرضى وتعليم صناعة الطب استقدم اليه الاطباء من الهند وبلاد اليونان وكانوا يعلمون فيه الطبين الهندي والابقراطي فجمع بين الحسنيين • وبلغ هذا المارستان من الشهرة مالم يسبق له مثيل وكان له شأن كبير بعد الاسلام كما سيأتي

وجملة القول ان الفرس اشتغلوا قبل الاسلام في الفلسفة والطب وتثقفت عقولهم وذاع صيتهم وكان لهم اطلاع خاص في علم النجوم واحكام الافلاك مما توارثوه عن اسلافهم او نقلوه عن جيرانهم • وقد زها العلم عندهم في ايام انوشروان العادل — والعلم لا يزهو الاَّ في ظل العدل والحرية

(١) ابو الفداء ٥٠ ج ١ (٢) الفرست ٢٤٢

(٣) E. Browne's Literary History of Persia 167

آداب اللغة السريانية قبل الاسلام

السريان بقايا الكلدان او البابليين القدماء الذين انشأوا تمدناً ووضعوا علوماً هامة ورصدوا الكواكب واخترعوا المزاول ووضعوا اسس الطب قبل الميلاد بقرون . ثم دالت دولتهم واستولى الفرس على بلادهم فذهب علمهم بذهاب حريتهم حتى اذا تألفت النصرانية وانتشر دعاتها في البلاد وافترقت الى طوائف ومذاهب كان للسريان حظ كبير من كل ذلك وكان لهم تأثير ذو شأن في تاريخ النصرانية

وانما يهمنا في هذا المقام ماكان عندهم من العلم والفلسفة • وهم في ذلك تلامذة اليونان لانهم تعلموا فلسفتهم وطبهم وسائر علومهم كما تعلمها الرومان قبلهم واقتبسها الفرس معهم وكما تعلمها المسلمون بعدهم • والسريان أهل ذكاء ونشاط فكانوا كلما اطمأنت خواطرهم من مظالم الحكام وتشويش الفاتحين انصرفوا الى الاشتغال في العلم فانشأوا المدارس للاهوت والفلسفة واللغة ونقلوا علوم اليونان الى لسانهم وشرحوا بعضها ولخصوا بعضها • ومنهم خرج اكثر الذين ترجموا العلم للعباسيين واكثرهم من النساطرة كما سيجيء • ونقتصر هنا على ذكر اشتغالهم في العلم لانفسهم

كان للسريان في مابين النهرين نحو خمسين مدرسة تعلم فيها العلوم بالسريانية واليونانية اشهرها مدرسة الرها وفيها ابتدأ السريان يشتغلون بفلسفة ارسطو في القرن الخامس للميلاد • وبعد ان تعلموها اخذوا في نقلها الى لسانهم فنقلوا المنطق في اواسط القرن المذكور • ثم اتمَّ دراسة المنطق سرجيس الرأس عيني الطبيب المشهور وفي المتحف البريطاني بلندرا نسخ خطيه من ترجمته الايساغوجي الى السريانية وكذلك مقولات ارسطو لفرفوريوس وكتاب النفس وغيرها وقد نُشر بعضها من عهد قريب

وفي اوائل القرن السابع للميلاد اشتهرت مدرسة قنسرين على الفرات بتعليم فلسفة اليونان باللغة اليونانية وتخرج منها جماعة كبيرة من السريان وفي جملتهم الاسقف سويرس فقد انقطع فيها لدرس الفلسفة والرياضيات واللاهوت . ولما تمكن من تلك العلوم نقل بعضها الى السريانية ولا تزال بعض ترجماته في الفلسفة محفوظة في المتحف البريطاني . وقد اتمها بعده تلميذه يعقوب الرهاوي واضع علم النحو السرياني واثناسيوس بلد . ومن تلامذته اثناسيوس جورجيوس المعروف باسقف العرب (٦٨٦ م) فقد ترجم بعض كتب ارسطو . واشتغل جماعة آخرون في ترجمة كتب افلاطون وفيثاغورس وغيرها مما يطول شرحه .

واشتهر هناك مدارس اخرى كمدرسة نصيبين التي كان عدد تلامذتها نحو ثمانمائة وكانت تعلم فيها كل العلوم العقلية والنقلية

اما الطب فقد كان لهم فيه حظٌّ وافر على اثر انشاء مارستان جنديسابور واشتهر فيهم من اهل هذه الصناعة كثيرون منهم سرجيس الراس عيني المتقدم ذكره واتاتوس الامدي وسمعان الطيبوتي والاسقف غريغوريوس والبطريرك ثيودوسيوس وغيرهم من الاطباء الذين ادركوا الدولة العباسية وخدموها

وقد نقل اطباء السريان كثيرًا من كتب الطب من اليوناني الى السرياني حتى في اثناء اشتغالهم بنقلها الى العربية لانهم كانوا كثيرًا ما ينقلونها الى السريانية فقط او الى السريانية والعربية معًا · فسرجيس ترجم بعض كتب جالينوس الى السريانية ثم نقلها في الاسلام موسى بن خالد الى العربية(١) والطيبوتي الف في اواخر القرن السابع للميلاد كتابًا في الطب وترجم غير كتاب ناهيك بما كان من مؤلفات آل بختيشوع وآل حنين وغيرهما

ولهم في النجوم مؤلفات كثيرة لتسلسل هذا العلم فيهم عن آبائهم الكلدانيين فان البرديصاني له كتاب في النجوم لم يصل الينا غير خبره والف الرأس عيني في تأثير القمر وحركة الشمس · والف السبكتي في صور الابراج · وممن الف في النجوم أيضاً يعقوب الرهاوي المتقدم ذكرهُ وداود البيت رباني وموسى بن كيفا وعمونيل البرشهاري وغيرهم

واشتغل السريان أيضاً في الكيمياء والحساب والرياضيات فضلاً عن اشتغالهم في لغتهم وضبط قواعدها وحركاتها · والمشهور انهم اقتبسوا قواعد النحو عن اليونان وحركات احرفهم عبارة عن احرف يونانية صغيرة توضع فوق الحروف او تحتها · وقد استغرقوا في آداب اللغة اليونانية وشعرها فترجموا الالياذة والاوذيسية الى لسانهم · ترجمها ثيوفيل الرهاوي سنة ٨٧٥ م وقد ضاعت الترجمة ولم يبق منها الاّ بيتان · ويقال انهم تنبهوا لاستخدام الحروف اليونانية مكان الحركات لما اراد ناظم الاليـاذة ضبط الاعلام اليونانية فيها · وذلك غير النقط التي كانت تقوم عندهم مقام الحركات وقد تقدم ذكرها في كلامنـا عن حركات الخط العربي · ولا تزال الحركات عند السريان النقط والاحرف اليونانية الى اليوم الأُولى شائعة عند السريان الشرقيين والثانية عند الغربيين

---

(١) طبقات الاطباء ١٨٩ ج ١

آداب اللغة الهندية قبل الاسلام

الهنود امة قديمة والطبقة العليا منهم اخوان الفرس واليونان وقد نظموا الملاحم ودونوا الاخبار شعراً من قديم الزمان ولهم آداب خاصة وتواريخ خاصة تولدت عندهم بتوالي القرون كما يستدل من مراجعة تواريخهم ودرس احوالهم · حتى كثيراً ما كان ملوك الفرس يستعينون باطبائهم كما فعل انو شروان في مارستان جنديسابور وكما وقع للخلفاء العباسيين في اوائل نهضتهم فانهم كانوا يستقدمون الاطباء من الهند ويستشيرونهم في امراضهم بعد ان تفرغ حيل اطباء الفرس والسريان من معالجتهم · لان للطب الهندي طرقاً غير ما للطب اليوناني او الفارسي وقد اشتهر منهم عدة اطباء الفوا في الهندية ونقل المسلمون بعض كتبهم الى العربية كما سيجيء ومنهم كنكه وصنجهل وشاناق وغيرهم

وكانت لهم معرفة حسنة بالنجوم ومواقعها وابراجها ولها اسماء خاصة بلسانهم وكان لهم فيها ثلاثة مذاهب مذهب الارجهير ومذهب الاركند ومذهب ثالث يقال له بالسنسكريتية سدهنتا Siddhânta وهو عبارة عن زيج ذكروا فيه آراءهم في حركات الكواكب وهو الذي وصل الى العرب ونقلوه الى لسانهم وسموه السندهند · والهنود هم الذين اخترعوا الارقام وعنهم اخذها العرب ولهم طرق خاصة في الحساب اكتسبها العرب عنهم · وكان لهم معرفة بفن الموسيقى ولهم فيها كتب ترجم المسلمون بعضها الى العربية وسيأتي ذكرها

الخلاصة

هذه حال العلوم في المملكة الاسلامية لما عزم المسلمون على نقلها الى العربية وقد رأيت ان اكثرها يونانية الاصل وضعها اليونان في ايام وثنيتهم مع ما اقتبسوه من الامم التي تمدنت قبلهم · ثم تنوعت بالنصرانية وبانتقالها الى الفرس والسريان على مقتضيات آداب تلك الامم وعاداتهم

وكان العراق على الخصوص حافلاً بالعلماء وفيهم الاطباء والفلاسفة والمنجمون والحسَّاب وغيرهم ممن تجمعوا من بلاد فارس وما بين النهرين وفيهم السريان والفرس والروم والهنود · فلما اراد الخلفاء نقل تلك العلوم الى لسانهم وجدوا بين ظهرانيهم من يلبي الطلب ويفي بالغرض

العرب والعلوم الدخيلة

ما الذي حماهم على طلبها

قد رأيت في ما كتبناه عن « العرب والقرآن والاسلام » ان المسلمين كانوا يعتقدون في الصدر الاول « ان الاسلام يهدم ما كان قبله » وانه « لا ينبغي ان يتلى غير القرآن » وبناءً على ذلك هان عليهم احراق ما عثروا عليه من كتب اليونان والفرس في الاسكندرية وفارس . ثم اشتغلوا عن طلب تلك العلوم بما احتاجوا اليه في صدر الاسلام من اسباب انشاء الدولة فاصبحوا لا عناية لهم الاَّ بالقرآن واحكامه وما ترتب عليه من العلوم الاسلامية في الفقه واللغة والمغازي وسير الفتح ونحو ذلك . وكان اهل البلاد الاصليون من الروم والفرس يحببون الى الخلفاء الاشتغال بعلوم الاوائل وخصوصاً الطب والفلسفة وهم لا يصغون ولا يقبلون — يحكى ان ماسرجويه البصري من معاصري مروان بن الحكم كان عالماً في الطب وهو سرياني الجنس يهودي المذهب وكان في ايامه كتابٌ في الطب هو كناش (حاوي) من افضل الكنانيش الفه القس اهرون بن اعين في اللغة السريانية فنقله ماسرجويه الى العربية . فلما تولى عمر بن عبد العزيز وجد هذا الكتاب في خزائن الكتب في الشام فحرضه بعضهم على اخراجه الى المسلمين للانتفاع به . فاستخار الله في ذلك اربعين يوماً ثم اخرجه الى الناس وبثه في ايديهم[1] ويدلك ذلك على التردد الذي استولى على الخليفة في اخراج هذا الكتاب مع انه من كتب الطب وليس الفلسفة

ولما اتسع سلطان المسلمين وفرغوا من انشاء العلوم الاسلامية وقد تأيدت دولتهم وذهبت عنهم السذاجة والغفلة عن الصنائع واخذوا في اسباب الحضارة بالحظ الوافر وتفننوا بالصنائع والعلوم تشوقوا الى الاطلاع على العلوم الفلسفية بما سمعوه من الاساقفة والاقسة وهان عليهم ذلك بالاسناد الى الحديث النبوي القائل « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ممن سمعها ولا يبالي في اي وعاء خرجت » وقوله « خذوا الحكمة ولو من ألسنة المشركين »[2] و « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » و « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » و « اطلبوا العلم ولو بالصين »[3] على انهم لم يقدموا على طلبها دفعة واحدة وانما طلبوها تدريجاً تبعاً لمقتضيات الاحوال

---

(١) تاريخ الحكماء (خط) (٢) العقد الفريد ١٦٠ ج ١

(٣) كشف الظنون ٣٩ و ٤٣ ج ١

اول من اشتغل بها

اقدم من اشتغل من العرب بهذه العلوم النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي وهو ابن خالة النبي وكان قد رحل الى بلاد فارس وغيرها كأبيه الحارث الطبيب الشهير في عصر النبي واجتمع بالعلماء وعاشر الاحبار والرهبان وحصل من العلوم القديمة اشياء جليلة واطلع على علوم الفلسفة واجزاء الحكمة وتعلم من ابيه صناعة الطب . وكان يجاري ابا سفيان بعداوة النبي لانه ثقفي وكان بنو ثقيف حلفاء بني امية . فكان النضر كثير الاذى للنبي يتكلم فيه بأشياء كثيرة ليحط من قدره عند اهل مكة . ثم وقع النضر اسيرًا في واقعة بدر فامر النبي بقتله وذهب خبره[1]

على ان النضر اقتصر من تلك العلوم على المطالعة ولم ينقل منها شيئًا الى العربية . اما اول من اشتغل في نقلها فخالد بن يزيد الاموي المتوفى سنة ٨٥ هـ حفيد معاوية الاكبر ويسمونه حكيم آل مروان . وكان طامعًا في الخلافة بعد وفاة اخيه معاوية الثاني فغلبه على ذلك مروان بن الحكم وانتقلت به الخلافة من بيت ابي سفيان الى بيت مروان . فلما يئس خالد من الخلافة وهو ذو مطامع وذكاء انصرف ذهنه الى اكتساب العلى بالعلم . وكانت صناعة الكيمياء رائجة يومئذٍ في مدرسة الاسكندرية فاستقدم جماعة منهم راهب رومي اسمه مريانوس طلب اليه ان يعلمه صناعة الكيمياء فلما تعلمها امر بنقلها الى العربية . فنقلها له رجل اسمه اصطفان القديم[2] وهذا اول نقل في الاسلام من لغة الى لغة

وكان خالد راغبًا في علم النجوم ايضًا وانفق الاموال في طلبه واستحضار آلاته ولعلهم ترجموا له شيئًا منه لم يصلنا خبره . على ان بعض الذين اطلعوا على مكتبة القاهرة في اواسط القرن الرابع للهجرة شاهدوا فيها كرة من نحاس من عمل بطليموس وعليها مكتوب « حملت هذه الكرة من الامير خالد بن يزيد بن معاوية »[3]

ويلي نقل خالد للكيمياء نقل ماسرجويه اوماسرجيس المتقدم ذكره لكناش اهرون من السرياني الى العربي وهو ثلاثون مقالة زاد عليها ماسرجويه مقالتين[4]

---

(١) طبقات الاطباء ١١٣ ج ١ (٢) الفهرست ٢٤٣ و ٢٤٤

(٣) تراجم الحكماء (٤) طبقات الاطباء ١٠٩ ج ١

نقل العلوم في العصر العباسي

المنصور والنجوم والطب

اول الخلفاء العباسيين السفاح ولم يعن بشيء من العلم لقصر مدة حكمه . ثم افضت الخلافة الى اخيه المنصور (سنة ١٣٦ — ١٥٨ هـ) وكان شديداً حازماً كثرت في ايامه الفتوق فاضطر الى حروب كثيرة . وقد طالت مدة حكمه لكنه قضى معظمها في تثبيت دعائم دولته وبناء مدينته (بغداد)

النجـوم

وكان المنصور مع براعته في الفقه ميالاً الى التنجيم لا يكاد يعمل عملاً الاَّ استشار المنجمين فيه وهو اول خليفة قرب المنجمين وعمل باحكام النجوم[1] واقتدى به اكثر الذين خلفوه . وكانت صناعة النجوم رائجة عند الفرس ونبغ فيها جماعة تقربوا بها اليه اشهرهم نوبخت المنجم الفارسي كان مجوسياً واسلم على يده وكان بارعاً في اقترانات الكواكب وحوادثها وكان يصحب المنصور حيثما توجه . ولما ضعف عن خدمته قال له المنصور « احضر ولدك ليقوم مقامك » فاحضره وهو ابو سهل بن نوبخت[2] وتوالى آل نوبخت في خدمة العباسيين وترجموا لهم كتباً في الكواكب واحكامها وكانوا فضلاء ولهم رأي ومشاركة في علوم الاوائل

وخدم المنصور ايضاً في النجوم ابراهيم الفزاري المنجم وابنه محمد . وعلي بن عيسى الاسطرلابي المنجم[3] ونظراً لكلف المنصور بحركات الكواكب وحبه الاطلاع عليها قصده اصحابها من بلاد فارس والهند والروم . وفي جملتهم رجل من الهند قيم في حساب السدهنتا المتقدم ذكره جاءه سنة ١٥٦ هـ وعرض عليه كتاباً في النجوم مع تعاديل معمولة على مذاهب الهند . فامر المنصور ان ينقل هذا الكتاب الى العربية وان يؤلف فيه كتابٌ يتخذه العرب اصلاً في حركات الكواكب . فتولى ذلك محمد بن ابراهيم الفزاري وعمل منه كتاباً سماه المنجمون السندهند الكبير وظل اهل ذلك الزمان يعملون به الى ايام المأمون[4]

فاهتم الناس من ذلك الحين في علم النجوم ومتعلقاتها . وجرَّهم النظر في الافلاك الى

---

(١) المسعودي ٣٦٤ ج ٣ (٢) ابو الفرج ٢١٦ (٣) المسعودي ٢٦٤ ج ٣
(٤) تراجم الحكماء (خط)

الهندسة فكتب المنصور الى ملك الروم ان يبعث اليه بكتب التعاليم مترجمة · فبعث اليه بكتاب اقليدس وبعض كتب الطبيعيات [١] ولعل المجسطى من جملتها لانهُ في النجوم · والظاهر ان ترجمة هذه الكتب لم تكن مضبوطة لاننا رأينا اقليدس والمجسطى في جملة ما ترجم للرشيد والمأمون · وجملة القول ان رغبة المنصور في النجوم دعت الى ترجمة بعض كتب النجوم وما يتعلق بها

الطب

ومما اهتموا بنقلهِ من العلوم الطبيعية في ايام المنصور الطب · والسبب في ذلك ان المنصور اصابهُ في أواخر ايامه (سنة ١٤٨ هـ) مرض في معدته فانقطعت شهوته وكان الاطباء القائمون في خدمته يعالجونه ولا يجدي علاجهم نفعاً · فجمعهم يوماً وقال لهم « هل تعرفون من الاطباء في سائر المدن طبيباً ماهراً » فقالوا « ليس في وقتنا هذا احد يشبه جورجيس رئيس اطباء جنديسابور » · وهو جورجيس بن بختيشوع السرياني فقد كان ماهراً في الطب وله فيه مصنفات باللغة السريانية · وكان من الذكاء والفضل على جانب عظيم حتى أصبح رئيس اطباء مارستان جنديسابور اشهر مدارس الطب في تلك الايام · فبعث المنصور في طلبه على عجل فلما جاء الرسول الى جورجيس اراد استمهاله فهددهُ بالقتل اذا ابطأ · فعهد بامر المارستان الى ابنه بختيشوع واصطحب اثنين من تلامذته هما ابراهيم وعيسى بن شهلا وركب الى بغداد · فلما وصل استقدمه المنصور اليه فدخل ودعا له بالفارسية والعربية · وكان جورجيس ذا هيبة ووقار وفصاحة فوقع عند المنصور موقعاً حسناً فاجلسهُ قدامهُ وسألهُ بعض الاسئلة فاجابه عليها بسكون فازداد اعجاباً به فاخبره عن علته من ابتدائها · فقال له جورجيس « انا ادبرك كما تحب » فخلع عليه وانزله في قصر خاص وامر باكرامه · ورجع في الغد ونظر في قارورة الماء (زجاجة البول) ودبره تدبيراً لطيفاً فشفي ورجع الى مزاجه فازداد فرحه به ومنعه من الرجوع الى بلده · ومما زاده رغبة فيه انهُ رآه عفيفاً صادقاً في تدينه · وكان المنصور قد علم ان جورجيس خلَّف امرأته في جنديسابور وليس عنده في بغداد من يخدمه فارسل اليه ثلاث جوار روميات وثلاثة آلاف دينار فقبل الدنانير وردَّ الجواري فلما عاتبه المنصور في الغد اجابهُ « انا معشر النصارى لا نتزوج الاَّ بامرأة واحدة وما دامت المرأة حية لا نأخذ غيرها » [٢] فحسن موقع ذلك عند المنصور واطلق له الدخول الى حظاياه وحرمه ليطببهنَّ وتعلق به تعلقاً شديداً

---

(١) ابن خلدون ٤٠١ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٢٤ ج ١

وكان جورجيس محبًّا للتأليف كما رأيت وكان يعرف اللغة اليونانية فضلاً عن السريانية والفارسية والعربية . فلما رأى وثوق المنصور به نقل له كتباً طبية من اليونانية الى العربية غير ما ألفه في السريانية . اما التأليف في الطب فقد سبقه اليه اكثر الاطباء الذين خدموا المسلمين على عهد بني أمية . وكان الطبيب اذا خدمهم ألَّف لنفسه او لولده او لاحد تلامذته كتاباً او غير كتاب في الفن الذي يتعاطاه . والغالب ان يؤلفوا الكنانيش كالكناش الذي ألفه ثياذوق المتوفى سنة ٩٠ هـ طبيب الحجاج ألفه لابنه وألف لهُ أيضاً كتاباً في الادوية ومعالجتها . وتوالى آل بختيشوع في خدمة العباسيين وخدموا الطب والعلم في ظلهم خدمة نافعة

فالمنصور اول من عني بنقل الكتب القديمة ولكنهُ اقتصر منها على النجوم والهندسة والطب . وفي ايامه ترجم ابن المقفع كليلة ودمنة . واما الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية فترجمت في ايام المأمون . وقد ذكر صاحب الفهرست ان ابن المقفع نقل من الفارسية الى العربية كتباً في المنطق والطب كان الفرس قد نقلوها عن اليونانية — فلعله نقلها لنفسه

المهدي والرشيد

اما المهدي (١٥٨ — ١٦٩ هـ) فانهُ اشتغل عن نقل العلم بما ظهر في ايامه من البدع الدينية وما انتشر من كتب ماني وابن دميان ومرقيون مما نقله ابن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية الى العربية وما صنفوه في تأييد هذه المذاهب في العربية فكثر الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس فامر المهدي اهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب لابطال تلك المذاهب . اما الهادي فلم تطل ايامهُ ولم يأتِ امراً يذكر

فلما افضت الخلافة الى الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) كانت الافكار قد نضجت والاذهان قد زادت تنبهاً الى علوم الاقدمين بما كان يتقاطر الى بغداد من الاطباء والعلماء من السريان والفرس والهنود . وكانوا اهل تمدن وعلم كما رأيت وكانوا يتعلمون العربية ويعاشرون المسلمين ويباحثونهم في تلك العلوم والمسلمون يتهيبون من ذلك لما سبق الى اذهانهم من مخالفته للدين — الا الكتب الطبية فكانوا يرغبون في نقلها او مطالعتها . ولكن الاطباء انفسهم كانوا يومئذ من غير المسلمين و يغلب ان يكونوا من محبي الفلسفة والمنطق وكانوا من الجهة الثانية يخدمون الخلفاء ويجالسونهم ويعاشرونهم كأنهم بعض اهلهم كما سترى . فأدى ذلك الى ائتلاف الخلفاء بذكر الفلسفة واصبحوا اذا فتحوا

بلداً ووجدوا فيه كتباً لا يأمرون باحراقها او اعدامها بل يأمرون بحملها الى عاصمتهم والاحتفاظ بها لنقلها الى لسانهم كما اتفق للرشيد في اثناء حربه في انقرة وعمورية وغيرها من بلاد الروم فانه عثر هناك على كتب كثيرة حملها الى بغداد وأمر طبيبه يوحنا بن ماسويه بترجمتها [١] ولكنها ليست من الفلسفة في شيء وانما هي في الطب اليوناني [٢]

وفي أيام الرشيد نقل كتاب اقليدس النقلة الاولى على يد الحجاج بن مطر وتسمى الهارونية تمييزاً لها عن النقلة المأمونية التي نقلها للمأمون [٣] • وفي أيامه نقل المجسطى الى العربية واول من عني بنقله يحيى بن خالد البرمكي ففسره له جماعة لم يتقنوه فندب لتفسيره ابا حسان وسلماً صاحب بيت الحكمة فاتقناه واجتهدا في تصحيحه

المأمون والفلسفة والمنطق

فالكتب الفلسفية لم يقدم المسلمون على ترجمتها الا في أيام المأمون لسبب متصل بالمأمون نفسه • وذلك ان المسلمين تعودوا من أول الاسلام حرية الفكر والقول والمساواة فيما بينهم فكان اذا خطر لاحدهم رأي في خليفة او امير لا تمنعه هيبة الملك من ابداء رأيه • وكان ذلك شأنهم أيضاً في الدين فاذا فهم احدهم من الآية او الحديث غير ما فهمه الآخر صرح برأيه وجادله فيه • فلم ينقضِ عصر الصحابة حتى أخذ المسلمون يفترقون في المذاهب • ولم يدخل القرن الثاني حتى تعددت الفرق وتفرعت وفي جملتها المعتزلة • والمعتزلة طوائف كثيرة اساس مذهبهم تطبيق النصوص الدينية على الاحكام العقلية • ولو طالعت مذاهبهم لرأيت بعضها يوافق احدث الاراء الانتقادية في الدين مع مرور الاجيال على تمحيصها • ولذلك تهم يسمون اصحاب العدل والتوحيد

المأمون والاعتزال

ظهر مذهب الاعتزال في اواخر القرن الاول للهجرة وكثر اشياعه بسرعة لارتياح العقل الى أدلته • وقد تقدم في كلامنا عن الفقه ان المنصور اخذ بناصر اصحاب الرأي والقياس واستقدم ابا حنيفة الى بغداد ونشطه لهذه الغاية وظل الميل الى القياس متواصلاً في بني العباس • والاعتزال اقرب المذاهب الى اصحاب الرأي لان عمدة المعتزلة في اثبات

---

(١) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ (٢) ابو الفرج ٢٢٧

(٣) الفهرست ٢٦٥ و ٢٦٨

مذهبهم البرهان العقلي ولذلك كانوا اذا رأوا رجلاً مطلعاً على منطق ارسطو او اقواله في الجدل ونحوه استعانوا بما يسمعونه منه في تأييد مذهبهم واحتاجوا الى ذلك خصوصاً في ايام المهدي لدفع اقوال الزنادقة كما تقدم . فلعلهم احتاجوا الى الاستعانة بمنطق اليونان وفلسفتهم اوشعروا باحتياجهم اليها على الاقل وأخذوا في انشاء علم الكلام . وكان البرامكة من أصحاب الرأي أيضاً وفيهم ذكاء وميل الى العلم فاشتغلوا في ترجمة الكتب القديمة قبل المامون [1] وكانوا يعقدون مجالس المباحثة والمجادلة في منازلهم . ولكن يظهر ان الرشيد لم يكن يوافقهم على ذلك فلم يتظاهروا به

فلما افضت الخلافة الى المامون (١٩٨ — ٢١٨ هـ) تغير وجه المسألة لانه كان مع فطنته وسعة علمه شديد الميل الى القياس العقلي . وقد تعلم وتفقه وطالع ما نقل الى عهده من كتب القدماء فازداد رغبة في القياس والرجوع الى احكام العقل فتمسك بمذهب الاعتزال وقرب اليه اشياخه كابي الهذيل العلاف وابراهيم بن سيار وجالس المتكلمين فتمكن من مذهب الاعتزال . فأخذ بناصر اشياعه وصرح بأقوال لم يكونوا يستطيعون التصريح بها خوفاً من غضب الفقهاء وفي جملتها القول بخلق القرآن اي انه غير منزل . وكان المسلمون في ايام الرشيد يخافون المامون في ذلك لانه ظهر فيه قبل تولية الخلافة وكان الفضيل بن عياض يتمنى طول عمر الرشيد لما تبين له من أمر المامون من هذا القبيل

فلما تظاهر المامون بالاعتزال وقال بخلق القرآن قامت قيامة الفقهاء وعظم ذلك على غير المعتزلة وهم اكثر عدداً ولم يعد في وسعه الرجوع عن قوله فعمل على تأييده بالبرهان وجعل يعقد المجالس للمناظرة [2] في هذا الموضوع . وتاييداً لصحة الجدل أمر بنقل كتب الفلسفة والمنطق من اليونانية الى العربية واطلع هو عليها لتقويت حجته وازداد تمسكاً بالاعتزال . ولما يئس من اقناع الناس بالبرهان والقياس عمد الى العنف — باشر ذلك في العام الاخير من حكمه وهو خارج بغداد فكتب الى عامله فيها اسحق بن ابراهيم ان يمتحن القضاة والشهود وجميع أهل العلم بالقرآن فمن اقرّ انه مخلوق محدث خلي سبيله ومن أبى فليعلمه به [3]

فالراجح عندنا ان المامون لسعة علمه وحرية فكره ورغبته في القياس العقلي لم يكن يرى باساً من نقل علوم اليونان الى العربية وانه بدأ بنقل كتب الفلسفة والمنطق تاييداً لمذهب الاعتزال ثم جعل الترجمة عامة لكل مؤلفات ارسطو في الفلسفة وغيرها . وقد

---

(١) ابن خلكان ٦٧٥ ج ١ (٢) الدميري ٧٢ ج ١ (٣) ابو الفداء ٣٣ ج ٢

ابتدأ بترجمة تلك الكتب في اعوام بضعة عشر ومائتين فتلقى المعتزلة تلك الفلسفة تلقي الظمآن لموارد الماء واقبلوا على تصفحها والتبحر فيها فاشتد ساعدهم بها [١] فتولد من اشتغال المسلمين بالفلسفة علم الكلام [٢] كما تولد من اشتغال النصارى بها « الفلسفة الافلاطونية الجديدة »

المأمون ونقل الكتب

وقد ذكروا لمباشرة المأمون نقل تلك الكتب اسباباً كثيرة — قال ابو اسحق النديم صاحب كتاب الفهرست في سبب ذلك ان المأمون رأى في منامه ارسطوطاليس الحكيم وسأله بعض الاسئلة فلما نهض من منامه طلب ترجمة كتبه فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المذخرة ببلد الروم فاجابه الى ذلك بعد امتناع فاخرج المامون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلماً صاحب بيت الحكمة وغيرهم فاخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل [٣]

وذكر نحو ذلك ابن ابي اصيبعة صاحب طبقات الاطباء وابو الفرج صاحب مختصر الدول وغيرهما والغالب في ظننا انهم نقلوا ذلك عن ابن اسحق المذكور • ومهما يكن السبب فلا مشاحة في ان المأمون بذل جهده في استخدام التراجمة لنقل تلك الكتب وغيرها • وكان ينفق في سبيل ذلك بسخاء حتى اعطى وزن ما يترجم له ذهباً • وكان لشدة عنايته في النقل يضع علامته على كل كتاب يترجم له • وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب ويرغبهم في تعلمها وكان يخلو بالحكماء ويانس بمناظراتهم ويلتذ بمذاكراتهم [٤]

واقتدى بالمأمون كثيرون من اهل دولته وجماعة من اهل الوجاهة والثروة في بغداد فتقاطر اليها المترجمون من انحاء جزيرة العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والسنسكريتية والنبطية واللاتينية وغيرها • وكثر في بغداد الوراقون وباعة الكتب وتعددت مجالس الادب والمناظرة وأصبح همُّ الناس البحث والمطالعة وظلت تلك النهضة مستمرة بعد المامون الى عدة من خلفائه حتى نقلت أهم كتب القدماء الى العربية

(١) المقريزي ٢٥٧ ج ٢ (٢) الشهرستاني ١٨ ج ١

(٣) الفهرست ٢٤٣ (٤) ابو الفرج ٢٣٦ وطبقات الاطباء

نقلة العلم في العصر العباسي

رأيت في ما تقدم ان السريان كانوا في نهضة علمية قبيل الاسلام وانهم أخذوا في نقل كتب اليونان الى لسانهم ودرسوا كثيراً منها وخصوصاً الفلسفة والطب وبرزوا في هذه الصناعة حتى تولى بعضهم رئاسة مارستان جنديسابور كما تقدم وان اللغة اليونانية كانت تعلم في مدارسهم • فلما انتقل كرسي الخلافة الى بلادهم (العراق) وعمرت بغداد بالوافدين من اطراف المملكة الاسلامية وغيرها كان اولئك السريانيون من جملة الوفود التماساً للرزق فتعلموا لسان العرب كما نتعلم نحن لغة الانكليز اليوم لهذا السبب • وطاب لهم الاختلاط بالعرب او المسلمين لما آنسوه من عدل العباسيين في أول دولتهم واطلاق حرية الاديان لرعاياهم حتى كثيراً ما كانوا يوسطونهم في فض الخلاف بين طوائفهم او اساقفتهم • ولهذا السبب أيضاً انتقل جماعة الفرس الى بغداد وكانوا اهل دولة وحكومة فاستخدمهم الخلفاء في ادارة شؤون حكومتهم وفيهم جماعة كبيرة من اهل العلم والادب واستقدم الخلفاء ايضاً جماعة من اطباء الهند للانتفاع بطبهم

فلما أراد الخلفاء نقل كتب العلم الى العربية كان واسطة ذلك النقل اهل العراق والشام وفارس والهند • فرغبهم الخلفاء في ذلك بالبذل الكثير وجعلوا لبعضهم رواتب وجواري وبالغوا في اكرامهم ومحاسنتهم فتكاثروا واكثرهم من السريان النساطرة لانهم اقدر على الترجمة من اليونانية واكثر اطلاعاً على كتب الفلسفة والعلم اليوناني • وفيهم جماعة من اهل فارس والهند وغيرهم للنقل من الفارسية او الهندية وكان اكثرهم تتوالى الترجمة في اعقابه فيتولاها هو واولاده واحفاده • واليك اشهر نقلة العلم في العصر العباسي :

(١) آل بختيشوع : وهم من السريان النساطرة اولهم جورجيس بن بختيشوع طبيب المنصور وقد تقدم ذكره وخلفه عندهم ابنه بختيشوع بن جورجيس استقدمه الرشيد من جنديسابور كما استقدم المنصور اباه قبله • فلما دخل على الرشيد دعا له بالفارسية والعربية فقال الرشيد لوزيره يحيى امتحنه فدعا يحيى الاطباء لامتحانه وهم ابو قريش عيسى وعبد الله الطيفوري وداود بن سرابيون وغيرهم فلما رأوه قال ابو قريش « يا أمير المؤمنين ليس في الجماعة من يقدر على الكلام مع هذا لانه كون الكلام وهو وأبوه وجنسه فلاسفة » ويدلّ ذلك على منزلة آل بختيشوع من العلم والفلسفة • فولاه الرشيد رئاسة الاطباء وخلفه فيها ابنه جبريل وكان حظياً عند الخلفاء ونال

جوائزهم وعطاياهم • وكان له من الرواتب شيء كثير قد فصلناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب • وخلفه ابنه بختيشوع بن جبريل وقد بلغ من عظم المنزلة والحال وكثرة المال ما لم يبلغه أحد من اطباء عصره ومنهم جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع خدم المقتدر العباسي وخلفهُ عبيد الله بن جبريل • فهؤلاء ستة من آل بختيشوع كلهم من مهرة الاطباء ولم يعن في الترجمة منهم الا جورجيس الاول وانما اوردنا ذكرهم لان اكثرهم الف في الطب كتباً مفيدة وبعضهم استخدم التراجمة في نقل بعض كتب الطب الى السريانية [1]

(٢) آل حنين : اولهم حنين بن اسحق العبادي شيخ المترجمين وهو من نصارى الحيرة ولد سنة ١٩٤ ه وكان أبوه صيرفياً ولما ترعرع انتقل الى البصرة فتلقى فيها العربية ثم انتقل الى بغداد ليشتغل بصناعة الطب فوقي في ذلك مشقة لان الاطباء وخصوصاً اهل جنديسابور كانوا يكرهون ان يدخل في صناعتهم ابناء التجار • وكان اعمر مجالس الطب في بغداد يومئذ مجلس يوحنا بن ماسويه احد متخرجي مارستان جنديسابور فجعل حنين يحضره • فاتفق انه سأله مرة مسألة مما كان يقرأه عليه فغضب يوحنا وقال « ما لاهل الحيرة وصناعة الطب فصرْ الى فلان قرابتك حتى يهب لك خمسين درهماً تشتري بها قفافاً صغاراً بدرهم وزرنيخاً بثلاثة دراهم واشتر بالباقي فلوساً كوفية وفارسية وزرنخ القادسية في تلك القفاف واقعد على الطريق وصحْ الفلوس الجياد للصدقة والنفقة وبعْ الفلوس فانه اعود عليك من هذه الصناعة » ثم أمر به فاخرج من داره

فخرج حنين باكياً مكروباً وقد بعثه ذلك على زيادة النشاط للسعي في تعلم الطب بلغته الاصلية — فغاب من بغداد سنتين ثم عاد وقد تعلم اليونانية وادابها في الاسكندرية وحفظ اشعار هوميروس [2] فأصبح اعلم اهل زمانه بالسريانية واليونانية والفارسية فضلاً عن العربيـة واصبح اطباء بغداد في حاجة اليه لنقل الكتب حتى ابن ماسويه نفسه فانه استخدمه في نقل بعض كتب جالينوس الى السريانية وبعضها الى العربية واحتذى فيها حذو الاسكندرانيين [3] • وترجم أيضاً لجبريل بن بختيشوع كتاب التشريح لجالينوس وكان جبريل يخاطبه بالتبجيل فيقول له «ربن حنين» في اصطلاح السريان اي« يامعلمنا حنين» ولما اراد المأمون نقل فلسفة اليونان الى العربية سأل عمن يستطيع ذلك فارشدوه

(١) طبقات الاطباء ١٣٨ ج ١ (٢) طبقات ١٨٥ ج ١

(٣) طبقات الاطباء ١٨٩ ج ١

الى حنين لانه لم يكن ثمة من يضاهيه وهو لايزال شاباً فاخرج المامون جماعة من التراجمة وهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم وعليهم حنين المذكور ليصلح ما يترجمونهُ • وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقلهُ الى العربي مثلاً بمثل ولذلك فقد كان حنين يكتب الترجمة بحروف غليظة واسطر متفرقة على ورق غليظ جدًّا لتعظيم حجم الكتاب وتكثير وزنه • وذكروا ان حنيناً رحل بنفسه في طلب الكتب من بلاد الروم لنقلها وكان يترجم أيضاً لبني شاكر الآتي ذكرهم ولغيرهم

وكان لحنين ولدان داود واسحق صنف لهما كتباً طبية في المبادىء والتعليم ونقل لهما كتباً كثيرة من مؤلفات جالينوس فافلح اسحق وتميز واشتغل في الترجمة مثل أبيه من اليونانية الى العربية الاَّ ان عنايته كانت مصروفة الى نقل كتب الحكمة مثل كتب ارسطوطاليس وغيره من الحكماء • أما أبوهُ فكان أكثر اشتغاله في نقل كتب الطب وخصوصاً كتب جالينوس • ويندر أن يوجد من كتب جالينوس كتاب الاَّ وهو بنقل حنين او باصلاحه وما لم يكن كذلك لم يكن معتبراً عندهم لبراعة حنين في العربية فضلاً عن تمهره بصناعة الطب • واشتغل حنين في زمن المتوكل (تولى سنة ٢٣٣هـ) فاختاره لرئاسة الترجمة فعين جماعة من التراجمة كاصطفان بن باسيل وموسى بن خالد فكانوا يترجمون ويتصفح حنين ترجماتهم وينقحها • وكان يلبس زناراً على عادة النصارى في تلك الايام وتوفي سنة ٢٦٤ هـ • واشتهر ابنهُ اسحق أيضاً واكثر نقله من كتب ارسطو في الفلسفة وشروحها وكان مع أبيه ثم انقطع للقاسم بن عبيدالله وزير المعتضد وكان يفضي اليه باسراره وله فضلاً عن المنقولات مؤلفات في الطب والصيدلة وغيرهما

(٣) حبيش الاعسم الدمشقي : هو حبيش بن الحسن الدمشقي ابن اخت حنين ابن اسحق وقد تعلم صناعة الطب منه وكان قد سلك مسلكه في الترجمة — وقيل من جملة سعادة حنين صحبة حبيش لهُ فان اكثر ما نقله حبيش نسب الى حنين وكثيراً مايرى الناس شيئاً من الكتب القديمة مترجماً بنقل حبيش فيظنهُ لحنين وقد صحف فيكشطهُ ويجعلهُ لحنين (١)

(٤) قسطا بن لوقا البعلبكي : وهو من نصارى الشام وكان طبيباً حاذقاً وفيلسوفاً نبيلاً رحل الى بلاد الروم في طلب العلم وكان عالماً باللغات اليونانية والسريانية والعربية ونقل كتباً كثيرة من اليونانية الى العربية وكان جيد النقل واصلح نقولاً كثيرة وألف

(١) ابو الفرج ٢٥٣

رسائل عديدة في الطب • وكان حسن العبارة جيد القريحة وفضلاً عما نقله فله مؤلفات كثيرة في الطب والتاريخ والفلسفة والفلك والجبر والمقابلة والهندسة والمنطق والادب والدين ما يزيد على مئة كتاب • قال أبو الفرج الملطي « لو قلت حقاً لقلت انه أفضل من صنف كتاباً بما احتوى عليه من العلوم والفضائل وما رزق من الاختصار للالفاظ وجمع المعاني »

٥) آل ماسرجويه : اولهم ماسرجويه متطبب البصرة وهو يهودي المذهب سرياني اللغة وكان ينقل من السرياني الى العربي وقد تقدم ذكره • ثم ابنه عيسى بن ماسرجويه وكان يلحق بابيه ولهما مؤلفات في الطب

(٦) آل الكرخي : أولهم شهدي الكرخي من أهل الكرخ وكان قريب الحال في الترجمة • ثم ابنه وكان مثل أبيه في النقل ثم فاق أباه في آخر عمره ولم يزل متوسطاً وكان ينقل من السرياني الى العربي

(٧) آل ثابت : أولهم ثابت بن قرة الحراني وهو من الصابئة المقيمين في حران وكان صيرفياً ثم تعلم الطب والفلسفة والنجوم وكان مع ذلك يعرف اللغة السريانية جيداً وكان جيد النقل الى العربية وله تصانيف كثيرة في الرياضيات والطب والمنطق وله في السريانية كتاب في مذهب الصابئة • وكان في خدمة المعتضد العباسي و بلغ عنده أجل المراتب حتى كان يجلس في حضرته في كل وقت ويحادثه طويلاً ويضاحكه ويقبل عليه دون وزرائه وخاصته • يليه ابنه سنان بن ثابت وكان مقدماً عند القاهر بالله وله تصانيف كثيرة وكذلك ابنه ثابت بن سنان ولكنهما لم ينقلا شيئاً

(٨) الحجاج بن مطر : كان في جملة من ترجم للمأمون وقد نقل كتاب المجسطي واقليدس الى العربية ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني

(٩) ابن ناعمة الحمصي : هو عبد المسيح بن عبدالله الحمصي الناعمي كان متوسط النقل وهو الى الجودة اميل • ومن بيت الناعمة الحمصي أيضاً زروبا بن مانحوه وكان اضعف من سابقه

(١٠) اصطفان بن باسيل : كان يقارب حنين بن اسحق في جودة النقل الا ان عبارة حنين كانت افصح واحلى

(١١) موسى بن خالد : ويعرف بالترجمان نقل كتباً كثيرة من الستة عشر لجالينوس وهو دون حنين

(١٢) سرجيس الرأسي : هو من مدينة رأس العين في جزيرة العراق نقل كتباً كثيرة وكان متوسطاً في النقل وحنين كان يصلح نقله

(١٣) يوحنا بن بختيشوع : هو من غير آل بختيشوع المتقدم ذكرهم وكان ينقل الكتب من اليوناني الى السرياني وليس الى العربي

(١٤) البطريق : كان في أيام المنصور وقد أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة وله نقل كثير جيداً الا انه دون نقل حنين

(١٥) يحيي بن البطريق : كان في جملة الحسن بن سهل وكان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وانما كان يعرف اللاتينية (١)

(١٦) ابو عثمان الدمشقي : كان من النقلة المجيدين الى العربية

(١٧) ابو بشر متى بن يونس : من اهل دير قني تفقه في مدرسة مارماري على اساتذة عظام واليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره

(١٨) يحيي بن عدي : هو من أهل المنطق في القرن الرابع للهجرة قرأ على متى بن يونس وعلى ابي نصر الفارابي وهو يعقوبي المذهب خلافاً لاكثر المترجمين السريان وكان سريع الخط يكتب في اليوم والليلة مئة ورقة (٢)

هؤلاء اشهر نقلة العلم من اليوناني او السرياني الى العربي • وقد اكتفينا بما تقدم للاختصار

واما النقلة من الالسنة الأُخرى فمنهم من نقل من الفارسية الى العربية كابن المقفع وآل نوبخت وقد تقدم ذكر نوبخت كبيرهم ولابنه الفضل بن نوبخت نقلٌ من الفارسي الى العربي في النجوم وغيرها • ومنهم موسى ويوسف ابنا خالد وكانا يخدمان داود بن عبدالله بن حميد بن قحطبة وينقلان له من الفارسية الى العربية وعلي بن زياد التميمي ويكنى أبا الحسن نقل من الفارسي الى العربي كتاب زيج الشهريار والحسن بن سهل وكان من المنجمين • والبلاذري احمد بن يحيي وجبلة بن سالم كاتب هشام واسحق بن يزيد نقل سيرة الفرس المعروفة باختيارنامه ومنهم محمد بن الجهم البرمكي وهشام بن القاسم وموسى بن عيسى الكردي وعمر بن الفرخان وغيرهم

ومن الذين نقلوا من اللغة السنسكريتية (الهندية) منكه الهندي كان في جملة اسحق ابن سليمان بن علي الهاشمي ينقل من اللغة الهندية الى العربية • وابن دهن الهندي وكان اليه مارستان البرامكة نقل من الهندي الى العربي (٣)

(١) طبقات الاطباء ٢٠٥ ج ١ (٢) الفهرست ٢٦٤ (٣) الفهرست ٢٤٥

ومن الذين نقلوا من اللغة النبطية (الكلدانية) الى العربية ابن وحشية نقل كتباً كثيرة سيأتي ذكرها

السوريون ونقل العلم

اذا تدبرت ما تقدم من اخبار النقلة ومواطنهم ومللهم رأيت معظمهم من السوريين سكان الشام والجزيرة والعراق · وللسوريين شأن كبير في نشر العلوم بين الامم او نقلها من امة الى اخرى او من لسان الى لسان من اقدم ازمنة التاريخ — يساعدهم على ذلك نشاطهم وذكاؤهم واقدامهم وتوسط بلادهم بين الشرق والغرب

فالسوريون (او الفينيقيون) هم الذين نشروا احرف الهجاء في العالم قبل الميلاد ببضعة عشر قرناً فحملوها معهم في اثناء اسفارهم التجارية الى بلاد اليونان والكلدان ولا تزال صورها واسماؤها عند سائر امم العالم المتمدن شاهدة بذلك الى اليوم · وهم الذين توسطوا في نقل العلوم والآداب بين المصريين والكلدانيين ثم نقلوها الى اليونان القدماء كما تقدم · وكانوا يدرسون اللغات اليونانية والقبطية والبابلية وغيرها من لغات الامم المتمدنة في تلك الاعصر كما يدرسون اليوم الانكليزية والفرنساوية وغيرهما من لغات ممالك التمدن الحديث لنقل العلم او الاتجار او الانتفاع من الخدمة في مصالح تلك الدول

ولما تمدن اليونان واستنبطوا الفلسفة والمنطق وغيرهما ونضجت علومهم وانتقلت بفتوح الاسكندر الى العراق والشام تلقاها السوريون ونقلوها الى لسانهم واضافوا اليها بعد انتشار النصرانية الآداب النصرانية اليونانية وحفظوها مع الفلسفة اليونانية في اديرتهم ثم كانت مصدراً للعلم والفلسفة الى بلاد فارس والهند وغيرها

وكان السوريون في دولة الفرس الساسانية الواسطة الكبرى في نقل علوم اليونان وطبّهم وفلسفتهم الى الفرس · ولما بنى كسرى انوشروان مارستان جنديسابور لتعليم الطب والفلسفة كما تقدم كان جلّ معتمده في ذلك على نصارى العراق والجزيرة · ناهيك بما حفظ من الآداب السامية على صبغته الوثنية في حرّان لان اهلها ظلوا على ديانتهم القديمة · غير ما حفظه اهل العراق من آداب قدماء الكلدان وعلومهم

فلما ظهر الاسلام واراد الخلفاء نقل العلوم الى العربية كان السوريون ساعدهم الاقوى في نقلها من اللغات المعروفة في ذلك العهد وفيهم الحمصي والبعلبكي والدمشقي والحيري والحراني

والبصري . ونقل العلوم من لسان الى آخر لا يتيسر الاَّ باستيعاب تلك العلوم وتفهمها فضلاً عن اتقان اللغات اللازمة لذلك . ولهذا كان اكثر اولئك المترجمين من اهل العلم الواسع في ما اشتغلوا بنقله وفيهم من أَلف في اكثر فروع العلم او الفلسفة او المنطق او الطب وغيرها

وذلك شان السوريين ايضاً في علوم التمدن الحديث فقد كانوا من اكثر الناس اشتغالاً في نقلها من لغات اوربا المختلفة الى اللغة العربية ولا يزالون في ذلك الى اليوم

نقل العلم لغير الخلفاء

قد رأَيت في ما تقدم ان الخلفاء هم الذين سعوا في نقل كتب العلم على يد التراجمة . فلما نقل بعض تلك الكتب واطلع عليها اهل بغداد نهض جماعة من كبرائهم واقتدوا بالخلفاء في نقلها واستخدموا التراجمة وبذلوا الاموال في البحث عنها وترجمتها

وأشهر هؤلاء ثلاثة يعرفون ببني شاكر أو بني موسى لانهم اولاد موسى بن شاكر وهم محمد واحمد والحسن وتعرف اولادهم بعدهم ببني المنجم . وكان والدهم موسى يصحب المأمون والمأمون يرعى حقه في اولاده هولاء . اما موسى فلم يكن من أهل العلم والادب بل كان في حداثته حرامياً يقطع الطريق ويتزيا بزي الجند وكان شجاعاً مجرباً وكان يصلي العتمة مع جيرانه في المسجد ثم يخرج متنكراً فيقطع الطريق على فراسخ كثيرة في طريق خراسان ويركب فرساً له اشقر يشدُّ على قوائمه خرقاً بيضاء ليوهم من يراه في الليل انه محجل . وكان له جاسوس يأتيه بخبر من يخرج ومعه مال وربما لقي الجماعة وفارسهم وغلبهم فينصرف من ليلته فيصلي الصبح مع الجماعة في المسجد . فلما كثر فعله واشتهر اتُّهم فشهد له الجماعة بملازمته الصلاة معهم فاشتبه امره . ثم انه تاب ومات وخلف هؤلاء الثلاثة صغاراً فوصى بهم المأمون اسحق بن ابراهيم المصعبي واثبتهم مع يحيي بن ابي منصور في بيت الحكمة . وكان المأمون اذا سافر بعث الى اسحق ان يراعيهم حتى قال اسحق « جعلني المأمون داية لاولاد موسى » وكانت حالهم رثة رقيقة وأرزاقهم قليلة . ولكنهم خرجوا نهاية في علومهم وكان اكبرهم وأجلهم محمد وكان وافر الحظ في الهندسة والنجوم عالماً باقليدس والمجسطي وغيرهما من علوم الفلك والطبيعيات والرياضيات . وكان اخوه احمد دون اخيه في العلم الاَّ صناعة الحيل (الميكانيكيات) فانه قد فتح له فيها ما لم يفتح مثله لاخيه . وكان اخوهما الحسن منفرداً بالهندسة وله طبع

كتب ارسطوطاليس

١	قاطيغورياس اي المقولات	نقله حنين بن اسحق
٢	كتاب العبارة	« « الى السريانية واسحق الى العربية
٣	تحليل القياس	« ثيادورس واصلحه حنين
٤	كتاب البرهان	« اسحق الى السرياني ومتى الى العربي
٥	« الجدل	« « « « ويحيى « «
٦	« المغالطات او الحكمة المموهة	« ابن ناعمه وابو بشر الى السرياني ويحيى الى العربي
٧	« الخطابة	« اسحق وابراهيم بن عبدالله
٨	« الشعر	« ابو بشر من السرياني الى العربي
٩	« السماع الطبيعي	« ابو روح الصابي وحنين ويحيى وقسطا وابن ناعمة
١٠	« السماء والعالم	« ابن البطريق واصلحه حنين
١١	« الكون والفساد	« حنين الى السرياني واسحق والدمشقي الى العربي
١٢	« الآثار العلوية	« ابو بشر ويحيى
١٣	« النفس	« حنين الى السرياني واسحق الى العربي
١٤	« الحس والمحسوس	« ابو بشر متى بن يونس
١٥	« الحيوان	« ابن البطريق
١٦	« الحروف او الالهيات	« اسحق ويحيى وحنين ومتى
١٧	« الاخلاق	« اسحق
١٨	« المرآة	« الحجاج بن مطر
١٩	« اثولوجيا	. . . .

ولكتب ارسطو شروح وتعاليق لبعض تلامذته او من جاء بعده كثاوفرسطس وديدوخس برقلس والاسكندر الافروديسي وفرفوريوس وامونيوس وتامسطيوس ونيقولاوس وفلوطرخس ويحيى النحوي وغيرهم . ولبعض هؤلاء مؤلفات خاصة وكلها في الفلسفة وفروعها

وقد نقل كثير منها الى العربية ولم يعلم ناقلها فاغضينا عن ذكرها وقد ذكرها صاحب الفهرست

وذكروا لجالينوس في جملة كتبه الطبية الآتي بيانها بضعة كتب في الفلسفة والادب وهي كتاب ما يعتقده رأياً ترجمه ثابت وكتاب تعريف المرء عيوب نفسه نقله توما واصلحه حنين وكتاب الاخلاق نقله حبيش وكتاب انتفاع الاخيار باعدائهم نقله حبيش والمحرك الاول لا يتحرك نقله حبيش وعيسى وغيرها

٢ — كتب الطب وفروعه

كتب ابقراط

١	كتاب عهد ابقراط	حنين الى السريانية وحبيش وعيسى الى العربية
٢	« الفصول	نقله حنين لمحمد بن موسى
٣	« الكسر	« « «
٤	« تقدمة المعرفة	« وعيسي بن يحيي
٥	« الامراض الحادة	عيسى بن يحيى
٦	« ابيذيميا	« « «
٧	« الاخلاط	« « « لأحمد بن موسى
٨	« قاطيطيون	حنين لمحمد بن موسى
٩	« الماء والهواء	« وحبيش
١٠	« طبيعة الانسان	« وعيسى

كتب جالينوس

واشهر كتب جالينوس الكتب الستة عشر وهي كتاب الفرق . الصناعة . كتاب النبض . شفاء الامراض . المقالات الخمس . الاسطقصات . كتاب المزاج . القوى الطبيعية . العلل والامراض . تعرُّف علل الاعضاء الباطنة . كتاب النبض الكبير . كتاب الحميات . البحران . ايام البحران . تدبير الاصحاء . حيلة البرء . وقد نقلها كلها حنين بن اسحق الى العربية الا كتاب العلل الباطنة . وكتاب النبض الكبير . وكتاب تدبير الاصحاء وكتاب حيلة البر فقد نقلها حبيش اما ما بقي من كتب جالينوس الطبية فاليك اسماؤها مع اسماء ناقليها :

الكتاب	الناقل
١ التشريح الكبير	حبيش الاعسم
٢ اختلاف التشريح	〃 〃
٣ تشريح الحيوان الحي	〃 〃
٤ 〃 〃 الميت	〃 〃
٥ علم ابقراط بالتشريح	〃 〃
٦ الحاجة الى النبض	〃 〃
٧ علوم ارسطو	〃 〃 〃
٨ تشريح الرحم	〃 〃
٩ اراء ابقراط وافلاطون	〃 〃
١٠ العادات	〃 〃
١١ خصب البدن	〃 〃
١٢ المني	〃 〃
١٣ منافع الاعضاء	〃 〃
١٤ تركيب الادوية	〃 〃
١٥ الرياضة بالكرة الصغيرة	〃 〃
١٦ 〃 〃 الكبيرة	〃 〃
١٧ الحث على تعليم الطب	〃 〃
١٨ قوى النفس ومزاج البدن	〃 〃
١٩ حركات الصدر	نقله اصطفان واصلحه حنين
٢٠ علل النفس	اصطفان واصلحه حنين
٢١ حركة العضل	〃 〃 〃
٢٢ الحاجة الى النفس	〃 〃 〃
٢٣ الامتلاء	〃
٢٤ المرة والسوداء	〃
٢٥ علل الصوت	حنين
٢٦ الحركات المجهولة	〃
٢٧ افضل الهيئات	〃
٢٨ سوء المزاج المختلف	〃
٢٩ الادوية المفردة	〃
٣٠ المولود لسبعة اشهر	〃
٣١ رداءة التنفس	〃
٣٢ الذبول	〃
٣٣ قوى الاغذية	〃
٣٤ التدبير الملطف	〃
٣٦ مداواة الامراض	〃
٣٦ ابقراط في الامراض الحادة	〃
٣٧ الى تراسوبولوس	〃
٣٨ الطبيب والفيلسوف	〃
٣٩ كتب ابقراط الصحية	〃
٤٠ محنة الطبيب	〃
٤١ افلاطون في طيماوس	〃 واسحق
٤٢ تقدمة المعرفة	عيسى
٤٣ الفصد	عيسى واصطفان
٥٤ صفات لصبي يصرخ	ابن الصلت
٤٥ الاورام	〃 〃
٤٦ الكيموس	ثابت وحبيش
٤٧ الادوية والادواء	عيسى
٤٨ الترياق	ابن البطريق

وهناك كتب في الطب وتوابعه ذكرها صاحب الفهرست ولم يذكر ناقلها • وأما مؤلفوها فمنها بضعة وعشرون كتاباً لروفس من أهل افسس كان قبل جالينوس ولعلها

لم تنقل كلها . ومما ذكر ناقلوه بضعة كتب لاوريباسيوس وهي كتاب الأدوية المستعملة نقله اصطفان بن باسيل وكتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى بن يحيي الى السريانية وكتاب الى ابنه اسطاث نقله حنين وكتاب الى ابيه اونافيس نقله حنين . ولديسقوريدس العين زربي ويقال له السائح في البلاد لسياحته في طلب العقاقير والحشايش كتاب في الحشائش سيأتي تاريخ نقله . ولاسكندروس كتاب البرسام نقله ابن البطريق وغير هؤلاء مما لم يعرف ناقلوه

٣ — كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم

ويشتمل النظر في ذلك على علم النجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكيات وهاك خلاصة الكلام فيها :

(١) كتب اقليدس : منها اصول الهندسة نقله الحجاج بن مطر نقلين الهاروني والمأموني ونقله اسحق بن حنين واصلحه ثابت بن قرة ونقله أبو عثمان الدمشقي ولايزال هذا الكتاب باقياً الى الآن . ومن كتب اقليدس التي لم يعرف مترجموها كتاب الظاهرات وكتاب اختلاف المناظر وكتاب الموسيقى وكتاب القسمة وكتاب القانون وكتاب الثقل والخفة

(٢) كتب ارخميدس : وقد تقدم ذكرها في كلامنا عن آداب اليونان وهي عشرة ولم يعرف ناقلوها

(٣) ابلونيوس : صاحب كتاب المخروطات وكتاب قطع السطوح وقطع الخطوط والنسبة المحدودة والدوائر المماسة ولم يعرف ناقلوها

(٤) منالاوس : له كتاب الاشكال الكروية وكتاب أصول الهندسة نقله الى العربي ثابت بن قرة

(٥) بطليموس القلوذي : صاحب كتاب المجسطي الشهير وقد تقدم خبر نقله وتفسيره على يد يحيى البرمكي . ولبطليموس أيضاً كتاب الاربعة نقله ابراهيم بن الصلت وأصلحه حنين وكتاب جغرافيا المعمور وصفة الارض نقله ثابت الى العربي نقلاً جيداً . ولبطليموس ١٥ كتاباً أخر في الجغرافية وغيرها لم يعرف ناقلوها

(٦) ابرخس : له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحدود وكتاب قسمة الاعداد لم يعرف ناقلهما

(٧) ذيوفنطس : له كتاب صناعة الجبر لم يعرف ناقله

وهناك كتب عديدة في الرياضيات والهيئة والازياج ونحوها ذكرها ابن النديم ولم يذكر ناقليها منها كتاب العمل بالاسطرلاب المسطح لابيون البطريق وكتاب جرم الشمس والقمر لارسطرخس وكتاب العمل بذات الحلق وكتاب جداول زيج بطليموس المعروف بالقانون المسير وكتاب العمل بالاسطرلاب وكلها لثاون الاسكندري • غير ما تقدم ذكره من الكتب الرياضية في أثناء ذكر كتب الفلسفة رغبة في ايرادها لاصحابها مع سائر مؤلفاتهم • وقد نقل للمسلمين من كتب الموسيقى عن اليونانية كتاب الموسيقى الكبير لنيقوماخس الجهراسيني وكتاب الموسيقى المنسوب لاقليدس وقد تقدم ذكره ومقالات في الموسيقى لفيثاغورس وغيره — وكتاب الريموس وكتاب الايقاع لارسطكاس وكتاب الآلات المصوتة المسماة بالارغن البوقي والارغن الزمري لمورطس

ونقل لهم من كتب الميكانيكيات غير ماجاء في كتب ارخميدس كتاب الحيل الروحانية وكتاب شيل الاثقال لايرن وكتاب استخراج المياه لبادروغوغيا وكتاب الآلات المصوتة على ستين ميلاً لمورطس

٣ — الكتب المنقولة عن الفارسية

اكثر الكتب المنقولة عن الفارسية في النهضة العباسية من قبيل الآداب والاخبار والسير والاشعار وبعضها في النجوم مما نقله آل نوبخت وعلي بن زياد التيمي وغيرهم • اما مابقي من كتبهم المنقولة الى العربية فهي مع اسماء ناقليها :

١	كتاب رستم واسفنديار	جبلة بن سالم
٢	« بهرامشوس	«
٣	« خداينامه في السير	عبدالله بن المقفع
٤	« آيين نامه	«
٥	« كايلة ودمنة	«
٦	« مزدك	«
٧	« التاج في سيرة انوشروان	«
٨	« الاداب الكبير	«
٩	كتاب الاداب الصغير	عبد الله بن المقفع
١٠	« اليتيمة	«
١١	« هزار افسانه	لم يذكر ناقله
١٢	« شهريزاد مع ابرويز	«
١٣	« الكارنامج انوشروان	«
١٤	« دارا والصنم الذهب	«
١٥	« بهرام ونرسي	«
١٦	« هزاردستان	«
١٧	« الدب والثعلب	«

١٨ سير ملوك الفرس وهي غير كتاب ترجم أحدها محمد بن جهم البرمكي والآخر ترجمه زادويه بن شاهويه الاصفهاني والآخر محمد بن بهرام بن مطيار الاصفهاني [١]

ومما يجب ذكره من مترجمات الفرس وان كان من مؤلفاتهم بعد نشوء التمدن الاسلامي كتاب « شاهنامه » التي نظمها الفردوسي للسلطان محمود الغزنوي سنة ٣٨٤ هـ في نحو ٦٠،٠٠٠ بيت على نسق الياذة هوميروس وقد تضمنت تاريخ الفرس القديم نقلها الى العربية الفتح بن علي البنداري الاصبهاني نثراً للملك المعظم عيسى الايوبي أتم ترجمتها سنة ٦٩٧ هـ [٢] ولا ريب ان العرب نقلوا من اللغة الفارسية كتباً أخرى تاريخية وأدبية وخصوصاً مما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها

٣ — الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغة الهندية (السنسكريتية) كثيراً من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والاسمار والتواريخ • والكتب الطبية المنقولة عنها كثيرة وان لم يصل الينا من اخبارها الا القليل لان بغداد كانت في أبان الزهو العباسي حج العلماء والاطباء والتجار والسياح من كل الملل وكان للبرامكة عناية في استقدام أطباء الهند اليها وقد بعث يحيى بن خالد فاستقدم بضعة صالحة منهم كمنكه وبازيكر وقليرفل وسندباز وغيرهم [٣]

ويظهر مما كتبه المسلمون بعد العصر العباسي في الادب او الطب او الصيدلة او السير أنهم اعتمدوا في جملة مصادرهم على كتب هندية الاصل • راجع قانون ابن سينا مثلاً او المالكي للرازي اوغيرها من كتب الطب الكبرى فتراهم يذكرون بعض الامراض ويشيرون الى ان الهنود يسمونها مثلاً كذا وكذا او يعالجونها بكذا وكذا • واذا قرأت العقد الفريد لابن عبد ربه اوسراج الملوك للطرطوشي او غيرهما من كتب الادب المهمة رأيت مؤلفيها اذا ذكروا بعض الآداب او الاخلاق او نحوها قالوا « وفي كتاب الهند كذا وكذا »

كتب الطب وفروعه

على اننا نعلم مما كتبه صاحب طبقات الاطباء انه اشتهر حوالي العصر العباسي جماعة

(١) رسائل شبلي في اللغة الهندستانية (٢) كشف الظنون ٤٧ ج ٢

(٣) البيان ٤٠ ج ١

من علماء الهند في الطب والنجوم والفلسفة وغيرها منهم كنكه الهندي وهو من متقدميهم واكابرهم وخصوصاً في علم النجوم فضلاً عن الطب وله مؤلفات كثيرة منها كتاب النموذار في الاعمار وكتاب اسرار المواليد وكتاب القرانات الكبير والصغير وكتاب في الطب يجري مجرى الكناش وكتاب في التوهم وكتاب في احداث العالم والدور في القران • ومنهم أيضاً صنجهل وباكهر وغيرهما وقد نقل كثير من مؤلفاتهم في النجوم والطب الى اللغة العربية اما رأساً او بواسطة اللغة الفارسية بأن ينقل الكتاب من الهندي الى الفارسي ثم ينقل من الفارسي الى العربي • منها كتاب سيرك الهندي وقد نقله من الفارسي الى العربي عبد الله بن علي وكتاب آخر في علامات الادواء ومعرفة علاجها أمر يحيى بن خالد البرمكي بنقله • وكتاب في ما اختلف فيه الروم والهند في الحار والبارد وقوى الادوية وكتب أخرى في فروع الطب

ومن مشاهيرهم منكه الهندي المتقدم ذكره بين المترجمين وقد أتى بغداد باشارة يحيى بن خالد لمعالجة الرشيد فشفاه فأجرى عليه الرشيد رزقاً واسعاً وكان منكه يعرف الفارسية أيضاً فكان ينقل من الهندي الى الفارسي وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الاطباء[1] •

ومنهم صالح بن بهلة الهندي جاء العراق في أيام الرشيد أيضاً ونال شهرة واسعة وخالط اطباءها يومئذٍ واختلطوا به فاذا لم يكونوا نقلوا شيئاً من كتبه فلا بد من اقتباسهم شيئاً من أراء الهند عنه

ومن مشاهيرهم ايضاً شاناق وله كتاب في السموم خمس مقالات نقله من اللسان الهندي الى الفارسي منكه الهندي واوعز يحيى بن خالد الى رجل يعرف بابي حاتم البلخي بنقله الى العربي ثم نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهري مولاه • وللجودر الحكيم كتاب في المواليد نقل الى العربي ايضاً

ومن الكتب الطبية التي نقلت من الهندية الى لسان العرب في العصر العباسي غير ما تقدم ذكره[2] : —

١	كتاب سسرد في الطب	نقلهُ منكه
٢	« اسماء عقاقير الهند	« « لاسحق بن سليمان
٣	« استانكر الجامع	« ابن دهن

(١) طبقات الاطباء ٣٣ ج ٢ (٢) الفهرست ٣٠٣

٤	كتاب صفوة النجح	نقله ابن دهن
٥	« مختصر الهند في العقاقير	لم يذكر ناقله
٦	« علاجات الحبالى للهند	« « «
٧	« روسا الهندية في علاجات النساء	« « «
٨	« السكر للهند	« « «
٩	« التوهم في الامراض والعلل	« « «
١٠	« راي الهند في اجناس الحيات وسمومها	« « «

كتب النجوم والرياضيات

اما في الرياضيات والكواكب فللهند شأن كبير وقد ذكرنا خبر السندهند في ما تقدم وكان لنقل هذا الزيج تاثير في علم النجوم عند العرب وقد قلدوه والفوا على مذهبه . وممن الف على هذا المذهب محمد بن ابراهيم الفزاري وحبش بن عبد الله البغدادي ومحمد بن موسى الخوارزمي وغيرهم(١) والفزاري اول من عمل اسطرلاباً في الاسلام(٢) . وما من فلكي من فلكيي المسلمين اراد التوسع في علم النجوم الاَّ وطالع كتبهم اما في اللغة الهندية او في ترجمتها الى العربية . واكثر المسلمين عناية في ذلك واطلاعاً على آداب الهند وعلومهم ابو ريحان البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ فانه طاف بلاد الهند واطلع على علومهم وآدابهم ثم الَّف كتابه « الآثار الباقية عن القرن الخالية » وله من المؤلفات ما يعدُّ بالعشرات ومنها كثير في علوم الهند اما ترجمة او تصحيحاً او نقداً ومما ذكره من كتبه التي الفها في هذا الصدد قوله :

« وعملت في السندهند كتاباً سميته جوامع الموجود لخواطر الهنود في حساب التنجيم جاء ما تمَّ منه ٥٥٠ ورقة . وهذبت زيج الاركند وجعلته بالفاظي اذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة والفاظ الهند فيها متروكة لحالها . وعملت كتاباً في المدارين المتحدين والمتساويين وسميته بخيال الكسوفين عند الهند وهو معنى مشتهر فيما بينهم لا يخلو منه زيج من ازياجهم وليس بمعلوم عند اصحابنا . وعملت تذكرة في الحساب والعد بارقام السند والهند في ٣٠ ورقة . وكيفية رسوم الهند في تعلم الحساب وتذكرة في ان راي العرب في مراتب العدد اصوب من راي الهند فيها . وفي راسكيات الهند وترجمة ما في ابرهم سدهاند من طرق الحساب . ومقالة في تحصيل الآن من الزمان عند الهند . ومقالة في الجوابات على المسائل الواردة من منجمي الهند . ومقاله في حكاية طريقة الهند في استخراج العمر .

(١) تراجم الحكماء (خط) (٢) الفهرست ٢٧٣

وترجمة كلب باره وهي مقالة للهند في الامراض التي تجري مجرى العفونة » وغير ذلك فيؤخذ من هذا ان الهنود اهل علم وراي في النجوم وعلومها وان المسلمين نقلوا عنهم شيئاً كثيراً

كتب الادب

واما كتب الهند في الأدب والتاريخ والمنطق والاسمار والخرافات مما نقل الى العربية فاولها كتاب كليلة ودمنة وقد نقل عن طريق الفارسية كما تقدم وبعد نقله الى العربية نظموه شعراً كما نظمهُ الفرس من قبلهم . وممن نظمه في العربية ابان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير الرقاشي وعلي بن داود . (٢) كتاب سندباد الكبير (٣) كتاب سندباد الصغير (٤) كتاب البد (٥) كتاب يوذاسف (٦) يوذاسف مفرد (٧) كتاب ادب الهند والصين (٨) كتاب هابل في الحكمة (٩) كتاب الهند في قصة هبوط آدم (١٠) كتاب طرق (١١) كتاب دبك الهندي في الرجل والمرأة (١٢) كتاب حدود منطق الهند (١٣) كتاب ساديرم (١٤) كتاب ملك الهند القتال والسباح (١٥) كتاب بيدبا في الحكمة [1]

ومما نقله العرب من الهنود كتابٌ في الموسيقى اسمه في الهندية (بيافر) ومعناه ثمار الحكمة وفيه اصول الالحان وجوامع تأليف النغم [2]

٤ — الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت في ما تقدم كتباً كثيرة فلسفية وطبية نقلت من اليوناني الى العربي بواسطة اللغة السريانية اخت النبطية او هي عينها فلا نتعرض لذكرها . وانما المراد بهذا الباب الكتب التي كانت مكتوبة في اللغة الكلدانية او النبطية ونقلت الى العربية رأساً ولولا نقلها لضاعت . واهم تلك الكتب كتاب الفلاحة النبطية فانه فريد في بابه وقد نقله الى العربية احمد بن علي بن المختار النبطي المعروف بابن وحشية سنة ٢٩١ ﻫ وظل معتمد اهل الزراعة الى امد غير بعيد وقد نقل الى اللغات الافرنجية ولولا نقله الى العربية لضاع وخسره العالم كما يؤخذ من مطالعة مقدمته فقد قال ابن وحشية وهو يملي الكتاب على علي بن محمد ابن الزيات سنة ٣١٨ ﻫ « اعلم يابني اني وجدت هذا الكتاب في كتب الكسدانيين (الكلدان او النبط) يترجم معناه في العربية كتاب فلاحة الارض واصلاح الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها . وكان هؤلاء الكسدانيون اشد غيرة عليها لئلا يظهر هذا الكتاب

---

(١) الفهرست ٣٠٥ (٢) تراجم الحكماء (خط)

فكانوا يخفونه بجهدهم . وكان الله عزَّ وجل قد رزقني المعرفة بلغتهم ولسانهم فوصلت الى ما اردت من الكتب بهذا الوجه . وكان هذا الكتاب عند رجل متميز فاخفى عني علمه فلما اطلعت عليه لمته في اخفاء الكتاب عني وقلت له انك ان اخفيت هذا العلم دثر ومضى ولا يبقى لاسلافك ذكر وما يصنع الانسان بكتب لا يقرأها ولا يخلي من يقراها فهي عنده بمنزلة الحجارة والمدر . فصدقني في ذلك وأخرج اليَّ الكتب فجعلت انقل كتاباً بعد كتاب . فكان اول كتاب نقلته كتاب دواناي البابلي في معرفة اسرار الفلك والاحكام على حوادث النجوم وهو كتاب عظيم المحل ونقلت كتاب الفلاحة هذا بتمامه الخ »[1] (٢) كتاب طرد الشياطين و يعرف بالاسرار (٣) كتاب السحر الكبير (٤) كتاب السحر الصغير (٥) كتاب دوار على مذهب النبط (٦) كتاب مذاهب الكلدانيين في الاصنام (٧) كتاب الاشارة في السحر (٨) كتاب اسرار الكواكب (٩) كتاب الفلاحة الصغير (١٠) كتاب في الطلسمات (١١) كتاب الحياة والموت في علاج الامراض (١٢) كتاب الاصنام (١٣) كتاب القرابين (١٤) كتاب الطبيعة (١٥) كتاب الاسماء واكثرها من نقل ابن وحشية[2] غير ما لا بدَّ من نقله من كتب الدين واخبار الكلدان القدماء

٥ — الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية والقبطية

لاريب ان كثيراً من تعاليم اليهود وآدابهم المدونة في التلمود وغيره من كتبهم قد نقل الى العربية وان كنا لا نرى شيئاً منها مدوناً بصفة ترجمة لانهم كانوا ينقلونها شفاهاً للصحابة وغيرهم على ماتقدم وربما دونوا منها شيئاً وضاع . واما ما وصل الينا خبره من المنقول عن العبرانية فترجمة اسفار التوراة نقلها سعيد الفيومي المتوفى سنة ٣٣٠ ﻫ وهو اقدم من نقل التوراة الى العربية مما وصل الينا خبره وله ايضاً شروح وتفاسير عليها[3]

ولايبعد ان يكون قد نقل الى العربية بعض الكتب عن اللاتينية لانها كانت تحوي كثيراً من العلوم الفلسفية والتاريخية والشرعية وغيرها وربما فات نقلة الاخبار ذكر مانقل عنها . وقد رأينا في جملة المترجمين يحيى بن البطريق لايعرف غير اللغة اللاتينية وانه ترجم عدة كتب فالظاهر انه ترجمها عن اللاتينية

وأما القبطية فاذا لم ينقل العرب عنها رأساً فلا نشك في انهم نقلوا كثيراً من علوم

(١) كتاب الفلاحة النبطية (خط) (٢) الفهرست ٣١٣ (٣) الفهرست ٢٣

المصريين بواسطة اللغة اليونانية وخصوصاً صناعة الكيمياء القديمة وغيرها مما برع فيه المصريون وأما الكيمياء فقد نقلت عن القبطي واليوناني معاً بأمر خالد بن يزيد (١)

الخلاصة

وفي الجملة فان المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والادبيات عند سائر الامم المتمدنة في ذلك العهد ولم يغادروا لساناً من السن الامم المعروفة اذ ذاك لم ينقلوا منه شيئاً وان كان اكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية · فاخذوا من كل امة احسن ما عندها فكان اعتمادهم في الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان · وفي النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس · وفي الطب (الهندي) والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والاقاصيص على الهنود · وفي الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الانباط والكلدان · وفي الكيمياء والتشريح على المصريين فكانهم ورثوا اهم علوم الاشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان وقد مزجوا ذلك كله وعجنوه واستخرجوا منه علوم التمدن الاسلامي (الدخيلة)

ومما نلاحظه من امر ذلك النقل ان العرب مع كثرة ما نقلوه عن اليونان لم يتعرضوا لشيء من كتبهم التاريخية او الادبية او الشعر مع انهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود فقد نقلوا جملة صالحة من تواريخ الفرس واخبار ملوكهم وترجموا الشاهنامة · ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودوتس ولا جغرافية استرابون ولا الياذة هوميروس ولا اوذيسيته · والسبب في ذلك ان اكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبتهم في الفلسفة والطب والنجوم والمنطق لاسباب تقدم بيانها واما التواريخ والاداب فقد كان التراجمة ينقلونها غالباً من عند انفسهم حباً في اظهار مآثر اسلافهم او جيرانهم فالمترجمون الفرس نقلوا شيئاً من تواريخ الفرس وادابهم وكذلك فعل التراجمة السريان باداب اجدادهم وكذلك التراجمة الهنود · فلو كان في اولئك المترجمين واحد او غير واحد من اليونان لنقلوا كثيراً من تواريخ امتهم واشعارها · ولا ريب ان من جملة ما منعهم من نقل الالياذة الى العربية ذكر الآلهة والاصنام فيها ولكن في الشاهنامة ايضاً كثيراً من ذلك فلم يمنعهم من نقلها

ويلاحظ ايضاً ان العرب نقلوا من علوم تلك الامم في قرن وبعض القرن ما لم يستطع الرومان بعضه في عدة قرون وذلك شأن المسلمين في اكثر اسباب تمدنهم العجيب

(١) الفهرست ٢٤٢

محاسنة الخلفاء للعلماء غير المسلمين

ومن العوامل الفعالة في سرعة نضج العلم في النهضة العباسية وكثرة ما ترجم في تلك المدة القصيرة ان الخلفاء اصحاب تلك النهضة كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في سبيل نقل الكتب و يرغبون النقلة وغيرهم بالبذل والاكرام والمحاسنة بقطع النظر عن مللهم او نحلهم او انسابهم وقد كان فيهم النصراني واليهودي والصابي والسامري والمجوسي . فكان الخلفاء يعاملونهم كافة بالرفق والاكرام مما يصح ان يكون مثالاً للاعتدال والحرية وقدوةً لولاة الامور في كل العصور

بلغ من اكرام المنصور لطبيبه جورجيس بن بختيشوع [1] حتى امر ان يحضروا له المشروب وهو محرم في الاسلام — وذلك انه رأى وجهه يتغير على اثر اقامته في بغداد فقال المنصور لحاجبه الربيع « أرى هذا الرجل قد تغير وجهه لا يكون قد منعته مما يشربه على عادته » قال الربيع « لم نأذن له ان يدخل الى هذه الدار مشروباً » فأجابه المنصور بقبيح وقال « لابد ان تمضي بنفسك حتى تحضره من المشروب كل ما يريده » فمضى الربيع الى قطربل وحمل منها اليه غاية ما امكنه من الشراب الجيد [2] وكان ذلك شأن المنصور مع اكثر اطبائه حتى كان يستشير بعضهم في اهم الامور — فلما طلب اهل خراسان عقد البيعة لابنه المهدي كان من اطبائه طبيب يهودي اسمه فرات بن شحاثا وكان حاضراً فقال له المنصور « ماتقول يافرات » فأشار عليه بما يراه

و بلغ من اكرام الرشيد لطبيبه جبريل بن بختيشوع انه دعا له وهو في الموقف بمكة دعاء كثيراً فانكر عليه بنو هاشم ذلك وقالوا « ياسيدنا ذمي » فقال « نعم ولكن صلاح بدني وقوامه به « وصلاح المسلمين بي فصلاحهم بصلاحه و بقائه» فقالوا صدقت يا امير المؤمنين [3] »

اما المامون فلطفه واكرامه العلماء اشهر من ان يذكر

وكثيراً ما كان الخلفاء يطلقون ايدي اطبائهم في دورهم و يستشيرونهم في مهام امورهم الادارية والسياسية وربما كلفوهم التوقيع عنهم . فكان المعتصم قد استطبَّ سلمويه بن بنان النصراني وبلغ من اكرامه اياه انه كان اذا ورد الى الخليفة كتاب يقتضي توقيعاً وكان سلمويه حاضراً امره ان يوقع عنه بخطه . وكل ما كان يرد على الامراء والقواد من خروج

(١) و يقال ايضاً جورجيس بن جبرئيل (٢) طبقات الاطباء ١٢٤ ج ١

(٣) طبقات الاطباء ١٣٠ ج ١

امر او توقيع من الخليفة فبخط سلمويه . وكذلك كان شان داود بن ديلم مع المعتضد[1]
ومن ادلة اكرام المعتصم لسلمويه انه ولّى اخاه ابراهيم بن بنان خزن بيوت الاموال في البلاد
وخاتمه مع خاتم الخليفة ولم يكن احد عنده مثل سلمويه واخيه في المنزلة . وكان المعتصم يدعو
سلمويه « ابي » وكان اذا قرب الفصح او غيره من اعياد النصارى اذن له بالذهاب الى بلده
القادسية ليقيم في كنيستها ويتقرب ويزوده بالاكسية والمسك والبخور . ولما اعتل سلمويه
عاده المعتصم وبكى عنده وقال له « تشير عليَّ بعدك بما يصلحني » فاشار عليه بيوحنا بن
ماسويه . فلما مات سلمويه امتنع المعتصم من اكل الطعام يوم موته وامر بان تحضر جنازته
الدار ويصلى عليه بالشمع والبخور على زي النصارى الكامل ففعلوا وهو بحيث يبصرهم
ويباهي في كرامته[2]

وكذلك كان المتوكل والمهتدي وغيرهم في اكرام الاطباء وتقديمهم والاحسان اليهم
وكانوا اذا حضروا مجلس الخليفة جلسوا معه على السدة[3] وربما جلس الطبيب والوزراء والامراء
وقوف كما كان شان ثابت بن قرة الصابي مع المعتضد بالله[4] . وكانت مواكبهم اذا ركبوا
مثل مواكب الامراء والوزراء . وكان الخلفاء يمازحونهم ويماجنونهم وهم اول من يدخل
عليهم للنظر في ما يحتاجون اليه مما يصلح ابدانهم او يختارون لهم الاطعمة المناسبة . ولم
يكن الخليفة يتناول دواءً الاّ باذن طبيبه فاذا فعل ولم يستاذنه جرَّ عليه غضب الطبيب
واضطرَّ لاسترضائه . ذكروا ان المتوكل احتجم مرة بغير اذن طبيبه اسرائيل بن الطيفوري
فغضب اسرائيل فافتدى الخليفة غضبه بثلاثة آلاف دينار وضيعة تغلُّ في السنة ٥٠,٠٠٠
درهم[5] وكان جبرائيل الكحال اول من يدخل على المامون بعد الصلاة فيغسل اجفانه
ويكحل عينيه فاذا انتبه من قائلته فعل مثل ذلك[6]

وطبيعي ان يانس الانسان بطبيبه ويكرمه وخصوصاً في دور الخلفاء في ذلك العصر
والمطالبون بالخلافة كثيرون ومن اقرب الطرق الى نيل مطالبهم ان يقتلوا الخليفة بالسم
وذلك هين على الطبيب . وكثيراً ما كانوا يخافون ذلك من ملوك الروم . فكان الخلفاء
يخافون ان يفعل الاطباء ذلك طمعاً بمال او منصب فكانوا يبذلون الجهد في ان يملأوا جيوبهم
وعيونهم وقلوبهم . وكثيراً ما كانوا يمتحنون امانتهم وسلامة ذمتهم قبل التسليم لهم كما فعل

(١) طبقات الاطباء ٢٣٤ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٦٥ ج ١
(٣) ابو الفرج ٢٤٩ (٤) طبقات الاطباء ٢١٦ ج ١
(٥) طبقات الاطباء ١٥٧ ج ١ (٦) طبقات الاطباء ١٧١ ج ١

المتوكل بحنين بن اسحق لما اراد ان يستطبه وقد خافه على نفسه فبعث اليه فلما حضر اقطعه اقطاعاً سنياً وقرّر له جارياً وخلع عليه ثم قال له « اريد ان تصف لي دواء يقتل عدّوا نريد قتله سرّا » فقال حنين « ما تعلمت غير الادوية النافعة ولا علمت ان امير المؤمنين يطلب مني غيرها فان احب ان امضي واتعلم فعلت » فقال « هذا شيء يطول بنا » ثم رغبهُ وهدّدهُ وحبسه في بعض القلاع سنة ثم احضره واعاد عليه القول واحضر سيفاً ونطعاً وهدّدهُ بالقتل فقال « لي ربٌّ ياخذ لي حقي غداً في الموقف العظيم » فتبسم المتوكل واخبره انه اراد امتحانه (١)

ولنفس هذا السبب كان الخلفاء يوجبون على اطبائهم النصارى او غيرهم التمسك بطقوس دياناتهم (٢) ويكرمون اهل تلك الاديان من اجلهم . فقد كان ثابت بن قرة صابئيًّا فلما نال حظوة عند المعتضد تجددت الرئاسة للصابئة في مدينة السلام . وقلما كانوا يريدونهم على الاسلام الا نادراً كما اراد القاهر بالله سنان بن ثابت المذكور فهرب ثم اسلم خوفاً منه . على ان الصابئة كثيراً ما كانوا يصومون شهر رمضان مع المسلمين كما كان يفعل ابو اسحق الصابي الكاتب المشهور في ايام عز الدولة ومع ذلك فلما اراده عز الدولة على الاسلام لم يفعل لانه كان متمسكا بدينه . والصابي هذا هو الذي رثاه الشريف الرضي بقصيدته الدالية التي مطلعها (٣)

ارايت من حملوا على الاعواد   ارايت كيف خبا ضياء النادي

ولم يمنعه شرفهُ في الاسلام من هذا الرثاء — ويدلك ذلك على ان التعصب او التساهل انما يكون مصدرهما من صاحب الامر والنهي فاذا كان الامير معتدلاً او متعصباً كانت رعيته مثله . ولذلك فقد كان التساهل في عصر النهضة العباسية شاملاً على الخصوص اهل الخلفاء واهل الوجاهة والعلم . ولم يكن العالم المسلم يستنكف ان ياخذ العلم عن نصراني حتى الفارابي الفيلسوف الكبير فقد اخذ بعض علمه عن احد نصارى حران (٤) وكان النصارى من الجهة الاخرى لا يستنكفون من قراءة التوراة والانجيل على فقيه مسلم (٥)

اما بذل الاموال للاطباء فلا حاجة الى ذكره لشهرته ومن مراجعة ثروة جبريل بن بختيشوع في الجزء الثاني من هذا الكتاب كفاية . فضلاً عما كانوا يكسبونهم من الاموال غير الرواتب فان المامون امر ان كل من يتقلد عملاً لا يخرج الى عمله الا بعد ان يلقى

(١) ابو الفرج ٢٥١   (٢) طبقات الاطباء ١٩ ج ١

(٣) ابن خلكان ١٣ ج ١ (٤) ابن خلكان ٧٦ ج ٢ (٥) ابن خلكان ١٣٣ ج ٢

طبيبه جبريل و يكرمه . وللمامون شعر فيه :

انى طبك يا جبريـ ـل ما يشفي ذوي العلة
غزال قد سبى عقلي بلا جرم ولا زلة [1]

فكيف لا يزهو العلم و يزهر ويثمر في ظل هؤلاء

ولم تكن تلك المحاسنة خاصة بالنهضة العباسية بل كانت تتناول كل دولة نهضت للعلم فالدولة الفاطمية بمصر كان اكثر اطبائها من النصارى واليهود والسامريين وكانت لهم عندهم منزلة الاطباء في الدولة العباسية فكانوا يغدقون عليهم الاموال و يولونهم الوظائف والمناصب و يستشيرونهم و يكرمونهم و يلقبونهم بالقاب الشرف كسلطان الحكماء وامين الدولة ومعتمد الملك [2] ويخاطبونهم كما يخاطبون الامراء والوزراء . كان طبيب العزيز بالله الفاطمي نصرانياً اسمه منصور بن مقشر فاعتل الطبيب وتأخر عن الركوب فلما تماثل كتب اليه الخليفة العزيز بخط يده « بسم الله الرحمن الرحيم على طبيبنا سلمه الله سلام الله الطيب واتم النعمة عليه . وصلت الينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب و برئه والله العظيم لقد عدل عندنا مارزقناه نحن من الصحة في جسمنا اقالك الله العثرة واعادك الى افضل ما عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته » [3]

و يقال نحو ذلك في دولة الاندلس فقد كان للاطباء والعلماء في ايام الحكم بن الناصر ما كان لهم في ايام المامون لمشابهة بين الخليفتين فقد كان الحكم محباً للعلم والعلماء جماعاً للكتب كما سيأتي . على ان حال هؤلاء العلماء كانت تختلف باختلاف الخلفاء واختلاف العصور

انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الاسلامية

لم تكد العلوم الدخيلة تنقل الى العربية حتى اخذ المسلمون في درسها والاشتغال بها . وكان اشتغالهم في بادىء الراي على سبيل التلخيص او الشرح او التعليق حتى اذا نضج تمدنهم وانتشرت العلوم في البلاد للاسباب الآتية اخذ المسلمون في التاليف من عند انفسهم و بعد ان كانت العلوم في القرنين الاولين نقلية انما تحتاج الى الاذخار في الذاكرة اصبحت في القرنين التاليين وما بعدهما عقلية عمدتها النظر والقياس والتحليل والتركيب

(١) طبقات الاطباء ١٣٨ ج ١ (٢) تراجم الحكماء (٣) ابو الفرج ٣١٦

وكانت بغداد كعبة العلم وحج العلماء ومنبت اهل الفضل ومقرّ نقلة العلم في اثناء النهضة العباسية وخصوصاً في ايام المامون . حتى اذا تولى المعتصم واستكثر من الاتراك وظهرت منهم الاساءة لاهل بغداد نفر الناس وتباعدت القلوب ولكن المعتصم كان على مذهب اخيه المامون في الاعتزال واكرام الشيعة فظلت بغداد على نحو ما كانت عليه في ايام المامون . وكان الواثق يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته وكان يعقد المجالس مثله للمباحثة بين الفقهاء والمتكلمين في انواع العلوم العقلية والسمعية في جميع الفروع [1]

فلما توفي الواثق سنة ٢٣٣ هـ خلفه أخوه جعفر المتوكل وكان شديد الانحراف عن الشيعة والمعتزلة حتى أمر بهدم قبر الحسين بن علي وما حوله من المنازل ومنع الناس من اتيانه وكان كثير الاستهزاء بعلي [2] وكان يجالس من اشتهر ببغضه . وخالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد فابطل القول بخلق القرآن ونهى عن الجدل والمناظرة في الآراء وعاقب عليه وأمر بالرجوع الى التقليد ونصر السنة والجماعة وأمر الشيوخ والمحدثين بالتحديث فانحط علم الكلام بعد ان بلغ رونقهُ في أيام الرشيد وخلفائه فاخذ في التقهقر في أيام المتوكل لانهُ كان شديد الوطأة على أصحاب الرأي واصحاب الفلسفة وسائر العلوم الدخيلة . وأخذ منذ تولى الخلافة في مناوأتهم فاهلك جماعة من العلماء وحط مراتبهم وعادى العلم واهلهُ ولاقى أهل الذمة منهُ الشدائد بتغيير زيهم وتذليلهم واهانتهم [3] .

ومن اشهر حوادث نقمته على خدمة العلم انهُ غضب على بختيشوع الطبيب وقبض ماله ونفاه الى البحرين وقتل ابا يوسف يعقوب المعروف بابن السكيت [4] وسخط على عمر بن مصرح الراجحي وكان من علية الكتاب وأخذ منهُ مالاً وجوهراً وأمر أن يصفع في كل يوم فاحصي ما صفع به فكان ستة آلاف صفعة [5]

ومات المتوكل مقتولاً سنة ٢٤٧ هـ قتلهُ رجالهُ بتحريض ابنه فاضطربت احوال الخلافة واستفحل شأن الاتراك فنفرت قلوب طلبة العلم واكثرهم من الفرس والعرب فتفرقوا من بغداد رويداً رويداً الى انحاء المملكة الاسلامية شرقاً وغرباً ولذلك كان اكثر من ظهر من العلماء بعد نضج العلم في القرن الرابع للهجرة فما بعده انما نبغوا خارج بغداد وفيهم الاطباء والفلاسفة والمنجمون والمهندسون والمتكلمون وأصحاب المنطق

(١) المسعودي ٢٦١ و٣٦٧ ج ٢ (٢) ابوا الفداء ٤٠ ج ٢
(٣) تاريخ المشارقة (خط) (٤) ابو الفداء ٤٣ ج ٢ (٥) المسعودي ٢٦٩ ج ٢

والفقهاء واللغويون وغيرهم

فكان مركز الطب والطبيعيات والفلسفة عند ظهور الاسلام في الاسكندرية ثم انتقل في أيام عمر بن عبد العزيز في آخر القرن الأول للهجرة الى انطاكية • وكان مركز العلوم الاسلامية في أول الاسلام في المدينة ثم انتقل الى البصرة ومنها الى الكوفة • فلما بنيت بغداد انتقلت اليها تلك العلوم ثم انضمت اليها العلوم الدخيلة فاصبحت بغداد أم المدائن في العلم والادب والفلسفة والطب وسائر العلوم العقلية والنقلية • فلما اضطربت أحوال الخلافة في أيام المتوكل ثم نشأت الدول الجديدة في انحاء المملكة الاسلامية بالتفرع والتشعب على مقتضى ناموس الارتقاء تفرق العلماء وأصبح للعلم مراكز كثيرة قد يتفاضل بعضها على بعض • وتدرج الانتقال من بغداد أولاً الى العراق العجمي فخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة وما اليها من المغرب والاندلس

وربما كانت الاندلس اسبق من سواها الى الادب والشعر لانها ورثت دول المشرق في ذلك فاصبحت قرطبة في الدولة المروانية قبة الاسلام ومجتمع العلماء واليها كانت الرحلة في رواية الشعر ومناشدة الشعراء [1] وهي في ذلك وفي غيره مديونة لبغداد وخصوصاً في العلوم الدخيلة • فان الموسيقى نقلت اليها من بغداد على يد زرقون وعلون دخلا في أيام الحكم بن هشام [2] • وأما الفلسفة فقد دخلتها في عهد عبدالرحمن الاوسط المعاصر للمأمون وازدهت في أيام الحكم بن الناصر [3] اما الطب فدخل المغرب ثم الاندلس على يد اسحق بن عمران أصله من بغداد ورحل الى المغرب ونقل الطب معه [4] في اوائل القرن الثالث • على ان أطباء الاندلس ومصر ما زالوا حيناً من الدهر يرحلون في اتقان الطب وغيره من العلوم الدخيلة الى بغداد • حتى يهود الاندلس فقد كانوا يستخرجون فقههم من يهود بغداد [5] ويقال نحو ذلك في سائر بلاد الاسلام

وبالجملة فان بذور العلم التي القاها خلفاء النهضة العباسية في بغداد ظهرت ثمارها في خراسان والري وخوزستان واذربيجان وماوراء النهر وفي مصر والشام والاندلس وغيرها • وظلت بغداد مع ذلك رافلة بالعلماء بقوة الاستمرار وبما فيها من أسباب الثروة ولانها

---

(١) نفح الطيب ٢١٧ ج ١ (٢) نفح الطيب ٧٥٣ ج ٢

(٣) طبقات الاطباء ٦٢ ج ٢ (٤) طبقات الاطباء ٣٦ ج ٢

(٥) طبقات الاطباء ٥٠ ج ٢

مركز الخلافة • فنبغ فيها جماعة من أهل العلم المسلمين فضلاً عن الاطباء النصارى الذين كانوا يخدمون الخلفاء في التطبيب والترجمة

على أن أكثر العلماء غير المسلمين الذين نبغوا فيها بعد تلك النهضة كانوا يتقاطرون اليها من انحاء جزيرة العراق وغيرها لخدمة الخلفاء • اما المسلمون فالغالب ان يكون ظهورهم خارج العراق لا سيما وان أكثر ملوك الدول الجديدة التي تفرعت من الدولة العباسية اقتدوا بخلفاء النهضة العباسية في ترغيب أهل العلم واستقدامهم الى عواصمهم في القاهرة وغزنة ودمشق ونيسابور واصطخر وغيرها • فالرازي من الري وابن سينا من بخارى في تركستان والبيروني من بيرون في بلاد السند وابن جلجل النباتي من أهل الاندلس وكذلك ابن باجة الفيلسوف وابن زهر الطبيب واقاربه آل زهر وابن رشد وابن الرومية النباتي وكلهم من الاندلس

اما مصر فاكثر اطبائها المشاهير من النصارى واليهود والسامريين وقد نبغ فيها ابن الهيثم من أهل الفلسفة والطبيعيات وعلي بن رضوان الطبيب الشهير والشيخ السديد رئيس الاطباء ورشيد الدين ابو حليقة الطبيب الفيلسوف وضياء الدين ابن البيطار النباتي الشهير • أما الشام فقد نبغ منها الفارابي الفيلسوف وابو المجد بن ابي الحكم وشهاب الدين السهروردي وموفق الدين البغدادي الرحالة ناهيك بعدد عديد من النصارى الذين خدموا الخلفاء والامراء في الطب والفلسفة وغيرها ممن نبغ في الشام

ويقال نحو ذلك في علماء العلوم الاسلامية كالفقهاء والمحدثين واللغويين والشعراء فانهم مع بقاء بغداد آهلة بهم فقد ظهر جماعة كبيرة منهم في خارجها وألقابهم تدل على اماكنهم كالبخاري والشيرازي والنيسابوري والسجستاني والفرغاني والبلخي والخوارزمي والفيروزابادي والحموي والدمشقي والفيومي والسيوطي والقرطبي والاشبيلي وغيرهم

الخلفاء والامراء والعلم

اشتغال الخلفاء والامراء بالعلم

فلا غرو اذا احتفى الخلفاء والامراء باهل العلم وحاسنوهم وهم انفسهم كانوا من طلبة العلم ومريديه واذا كان الملك أو الامير عالماً زها في أيامه العلم وسعد خدمته • ومن شروط الخلافة في الاسلام ان يكون الخليفة عالماً بالامور الشرعية ولذلك كان الخلفاء في الغالب عالمين بها يعقدون المجالس للنظر فيها ويقربون الفقهاء والمحدثين وتطرقوا من ذلك

الى الرغبة في النحو واللغة والتاريخ لارتباط تلك العلوم بعضها ببعض — والعلم مترابط يطلب بعضه بعضاً · فلما أقاموا في العراق واحاط بهم اهل العلوم الطبيعية والفلسفة والنجوم من السريان والفرس واطلعوا على شيء من تلك العلوم تاقت انفسهم اليها واشتغلوا بها وكان ذلك الاشتغال باعثاً على استنارة الخلفاء والامراء فنبغ من ذلك العصر فما بعده جماعة من الخلفاء انتظموا في سلك أهل العلم الطبيعي فضلاً عن الادبي

واعلم خلفاء بني العباس المامون فقد كان عالماً بالشرع واللغة والنجوم والفلسفة والمنطق ويقابله في الدول الاسلامية الاخرى الحكم بن الناصر الاموي في الاندلس (توفي سنة ٣٦٦هـ) والحاكم بامر الله الفاطمي في مصر (توفي سنة ٤١١هـ)· اما الحكم فقد كان مع رغبته في العلم جماعاً للكتب يبذل الاموال في استجلابها من الاقطار · واما الحاكم فقد كان عالماً بالنجوم وبنى مرصداً وانشأ مكتبة كما سياتي · وكذلك كان عبد الرحمن الاوسط امير الاندلس المتوفى سنة ٢٣٨ هـ[(١)] وهو اول من وصلت اليه كتب الفلسفة من امراء الاندلس واطلع عليها وتظاهر بها اقتداءً بالمامون لقرب عهده منه · اما قبلهما فلم يكن احد من الخلفاء يعرف الفلسفة واذا عرفها فلا يجسر على التظاهر بها ولكنهم كانوا يعرفون النجوم و يشتغلون بها كما فعل المنصور والرشيد · اما بعد النهضة العباسية فقد تظاهر بعض الخلفاء بالفلسفة والعلم الطبيعي

اما الادب والشعر فكان للخلفاء حظ وافر منهما وقد ذكرنا بباب الشعر من اشتغل به منهم — اما الادب فقد كان السفاح تعجبه المحادثة ومفاخرات العرب من نزار واليمن[(٢)] وكان المنصور صاحب اخبار وآداب وله كتاب فيها[(٣)] وكان الهادي يجالس الادباء يقصون عليه الاخبار والاشعار · وابن المعتز اول من الف بعلم البديع[(٤)] وابراهيم بن المهدي كان من علية اهل الادب والشعر · ويقال نحو ذلك في بني حمدان في حلب و بني عباد في الاندلس وبني بويه في بغداد

وكان هؤلاء الخلفاء او الامراء يقدمون اهل العلم ويستوزرونهم · ومن الوزراء العلماء يحيى بن خالد وزير الرشيد و يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله بمصر وكذلك كان اكثر الوزراء في الدولة العباسية وغيرها

واذا كان السلطان من اهل العلم فلا غرو اذا كثر العلماء في عصره وزها العلم على

---

(١) نفح الطيب ١٦٤ ج ١ (٢) المسعودي ١٥٩ ج ٣
(٣) البيان ١٥٤ ج ٣ (٤) ابن خلكان ٢٥٨ ج ١

يده لان الناس على ما يريد ملوكهم وخصوصاً في الحكم المطلق لان الافكار تتجه الى ارضاء الحاكم المطلق فيشتغلون بما يرضيه — قال اسامة بن معقل « كان السفاح راغباً في الخطب والرسائل يصطنع اهلها ويثيبهم عليها فحفظت الف رسالة والف خطبة طلباً للحظوة عنده فنلتها . وكان المنصور بعده معنياً بالاسمار والاخبار وايام العرب يدني اهلها ويجيزهم عليها فلم يبق شيء من الاسمار او الاخبار الاّ حفظته طلباً للقربى منه . وكان موسى الهادي مغرماً بالشعر يستخلص اهله فما تركت بيتاً نادراً ولا شعراً فاخراً ولا نسيباً سائراً الاّ حفظته ولم ارَ شيئاً أدعى الى تعلم الآداب غير رغبة الملوك في اهلها وصلاتهم عليها »[1]

تاليف الكتب للخلفاء والامراء

وهذا هو الواقع في كل عصر وكل دولة . فالمامون لو لا حبه العلم واحرازه شيئاً منه لم يقدم على ترجمة الكتب وقد كان يعقد المجالس للمناظرة والمحاورة وهو الذي امر الفراء بجمع اصول النحو واخلاه في غرفة واطلق له الاموال[2] . فزها العلم في ايامه وخصوصاً الفلسفة لانه كان يحبها . وما من امير ولا ملك محب للعلم الاّ اجتمع العلماء حوله والفوا له الكتب في ما يحبّه من فروع العلم وهو يجيزهم عليها . فمحمد بن اسحق الراوية الشهير الف كتاب المغازي للمنصور وهو في الحيرة[3] وابن بكار الف كتاب الاخبار المعروف بالموفقيات للموفق بالله[4] والرازي الف كتابه المنصوري باسم المنصور بن اسحق . ولما تولّى عضد الدولة ابن بويه دار السلام قرب اليه اهل العلم فقصدوه من كل بلد وصنفوا له كتاب الايضاح في النحو وكتاب الحجة في القراءات وكتاب الملكي في الطب والتاجي في تاريخ الديلم وغيرها[5] وسعيد بن هبة الله الطبيب الف كتاب المغني في الطب للمقتدي بامر الله[6] وقد يؤلفون الكتب للوزراء والامراء فقد ألف الحريري مقاماته لانوشروان وزير المسترشد[7] والف جبريل بن عبيدالله بن بختيشوع كتاب الكافي بلقب الصاحب بن عباد لمحبته له . وقس على ذلك كثيرين الفوا الكتب باسماء الخلفاء او الامراء او الوجهاء . والغالب ان يكون الغرض من ذلك الطمع بالعطايا الوافرة وكانوا ينالون شيئاً كثيراً منها . فالمنصور الاندلسي أثاب على كتاب الفصوص بخمسة آلاف دينار[8] والفردوسي نظم الشاهنامة للسلطان محمود الغزنوي على ان يعطيه على كل بيت ديناراً فبلغت ٦٠,٠٠٠ بيت

(١) كتاب البلدان للهمذاني ١ (٢) طبقات الادباء ١٢٧
(٣) ابن خلكان ٤٨٣ ج ١ (٤) المسعودي ٢٤١ ج ٢ (٥) ابو الفداء ١٢٩ ج ٢
(٦) طبقات الاطباء ٢٥٥ ج ١ (٧) الفخري ٢٧٤ (٨) نفح الطيب ٧٢٨ ج ٢

على انهم لم يكونوا يجيزون على تأليف الكتب اعتباطاً وانما كانوا ينظرون فيها فاذا لم يتوسموا بها نفعاً نبذوها وربما عاقبوا مؤلفيها . فابو بكر الرازي الطبيب الّف للمنصور ابن اسحق المذكور كتاباً في صناعة الكيمياء فاجازه عليه بالف دينار ولكنه طالبه باثبات مافيه فلما عجز عن ذلك قال له المنصور « ما اعتقدت ان حكيماً يرضى بتخليد الكذب في كتب ينسبها الى الحكمة يشغل قلوب الناس بها . وقد كافأتك على قصدك وتعبك بالالف دينار ولا بد من معاقبتك على تخليد الكذب » ثم امر ان يضرب بالكتاب على رأسه حتى يتقطع ثم جهزه وارجعه الى بغداد[1]

وكان بعض الامراء والسلاطين يتفاخرون بتقريب العلماء وتأليف الكتب باسمائهم وخصوصاً بالاندلس بعد ذهاب دولة بني امية منها وقيام دول الطوائف . فانهم كانوا يقلدون الخلفاء في حب العلم وتنشيط العلماء وهم في جهل وكان اكثرهم يحاضر العلماء والادباء ويحب ان يشهر عنه ذلك وخصوصاً عند مباديه في الرئاسة[2] وكانوا يتباهون ان يقال ان العالم الفلاني عند الملك الفلاني والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني . وكان العلماء والشعراء يدلّون عليهم و يستعزّون وربما ابى الشاعر ان يمدح الملك الاّ بمال معين يشترطه سلفاً والملوك يسترضونهم بما يريدون . وقد يقترح الامير على العالم ان يؤلف كتاباً باسمه فلا يرضى ولو بالمال الكثير . حكي ان ابا غالب تمام بن غالب اللغوي القرطبي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ لما الّف كتابه في اللغة بعث اليه ابو الجيش مجاهد العامري ملك دانية الف دينار ومركوباً وكساءً على ان يجعل الكتاب المذكور باسمه فيزيد في آخره « هذا الكتاب مما الفه ابو غالب لابي الجيش مجاهد » فردّ الدنانير وقال « كتابٌ الفته لينتفع به الناس واخلد فيه همتي اجعل في صدره اسم غيري واصرف الفخر له ؟ » فلما بلغ هذا مجاهداً استحسن انفته واضعف له العطاء وقال « هو في حلّ من ان يذكرني فيه لا نصدّه عن غرضه »[3]

على ان بعض العلماء كانوا يؤلفون الكتب لابنائهم واخوانهم واصدقائهم لا يلتمسون على ذلك اجراً . وقد يؤلفون لانفسهم — ومن لطيف ما جاء في مقدمة كتاب حياة الحيوان للدميري قوله « هذا الكتاب لم يسألني احدٌ تأليفه »

وجملة القول ان التمدن الاسلامي كان حافلاً باهل العلم من قصور الخلفاء الى المساجد ومنازل الامراء والعامة الى مراسح الغناء . وكانوا يعقدون المجالس للمناظرة في العلوم على

(١) ابن خلكان ٧٨ ج ٢ (٢) نفح الطيب ١٠١ ج ١

(٣) نفح الطيب ٧٨٠ ج ٢ وابن خلكان ٩٧ ج ١

اختلافها وفي الآداب على تنوع وجهاتها وفي الشعر وغيره . وكانوا يفرضون العلم على اولادهم واخوانهم ومماليكهم وجواريهم وسراريهم . وكانوا يعلمون الجواري ويثقفونهن ويحفظونهن القرآن ويروونهن الاشعار والاخبار ويعلمونهن النحو والعروض والغناء ثم يتهادونهن . وقد كان عند زبيدة ام الامين مئة جارية يحفظن القرآن وكان يسمع من قصرها دويٌّ كدويّ النحل من القراءة[1] حتى المخانيث فقد كانوا يؤدبونهم وكان في قرطبة في اوائل القرن الخامس للهجرة جملة من الفتيان المخانيث ممن اخذ من الادب بأوفر نصيب ولهم فيه مؤلفات[2]

واغرب من ذلك بذلهم الاموال للمطالعين فضلاً عن المؤلفين فالملك المعظم شرف الدين عيسى الايوبي صاحب دمشق كان من رغاب الادب فاشترط لكل من يحفظ كتاب المفصَّل للزمخشري مائة دينار وخلعة فحفظه جماعة كبيرة[3] وهذه منقبة لم يسمع بمثلها

المؤلفون والمؤلفات

فلا عجب والحالة هذه اذا كثر المؤلفون وتعددت مؤلفاتهم واتسعت مباحثهم وكان منهم الملوك والامراء والوزراء والاغنياء والفقراء وفيهم العرب والفرس والروم واليهود والسريان والهنود والترك والديلم والقبط وغيرهم من الملل الخاضعة للاسلام في انحاء العالم المتمدن يومئذ في الشام ومصر والعراق وفارس وخراسان وما وراء النهر والهند وفي المغرب والاندلس وغيرها . وقد حوت مؤلفاتهم البحث في كل ما انتجته قريحة الانسان الى ذلك الزمان من الطبيعيات والالهيات والعقليات والرياضيات والادبيات والنقليات . ودعت ابحاثهم الواسعة الى تشعب العلوم وتفرعها حتى زادت على خمسمئة علم ذكرها طاشكبري زاده في مفاتيح العلوم . ومنها ما لم يكن له وجود قبل الاسلام كالاقتصاد السياسي وفلسفة التاريخ والموسوعات التاريخية والجغرافيَّة . غير العلوم الاسلامية الخاصة بلغة العرب وآداب المسلمين

وقد تعددت مؤلفاتهم حتى اصبحت تعدُّ بعشرات الالوف ويستدل على كثرتها مما بقي من خبرها الى القرن الحادي عشر للهجرة على ما في كشف الظنون . فقد بلغ عدد المؤلفات المذكورة هناك ١٤,٥٠١ غير الشروح والتعاليق . وغير ما ضاع خبره منها في النكبات المتوالية في اثناء الفتن الداخلية بين الفرق الاسلامية وغيرها . وما كان يحرقه ولاة الامر

(١) ابو المحاسن ٦٣٢ ج ١ (٢) نفح الطيب ٧٢٩ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٣٩٦ ج ١

من كتب الفلسفة ومتعلقاتها اضطهاداً لاصحابها كما سيجيء حتى ذهب معظم ما ترجموه او الّفوه ولم يبق منها الاّ النذر اليسير

ولا ريب عندنا ان الضائع من كتب المسلمين يزيد على اضعاف الباقي . ومما يؤيد ذلك ان بعض المؤلفين القدماء كالمسعودي والطبري وابن الاثير وغيرهم ذكروا في مقدمات كتبهم كثيراً من اسماء المؤلفات التي نقلوا كتبهم عنها وقلما نجد اسماءها في الفهارس

ومن المؤلفين المسلمين من بلغت مؤلفاته بضع مئات الى الالاف فمؤلفات ابي عبيدة ٢٠٠ مؤلف في علوم مختلفة ومؤلفات ابن سريج ٤٠٠ ومؤلفات ابن حزم ٤٠٠ مجلد ومؤلفات الكندي ٢٣١ ومؤلفات القاضي الفاضل مئة كتاب . وقس على ذلك مؤلفات كثير من العلماء في المواضيع المختلفة كمؤلفات الرازي والسيوطي وابن سينا . وقد بلغت مؤلفات بعضهم الف كتاب كعبد الملك بن حبيب عالم الاندلس[1] وقد عدت مؤلفات جمال الدين الحافظ وقسمت على عمره فبلغ كل يوم تسع كراريس[2]

ناهيك بضخامة تلك المؤلفات فان بعضها يتألف من عشرات المجلدات وخصوصاً كتب التاريخ فكتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي اربعون مجلداً وتاريخ دمشق لابن عساكر ثمانون مجلداً وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٤ مجلداً والاغاني عشرون مجلداً وابن الاثير ١٢ مجلداً ويقال نحو ذلك في غير كتب الادب كشرح كتاب النبات لابي حنيفة الدينوري فانهُ بلغ ستين مجلداً[3] وتقدير المجلد يختلف باختلاف الاحوال فاذا اعتبرنا تقسيم ابن الاثير والاغاني الى مجلدات رأينا المجلد عبارة عن ٢٠٠ صفحة فاكثر . ولكننا رأينا في بعض النصوص ان تقدير المجلد عشر ورقات[4] وربما اختلف ذلك باختلاف المواضيع

والغالب في المؤلفات الكبرى عندهم ان تكون من قبيل الموسوعات الحاوية في موضوعها وما يقاربه . فمعجم ياقوت موضوعه الاصلي في الجغرافية ولكنه يحوي تراجم جماعة كبيرة من علماء الاسلام وادبائه . والاغاني في الغناء ولكنه يشمل فوائد ذات شأن في تاريخ العرب وآدابهم في الجاهلية وأوائل الاسلام . والعقد الفريد كتاب في الادب ولكن فيه فوائد كثيرة في الشعر والعروض والاخلاق والتاريخ وغيرها . وقس على ذلك سائر كتب التراجم او التواريخ المطولة . ومن هذا القبيل الكتب الطبية كالقانون لابن

---

(١) نفح الطيب ٣٣١ ج ١ (٢) ابن خلكان ٢٩٧ ج ١
(٣) نفح الطيب ٨٨٤ ج ٢ (٤) ابن خلكان ٢٣٠ ج ٢ وطبقات الادباء ١٠٥

سينا فانه عبارة عن قاموس جامع لفنون الطب كالتشريح والفسيولوجيا والباثولوجيا والنبات والصيدلة وغيرها وكذلك كتاب الرازي • وقد يجمع الكتاب الواحد مواضيع متباعدة ككتاب حياة الحيوان للدميري فان موضوعه علم الحيوان ولكنهُ حوى شيئاً كثيراً من التاريخ والآداب والاخلاق والطب والصيدلة والنبات • والكشكول كتاب في الادب والحكم ولكن فيه مقالات وفصولاً في فنون متناقضة كالجبر والهندسة والمنطق والنجوم والفلسفة والتاريخ والادب واللاهوت والفقه والحديث وغيرها

تأثير التمدن الاسلامي

في العلوم الدخيلة

لما نضج التمدن الاسلامي وانتشرت العلوم الدخيلة في بلاد الاسلام عني المسلمون في درسها ونبغ منهم جماعة فاقوا أصحابها وادخلوا فيها أراءً جديدة فتنوعت وارتقت على ما اقتضاه الاسلام والآداب الاسلامية وما مازجها من علوم الامم الاخرى فاصبحت على شكل خاص بالتمدن الاسلامي • فلما نهض اهل أوربا الى استرجاع علوم اليونان اخذوا معظمها عن اللغة العربية وفيها الصبغة الاسلامية • فلنبحث في ما أثرهُ التمدن الاسلامي في علوم التمدن القديم

١ — الفلسفة في الاسلام

قرأ المسلمون الفلسفة في كتب افلاطون وارسطو وما علقه عليها اليونان من الشروح واضافوا اليها من الآراء وهي تشمل المنطق والطبيعيات والالهيات والاخلاق • فبدأ المسلمون أولاً بدرس هذه الكتب ثم أخذوا في شرحها او تلخيصها ثم عمدوا الى الكتابة في تلك المواضيع من عند انفسهم • ويندر ان يشتغل الواحد منهم في الفلسفة دون الطب والنجوم او في الطب دون الفلسفة والنجوم او بالعكس • ومن اقوال حنين « ان الطبيب يجب ان يكون فيلسوفاً » لكنهم كانوا يلقبون العالم بما غلب اشتغاله فيه

الفلاسفة المسلمون في الشرق

واكبر فلاسفة المسلمين واشهرهم واسبقهم يعقوب بن اسحق بن الصباح الكندي وهو عربي الاصل دون سواه من الفلاسفة ويتصل نسبه بملوك كنده ولذلك سموه فيلسوف العرب — فبعد ان كان العرب في صدر الاسلام يستنكفون من الاشتغال في العلوم حتى الاسلامية • وبعد ان عملوا على ابادة ما عثروا عليه من علوم الاقدمين في مصر وفارس اصبحوا لا يستنكفون من الاشتغال حتى في العلوم الفلسفية الدخيلة • وأول من اشتغل فيها منهم ابناء ملوكهم • كان الكندي معاصراً للمأمون والمعتصم الى المتوكل وكانت له عندهم منزلة سامية وقد برع في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والالحان والهندسة وطبائع الاعداد وعلم النجوم وقد نبغ وليس في المسلمين فيلسوف غيره وحذا في تآليفه حذو ارسطوطاليس وله ترجمات عديدة نقلها لنفسه وكان يعدُّ من حذاق التراجمة ولم يذكر بينهم لانه لم يرتزق بالترجمة • وقد الف الكندي في معظم العلوم الدخيلة كتباً كثيرة ذكرها صاحب الفهرست واليك عددها باعتبار العلوم :—

في الفلسفة	٢٢	كتاباً	في الطبيعيات الخ	٣٣	»
» الحساب	١١	»	» الكريات	٨	كتب
» النجوم	١٩	»	» المنطق	٩	»
» الهندسة	٢٣	»	» الموسيقى	٧	»
» الفلكيات	١٦	»	» الاحكام	١٠	»
» الطب	٢٢	»	» النفس	٥	»
» الجدل	١٧	»	» الابعاد	٨	»
» السياسة	١٢	»	» تقدمة المعرفة	٥	»
» الاحداث	١٤	»	المجموع كله	٢٣١	كتاباً

واكثر هذه الكتب قد ضاع • ويتضح من مراجعة اسمائها ان الرجل كان كثير التضلع في هذه العلوم حتى انتقد اصحابها وخطأهم • وللكندي تلامذة حذوا حذوه

ويليه ابو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ ﻫ اصله من فاراب بلاد الترك لكنه فارسي المنتسب[1] وقد نشأ في الشام واشتغل فيها وكان فيلسوفاً كاملاً درس كل ما درسه الكندي

(١) طبقات الاطباء ١٣٤ ج ٢

من العلوم وفاقه في كثير منها وخصوصاً في المنطق وتعمق في الفلسفة والتحليل وانحاء التعاليم وافاد التعليم وجوه الانتفاع بها والف كتباً في مواضيع لم يسبقه احد اليها ككتابه « في احصاء العلوم والتعريف باغراضها » وهو اشبه بقاموس علمي على شكل موسوعات العلوم لم يذهب مذهبه فيه احد قبله وكتاب « السياسة المدنية » وهو الاقتصاد السياسي الذي يزعم اهل التمدن الحديث انه من مخترعاتهم وقد كتب فيه الفارابي منذ الف سنة ثم كتب فيه ابن خلدون في مقدمته . وبرع الفارابي خصوصاً في علم الموسيقى حتى أصبح لا يضاهيه فيه أحدٌ واخترع القانون كما سيأتي في باب الموسيقى وأصلح ما بقي من الترجمات غير مصلح فسموه المعلم الثاني [١]

وممن غلبت عليه الفلسفة من علماء المسلمين الشيخ الرئيس ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨هـ وله من المؤلفات نحو مئة كتاب ٢٦ منها في الفلسفة فقط . ومنهم ابو حامد الغزالي الملقب حجة الاسلام المتوفى سنة ٥٠٥هـ وهو امام التصوف . غير الذين ظهروا في الاندلس وسيأتي ذكرهم — على ان الافاضة في ذكر الفلاسفة ومؤلفاتهم وآرائهم من متعلقات « تاريخ آداب اللغة » فنقتصر هنا على تاريخ الفلسفة في الاسلام وما كان من تأثيرها في الدين والعلم

أهم ما كان من تأثير الفلسفة في الاسلام انهم بنوا عليها علم الكلام وايدوه بها لتقوى حجتهم في ما قام بينهم من المجادلات المذهبية . واشتهر علم الكلام في المسلمين وعكفوا على درسه وخصوصاً المعتزلة واشتهر به جماعة من علية القوم وفي جملتهم الشريف المرتضى والزمخشري والباقلاني وغيرهم

واما الفلسفة بحد ذاتها فقد كان اصحابها متهمين بالكفر وكان الانتساب اليها مرادفاً للانتساب الى التعطيل ومن اقوالهم « كان فلان سامحه الله يتهم بدينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه »[٢] وقد شاع ذلك في بغداد بين العامة حتى في ايام المأمون ولذلك سماه بعضهم امير الكافرين [٣] ولكنهم لم يكونوا يتظاهرون بذلك حتى ذهب عصر المأمون والمعتصم والواثق وتنصب المتوكل فاصبح مريدو الفلسفة يتجنبون الظهور بها او ينكرونها وهم كلفون بها فكانوا يشتغلون فيها سرًّا فألفوا الجمعيات السرية لهذه الغاية

جمعية اخوان الصفا

ومن جمعياتهم السرية الفلسفية جمعية اخوان الصفا تألفت في بغداد في اواسط القرن

(١) كشف الظنون ٤٤٨ ج ١ (٢) ابن خلكان ١٣٤ ج ٢
(٣) اليعقوبي ٥٤٦

الرابع للهجرة ذكروا من اعضائها خمسة هم : ابو سليمان محمد بن معشر البستي و يعرف بالمقدسي وابو الحسن علي بن هارون الزنجاني وابو احمد المهرجاني والعوفي وزيد بن رفاعة[١] وكانوا يجتمعون سرًّا ويتباحثون في الفلسفة على انواعها حتى صار لهم فيها مذهب خاص هو خلاصة ابحاث الفلاسفة المسلمين بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند وتعديلها على ما يقتضيه الاسلام . واساس مذهبهم ان الشريعة الاسلامية تدنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الاَّ بالفلسفة لانها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وانه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال

وقد دونوا فلسفتهم هذه في خمسين رسالة سموها رسائل اخوان الصفا وكتموا اسماءهم . وهي تمثل الفلسفة الاسلامية على ما كانت عليه في ابان نضجها وتشمل النظر في مبادىء الموجودات واصول الكائنات الى نضد العالم فالهيولى والصورة وماهية الطبيعة والارض والسماء ووجه الارض وتغيراته والكون والفساد والآثار العلوية والسماء والعالم وعلم النجوم وتكوين المعادن وعلم النبات واوصاف الحيوانات ومسقط النطفة وكيفية رباط النفس بها وتركيب الجسد والحاس والمحسوس والعقل والمعقول والصنائع العلمية والعملية والعدد وخواصه والهندسة والموسيقى والمنطق وفروعه واختلاف الاخلاق وطبيعة العدد وان العالم انسان كبير والانسان عالم صغير والاكوار والادوار وماهية العشق والبعث والنشور واجناس الحركات والعلل والمعلولات والحدود والرسوم . . وبالجملة فقد ضمنوها كل علم طبيعي او رياضي او فلسفي او الهي او عقلي . وبين ايدينا خلاصة هذه الرسائل مطبوعة في ليبسك بعناية الدكتور ديتريشي في نحو ٦٥٠ صفحة كبيرة . ويظهر من امعان النظر فيها ان اصحابها كتبوها بعد البحث الدقيق والنظر الطويل . وفي جملة ذلك آراء لم يتصل اهل هذا الزمان الى احسن منها . وفي ذيل الكتاب فصل في كيفية عشرة اخوان الصفا وتعاونهم بصدق المودَّة والشفقة وان الغرض منها التعاضد في الدين . وذكروا شروط قبول الاخوان فيها وغير ذلك

وكان المعتزلة ومن جرى مجراهم يتناقلون هذه الرسائل ويتدارسونها ويحملونها معهم سرًّا الى بلاد الاسلام ولم تمض مئة سنة على كتابتها حتى دخلت الاندلس على يد ابي الحكم عمرو ابن عبد الرحمن الكرماني وهو من اهل قرطبة رحل الى المشرق للتبحر في العلم على جاري عادة الاندلسيين . فلما عاد الى بلاده حمل معه الرسائل المذكورة وهو اول من ادخلها الاندلس[٢] فما لبثت ان انتشرت هناك حتى تناولها اصحاب العقول الباحثة واخذوا في درسها وتدبرها

(١) تراجم الحكماء (خط) (٢) طبقات الاطباء ٤٠ ج ٢

فلاسفة الاندلس

وكانت الفلسفة قد دخلت الاندلس في ايام عبد الرحمن الاوسط كما تقدم وقد اخذ الاندلسيون بشيء منها وظهر فيهم جماعة اشتهروا بعلوم الاوائل والنجوم واولهم ابو عبيدة مسلم ابن احمد المعروف بصاحب القبلة[1] توفي في اواخر القرن الثالث للهجرة · ثم يحيى بن يحيى القرطبي المعروف بابن السمينة المتوفى سنة ٣١٥ هـ وابو القاسم مسلمة بن احمد المعروف بالمرحيطي او المجريطي من اهل قرطبة كان امام الرياضيين في عصره بالاندلس توفي سنة ٣٩٨ هـ وانجب تلامذة جلة اشهرهم ابن السمح المهندس الغرناطي وابن الصفار استاذ الرياضيات في قرطبة والزهراوي صاحب كتاب الاركان في المعاملات على طريق البرهان وابو الحكم عمرو الكرماني المتقدم ذكره فانه رحل الى المشرق حتى نزل حران وتعلم فيها الهندسة والطب ثم رجع برسائل اخوان الصفا الى الاندلس وتوفي في سرقسطة سنة ٤٥٨ هـ

على ان هؤلاء انما اقتصروا من علوم الاوائل على الرياضيات والنجوم والهندسة ونحوها اما الفلسفة بمعناها الحقيقي فلم يعن أهل الاندلس فيها الا بعد دخول رسائل اخوان الصفا وكان الحكم بن الناصر قد استجلب كتب الفلسفة من المشرق فتداولها الناس ولكنهم لم ينبغوا فيها الا بعد مطالعة تلك الرسائل · فنبغ ابو بكر بن باجة الفيلسوف الاندلسي الشهير المتوفى سنة ٥٣٣ هـ ويعرف بابن الصائغ · ومن تلاميذه القاضي ابو الوليد ابن رشد الفيلسوف القرطبي المتوفى سنة ٥٩٥ هـ ونبغ أيضاً ابن الطفيل وابن هود وغيرها وقد الفوا المؤلفات الضافية في فروع الفلسفة مما اتخذه الافرنج قاعدة لفلسفتهم في أوائل نهضتهم

على ان اولئك الفلاسفة كانوا عرضة لاحتقار العامة شأنهم في مثل هذه الحال في سائر العصور · وكان الملوك يسايرون العامة في ذلك رغبة في استرضائهم لتوطيد سلطانهم فما من ملك الا نقم على الفلاسفة واضطهدهم · ومن أشهر الحوادث من هذا القبيل نقمة المنصور بن ابي عامر صاحب الاندلس في أواخر القرن السادس للهجرة فانه اضطهد الفلاسفة ونفاهم وفي جملتهم ابن رشد وابو جعفر الذهبي وابو عبدالله قاضي بجاية وغيرهم[2] وعزم ان لا يترك شيئاً من كتب المنطق والحكمة في بلاده فأمر باحراقها في النار وشدد النكير على المشتغلين بها وأصبح العامة كلما قيل فلان يشتغل في الفلسفة او التنجيم اطلقوا

---

(١) نفح الطيب ٨٧٣ ج ٢ (٢) طبقات الاطباء ٧٦ ج ٢

عليه اسم زنديق وقيدت عليه انفاسه فان زلّ في شبهة رجموه بالحجارة او احرقوه ٠
أما الخاصة فكانوا يدرسون الفلسفة سرًّا وربما أمر السلطان بقتل بعض الفلاسفة تقرباً من قلوب العامة ويكون هو نفسه يحبها (١)

٣ — الطب في الاسلام

الطب الاسلامي

الطب الاسلامي خلاصة مابلغ اليه علم الطب عند الامم المتمدنة قبل الاسلام ٠ لان المسلمين نقلوا الى لسانهم كتب ابقراط وجالينوس وغيرهما من أطباء اليونان واطلعوا على ما كان عند السريان من الطب اليوناني الممزوج ببقايا طب الكلدان القدماء ونقل اليهم أطباء مدرسة جنديسابور طب اليونان بصبغته الفارسية واطلعوا على طب الهنود ممن جاؤا بغداد من اطبائهم ٠ غير ما كان عند العرب في أيام الجاهلية وتنوقل في الاسلام٠ ومن تفاعل هذه العناصر وتمازجها تألف الطب الاسلامي الذي تمثل بعد نضج العلم في الكتاب الملكي (اوالملوكي) لابي بكر الرازي الملقب جالينوس العرب الفه للملك عضد الدولة بن بويه وجمع فيه كل ما وجده متفرقاً من ذكر الامراض ومداواتها في كتب القدماء الى زمانه في أواسط القرن الرابع للهجرة وللرازي من كتب الطب والفلسفة وغيرهما شيء كثير ٠ وما زال النـاس يعوّلون على الكتاب الملوكي حتى ظهر القانون لابن سينا وهو منشور ومشهور الى اليوم واذا قلبت صفحاته علمت انه قاموس في الطب والصيدلة وقد جمع خلاصة ابحاث اليونان والكلدان والهنود والفرس والعرب في الامراض ومعالجتها والعقاقير وخصائصها٠ وليس هو طب اليونان فقط كما توهم البعض لانك تقرأ في اماكن كثيرة منه تفصيلاً لآراء الهنود وانتقادها اواستحسانها ٠ ومما ذكره من طبهم مثلاً انهم وصفوا انواع العلق واشكاله وخصائص كل منها (٢) ومن أرائهم ان اكل اللبن مع الحوامض او مع السمك يورث أمراضاً منها الجـذام ٠ وقولهم ان لايوكل ماست مع الفجل ولامع لحوم الطير ولا سويق على ارز بلبن او نحو ذلك (٣) ناهيـك بالعقاقير الهندية التي تدلُّ أسماؤها على أصلها

(١) نفح الطيب ١٠٤ ج ١ (٢) القانون ١٠٧ ج ١ (٣) القانون ٨٤ ج١

ومن الكتب الطبية الاسلامية التي استفاد منها الافرنج في نهضتهم الاخيرة كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لابي القاسم خلف بن عباس الزهراوي الاندلسي من أهل القرن الخامس للهجرة وهو قاموس في الطب ويمتاز عن سواه بالقسم الجراحي • وكتاب التيسير لعبد الملك بن زهر الاندلسي الفه لابن رشد الفيلسوف في أواسط القرن السادس للهجرة واطباء المسلمين كثيرون وكتبهم كثيرة لامحل لذكرها هنا

الاطباء المسلمون

ولو أحصينا الاطباء المسلمين الذين نبغوا بعد ترجمة الكتب الطبية الى انقضاء النهضة العباسية وابتداء عصر التقهقر اي في أثناء ثلاثة او اربعة قرون لزاد عدد المؤلفين منهم ممن بلغت الينا اسماؤهم على بضع مئات واكثرهم اشتغلوا بسائر العلوم الدخيلة والفوا الكتب العديدة وترى ذلك مفصلاً في طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة وتراجم الحكماء لابن القفطي وكتاب كشف الظنون وغيرها • اما عدد الاطباء على الاطلاق فما لايمكن حصره لضياع ذلك مع الزمان وانما يستدل من بعض القرائن انه كان كثيراً جدًّا • فقد احصوا اطباء بغداد وحدها في زمن المقتدر بالله في أول القرن الرابع للهجرة فبلغ ۸٦۰ طبيباً احتاجوا الى الامتحان لنيل الاذن في التطبيب سوى من استغنى عن الامتحان لشهرته وسوى من كان في خدمة الخليفة (۱) فلا يمكن ان يكون مجموع ذلك كله اقل من الف طبيب متعاصرين في مدينة واحدة • وبلغ عدد أطباء النصارى فقط في خدمة المتوكل بأواسط القرن الثالث للهجرة ٥٦ طبيباً (۲) • وكان سيف الدولة اذا جلس على المائدة حضر معه ۲٤ طبيباً ومنهم من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة ارزاق لتعاطيه ثلاثة علوم (۳)

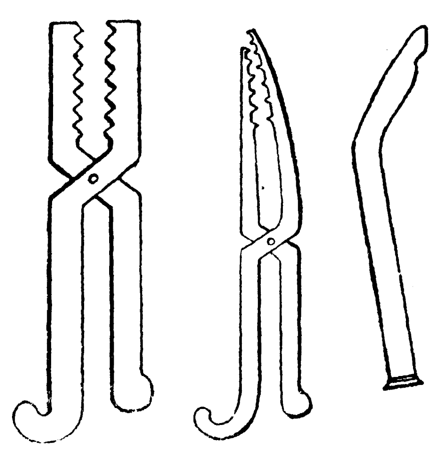
وكان للاطباء عندهم نظام وعليهم رئيس يمتحنهم ويجيز من يرى فيه الكفاءة للتطبيب واشهر هؤلاء الرؤساء سنان بن ثابت في بغداد ومهذب الدين الدخوار في مصر • ويقال نحو ذلك في الصيادلة فقد كانوا كثاراً وتفشى الغش في الادوية حتى اضطر اولي الامر الى امتحانهم واعطاء الاجازات او المنشورات الى الذين يحسنون الصناعة ونفي الآخرين • وأول من فعل ذلك الافشين في بغداد فقد وكل زكريا بن الطيفوري به في حديث

(۱) طبقات الاطباء ۲۲۲ ج ۱ (۲) طبقات الاطباء ۱۹۲ ج ۱

(۳) طبقات الاطباء ۱٤۰ ج ۲

يطول ذكره[1] وكان من الاطباء أو الصيادلة من هو خاص بالجند يرافقه في اسفاره ومنهم من هو خاص بالخلفاء والامراء ولهؤلاء رواتب خاصة ويعرفون بالمرتزقين • ومنهم من يطببون العامة وهم غير مرتزقين

وكان الاطباء طبقات وأصنافاً وفيهم الطبيب على اجماله والجراح والفاصد والكحال والاسناني ومن يعالج النساء والمحاطي فقط او يطبب المجانين فقط — على نحو الاطباء الاختصاصيين فى هذه الايام • وكان الكحالون في مصر اكثر منهم في سواها لتعرضها لامراض العين وكانوا يعالجون الماء الازرق بقدح العين على نحو عملية الكتركتا اليوم



آلات قلع الاسنان عند العرب

ونبغ جماعة من النساء اشتهرن بصناعة الطب منهن اخت الحفيد بن زهر الاندلسي وابنتها فقد كانتا عالمتين بصناعة الطب ولهما خبرة جيدة بمداواة النساء وكانتا تدخلان على نساء المنصور الاندلسي وأهله ولا يقبل المنصور سواهما[2] واشتهر في أيام بني أُمية بالشام امرأة اسمها زينب طبيبة بني أود كانت عالمة بالاعمال الطبية ومداواة العين بالجراحة[3] فضلاً عمن اشتهر منهن بالعلم والادب كشهدة الدينورية وبنت دهين اللوز الدمشقية وغيرهما

وكان الفحص الطبي عندهم قاصراً على فحص البول وجس النبض • فيأتي المريض ومعه قارورة الماء اي زجاجة البول فيسلمها الى الطبيب فينظر فيها ثم يذوقها ليتحقق وجود الحوامض او القوابض او السكر فيها ثم يجس النبض وعند ذلك يحكم في حال المريض لاعتقادهم ان النبض يدلُّ على مزاج القلب والبول على مزاج الكبد وحال الاخلاط • ومهما يكن من اعتقادهم فان هذه الطريقة لا تزال مما يعوَّل عليه الاطباء الى اليوم

(١) ابو الفرج ٢٤٤ (٢) طبقات الاطباء ٧٠ ج ٢

(٣) طبقات الاطباء ١٢٣ ج ١

ما الذي أحدثه المسلمون في الطب

بقي علينا النظر في ما أحدثه المسلمون في الطب من الاختراعات الجديدة او الآراء المبتكرة والحكم في ذلك يستلزم درساً طويلاً لا يسعه هذا المكان . على أننا نقول بالاختصار ان المسلمين جمعوا بين طب اليونان والفرس والهنود والكلدان والعرب كما تقدم وأضافوا الى ذلك كثيراً من نتائج اختبارهم في هذه الصناعة كما يظهر من مراجعة كتبهم الطبية فانهم كثيراً ما يذكرون رأي جالينوس أو أبقراط مثلاً وينتقدونه ويبينون وجه الخطا وصوابه [1] . فضلاً عما ادخلوه من الترتيب والتبويب في الكتب التي ترجموها كما فعل ابن ابي الاشعث بكتب جالينوس فانه رتبها وبوّبها وفصلها تسهيلاً لمطالعتها [2] غير ما أحدثوه من الشروح والذيول لكتب القدماء . ففي ذيل ابن جلجل على كتاب ديسقوريدس عقاقير لم يعرفها القدماء

أما ما أحدثوه من عند انفسهم رأساً فالاحاطة به من الامور الشاقة التي يعسر تحقيقها فنذكر ما ثبت عندنا حدوثه على سبيل المثال . من ذلك أنهم احدثوا في الطب آراء جديدة تخالف آراء القدماء في تدبير الامراض وان لم يصلنا خبر غير القليل منها مثل نقلهم تدبير اكثر الامراض التي كانت تعالج قديماً بالادوية الحارة (على اصطلاحهم) الى التدبير البارد كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها وذلك على غير ما سطره القدماء . واول من فطن لهذه الطريقة ونبه عليها وأخذ المرضى بالمداواة بها الشيخ ابو منصور صاعد بن بشر الطبيب في بغداد فانه أخذ المرضى بالفصد والتبريد والترطيب ومنعهم من الغذاء فأنجح تدبيره فعينوه رئيساً للمارستان العضدي فرفع منه المعاجين الحارة والادوية الحارة ونقل تدبير المرض الى ماء الشعير ومياه البزور فأظهر في المداواة عجائب فاقتدى به سائر الاطباء بعده [3]

والعرب اول من استخدم المرقد [4] (البنج) في الطب يقال انهم استخدموا له الزوان او الشيلم وهم أول من استخدم الخلال المعروف عند الاطباء

وقد وجد محققو الافرنج ان العرب اول من استخدم الكاويات في الجراحة على نحو استخدامها اليوم وأنهم اول من وجه الفكر الى شكل الاظافر في المسلولين ووصفوا علاج اليرقان والهواء الاصفر واستعملوا الافيون بمقادير كبيرة لمعالجة الجنون ووصفوا صب الماء البارد

(١) القانون ٢١ ج ٣ (٢) طبقات الاطباء ٢٤٦ ج ١

(٣) طبقات الاطباء ٢٣٢ ج ١ (٤) ابن خلكان ٣١٢ ج ١ والانسيكلوبيديا

لقطع النزف وعالجوا خلع الكتف بالطريقة المعروفة في الجراحة برد المقاومة الفجائي ووصفوا ابرة الماء الازرق وهو قدح العين وأشاروا الى عملية تفتيت الحصاة

وقد أُلّف للعرب في بعض فروع الطب ما لم يسبق أحد الى مثله · فالجذام أول من كتب فيه اطباؤهم واول كتاب في هذا الموضوع ليوحنا بن ماسويه[1] وهم اول من وصف الحصبة والجدري بكتاب لابي بكر الرازي غير ما ألفوه من الموسوعات الضافية في الطب الصيدلة والكيمياء والنبات

ومن فروع الطب الصيدلة وللعرب فضل كبير فيها فقد بذلوا الجهد في استجلاب العقاقير من الهند وغيرها · بدأوا بذلك من ايام يحيى بن خالد البرمكي كما تقدم ثم نبغ منهم الاطباء والصيادلة ووجهوا عنايتهم الى درس العقاقير وقد نقلوا كتباً فيها من الهندية واليونانية ثم اشتغلوا هم انفسهم في جمعها · وقد عني الافرنج بعد نهضتهم الاخيرة في درس تاريخ فن الصيدلة فتحققوا ان العرب هم واضعو اسس هذا الفن وهم اول من اشتغل في تحضير الادوية او العقاقير فضلاً عما استنبطوه من الادوية الجديدة · وانهم اول من الف الاقرباذين على الصورة التي وصلت الينا[2] وظل العرب في النهضة العباسية يعتمدون في المارستان ودكاكين الصيادلة على اقرباذين الّفه سابور بن سهل المتوفى سنة ٢٥٥ ﻫ حتى ظهر اقرباذين امين الدولة ابن التلميذ المتوفى في بغداد سنة ٥٦٠ ﻫ · وهم اول من انشأ حوانيت الصيدلة على هذه الصورة · ومن اقرب الشواهد على ذلك اسماء العقاقير التي اخذها الافرنج عن العرب ولا تزال عندهم باسمائها العربية او الفارسية او الهندية كما اخذوها عن العربية

على ان تقدمهم في الصيدلة تابع لتقدمهم في الكيمياء والنبات ولا خلاف في ان العرب هم الذين اسسوا الكيمياء الحديثة بتجاربهم ومستحضراتهم — وقد تقدم ان اول من اشتغل في نقلها الى العربية خالد بن يزيد نقلها عن مدرسة الاسكندرية وعنه اخذ جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٠ ﻫ وبعده جابر بن حيان ثم الكندي فأبو بكر الرازي وغيرهم فاكتشفوا كثيراً من المركبات الكيماوية التي بنيت عليها الكيمياء الحديثة وقد ذكر محققو الافرنج ان العرب هم الذين استحضروا ماء الفضة (الحامض النتريك) وزيت الزاج (الحامض الكبريتيك) وماء الذهب (الحامض النيتروهيدروكلوريك) واكتشفوا البوتاسا وروح النشادر وملحه وحجر جهنم (نترات الفضة) والسليماني (كلوريد الزئبق) والراسب الاحمر (اكسيد الزئبق) وملح الطرطير وملح البارود (نترات البوتاسا) والزاج الاخضر (كبريتات

(١) طبقات الاطباء ١٨٣ ج ١ (٢) Encyclopaedia Brit. art. « Medicine »

الحديد) والكحول والقلي والزرنيخ والبورق وغير ذلك من المركبات والمكتشفات التي لم يصل الينا خبرها . على اننا نستدل على وجود بعض المركبات الكيماوية في ايامهم مما لم نسمع له بمثيل في تاريخ الكيمياء قبل اواخر القرن الماضي — فقد اشار ابن الاثير الى ادوية استخدمها العرب في واقعة الزنج سنة ٢٦٩ ﻫ اذا طلي بها الخشب امتنع احتراقه[١] ولم يذكر ما هي . ومما يعدّ من قبيل الكيمياء ايضاً البارود فقد ترجح لنا بالبحث انهم هم الذين ركبوه[٢] . وهم اول من وصف التقطير والترشيح والتصعيد والتبلور والتذويب وقد ألفوا في ابطال الكيمياء القديمة -- اول من الف ذلك منهم حكيمهم وفيلسوفهم يعقوب الكندي في اواسط القرن الثالث للهجرة[٣]



العرب يستقطرون العقاقير

وأما النبات فللعرب القدح المعلى في درسه والتأليف فيه وقد أخذوا هذا العلم في النهضة العباسية عن مؤلفات ديسقوريدس وجالينوس ومن كتب الهند . نقل كتاب ديسقوريدس في أيام المتوكل نقله اصطفان بن باسيل من اليونانية الى العربية فالعقاقير التي لم يعرف لها اسماء في العربية تركها على لفظها اليوناني اتكالاً على ان يبعث الله بعده من يعرف ذلك

(١) ابن الاثير ١٥١ ج ٧ (٢) الهلال السنة العاشرة صفحة ٨٧

(٣) كشف الظنون ٣٤١ ج ٢

ويفسره • وحُمل هذا الكتاب الى الاندلس على هذه الصورة فانتفع به الناس الى أيام الناصر صاحب الاندلس في أواسط القرن الرابع للهجرة • فكاتبه ملك القسطنطينية سنة ٣٣٧ ه وهاداه بكتب من جملتها كتاب ديسقوريدس باليونانية مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب ولم يكن في الاندلس من يحسن اليونانية فبعث الناصر الى الملك يطلب اليه رجلاً يعرف اليونانية واللاتينية لينقله الى اللاتينية وعارفو هذه اللغة في الاندلس كثيرون • فبعث اليه راهباً اسمه نقولا وصل قرطبة سنة ٣٤٠ ه فتعاونوا على استخراج ما فات ابن باسيل تعريبه من عقاقير هذا الكتاب • ثم جاء ابن جلجل في آخر القرن الرابع فألف كتاباً في ما فات ديسقوريدس ذكره من أسماء العقاقير والادوية وجعله ذيلاً على ذلك الكتاب

حتى اذا نبغ ابن البيطار المالقي النباتي في أواسط القرن السابع للهجرة تناول الكتاب المذكور فدرسه وتفهمه ثم سافر الى بلاد اليونان والى اقصى بلاد الروم ولقي جماعة يعانون هذا الفن وأخذ عنهم معرفة نبات كثير عاينه في مواضعه واجتمع أيضاً في المغرب وغيره بكثير من علماء النبات وعاين منابته بنفسه وذهب الى الشام ودرس نباتاتها وجاء الديار المصرية في خدمة الملك الكامل الايوبي وكان يعتمد عليه في الادوية المفردة والحشائش حتى جعله رئيساً على العشابين وأصحاب البسطات • وبعد طول ذلك الاختبار الف كتابه في النبات وهو فريد في بابه [1] وكان عليه معوّل أهل اوربا في نهضتهم الاخيرة

ومن المبرزين في علم النبات رشيد الدين بن الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ ه صاحب كتاب الادوية المفردة وكان كثير البحث والتدقيق يخرج لدرس الحشائش في منابتها ويستصحب مصوراً معه الاصباغ والليق على اختلافها وتنوعها ويتوجه الى المواضع التي بها النبات في لبنان وسوريا فيشاهد النبات ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه واعضائه وأصوله ويصور بحسبها بالدقة [2] وذلك غاية مايفعله الباحثون في هذا العلم اليوم

المارستانات في الاسلام

المارستان او البيمارستان لفظ فارسي معناه مكان المرضى ويقابله اليوم المستشفى ولكن المارستانات كانت في التمدن الاسلامي تشمل مدارس الطب والمستشفيات معاً لانهم كانوا يعلمون الطب فيها • والعرب أخذوا المارستانات عن الفرس وانشأوها على مثال مارستان جنديسابور المتقدم ذكره

(١) طبقات الاطباء ١٣٣ ج ٢ (٢) طبقات الاطباء ٢١٩ ج ٢

وأول من أنشأ المارستانات في الاسلام الوليد بن عبد الملك الاموي انشأ مارستاناً بدمشق سنة ٨٨ هـ جعل فيه الاطباء وامر بحبس المجذومين وأجرى لهم الارزاق [١] فانقضت الدولة الاموية وليس في الاسلام غير هذا المارستان فلما حكم العباسيون كان المنصور اول من استقدم الاطباء من مارستان جنديسابور كما رأيت ولم ينشئ مارستاناً ولكنه أنشأ داراً للعميان والايتام والقواعد من النساء [٢] وأنشأ هو او من خلفه دوراً لمعالجة المجانين [٣]

وأول من أنشأ المارستانات في الدولة العباسية الرشيد فانه لما رأى مهارة القادمين عليه من أطباء مارستان جنديسابور أراد ان يكون لبغداد مثل ذلك فأمر طبيبه جبرائيل ابن بختيشوع بانشاء المارستان في بغداد . وكان رئيس مارستان جنديسابور يومئذ طبيب هندي اسمه دهشتك فبعث اليه ليقلده مارستان بغداد فاعتذر ودلَّهُ على ماسويه فولاه اياه. ثم تولاه ابنه يوحنا بن ماسويه [٤] وكان البرامكة اهل علم ولهم رغبة في طب الهند وأطبائه كما رأيت فأنشأوا مارستاناً باسمهم وولوا عليه طبيباً هندياً اسمه ابن دهن وهو ممن نقل الى العربي من اللسان الهندي رأساً [٥]

ولما اشتهر مارستان بغداد أخذت المدن الاخرى في تقليدها كما قلدتها في سائر أسباب ذلك التمدن وكان الفتح بن خاقان وزير المتوكل قد انشأ في مصر مارستاناً عرف بمارستان المغافر فلما تولاها ابن طولون انشأ فيها سنة ٢٥٩هـ مارستاناً عرف باسمه وانفق على بنائه ٦٠,٠٠٠ دينار وشرط ان لايعالج فيه جندي ولا مملوك بل يعالج فيه العامة من المرضى والمجانين وغيرهم وحبس ريعاً يضمن بقاءه . وكان يتعهده بنفسه كل يوم جمعة حتى ساءه أحد المجانين فقطع الزيارة [٦]

ولم ينقض القرن الثالث للهجرة حتى بنيت المارستانات في مكة والمدينة وغيرهما . ولما دخل القرن الرابع تسابق الخليفة المقتدر ووزراؤه الى انشاء المارستانات في بغداد وضواحيها منها مارستان علي بن عيسى الوزير انشأه بالحربية سنة ٣٠٢ هـ وانفق عليه من ماله وقلده طبيبه ابا عثمان الدمشقي [٧] ومارستان السيدة فتحه سنان بن ثابت بسوق يحيى سنة ٣٠٦ هـ وبلغت النفقة عليه ٦٠٠ دينار في الشهر . وفي تلك السنة أشار سنان

(١) المقريزي ٤٠٥ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٤٩٥ ج ١ (٣) الكشكول ٢١٣
(٤) طبقات الاطباء ١٧٤ ج١ (٥) الفهرست ٢٤٥ (٦) المقريزي ٤٠٥ ج٢
(٧) طبقات الاطباء ٢٣٤ ج ١

المذكور على الخليفة المقتدر ان يتخذ مارستاناً ينسب اليه فأمر فبنوا له بباب الشام من أبواب بغداد المارستان المقتدري وكان ينفق عليه من ماله ٢٠٠ دينار كل شهر • وبنى أيضاً الوزير ابن الفرات نحو ذلك الزمن مارستاناً بدرب الفضل عرف باسمه [١] وبنى غيرهم مارستانات أخرى في الري ونيسابور وغيرهما • وفي أواسط القرن الرابع بني المارستان الكافوري بمصر • ثم أنشأ عضد الدولة بن بويه المارستان العضدي سنة ٣٦٨هـ على طرف الجسر في الجانب الغربي من بغداد ورتب له ٢٤ طبيباً وفيهم الجراحون والكحالون والمجبرون والفاصدون والاطباء الطبيعيون ففاق سائر ما تقدمه من المارستانات وكان على الاطباء رئيس يسمونه « الساعور »

وظل المارستان العضدي صدر المارستانات حتى بنى نور الدين زنكي مارستانه الكبير في دمشق في اواسط القرن السادس ثم بنى صلاح الدين الايوبي المارستان العتيق في القاهرة وغيره • ولما تولى السلاطين المماليك مصر بنى الملك المنصور قلاوون المارستان المنصوري بالقاهرة سنة ٦٨٣ هـ على مثال مارستان دمشق وقد وصفه المقريزي وصفاً مسهباً في الجزء الثاني من خططه • ولا تزال آثار المارستان المنصوري باقية الى اليوم في شارع النحاسين • ثم بنى الملك المؤيد سنة ٨٢١ هـ المارستان المؤيدي بمصر • ناهيك بما انشأوه من المارستانات في سائر بلاد الاسلام في فارس وخراسان والموصل الشام والاندلس وغيرها مما يطول شرحه • وفي رحلة ابن جبير وصف ما شاهده بنفسه من مارستانات المسلمين في القرن السادس للهجرة هناك

وكانت تلك المارستانات في غاية النظام يعالج فيها المرضى على اختلاف طوائفهم ونحلهم وفيها لكل مرض قاعة اوقاعات خصوصية يطوفها الطبيب المختص بها وبين يديه المشارفون والقوّام لخدمة المرضى فيتفقد المرضى ويصف لهم الادوية ويكتب لكل مريض دواءه [٢] فمن شفي فيها زود السلام ومن مات كفنوه ودفنوه • وكانت تلقى فيها الدروس في الطب والصيدلة وتمارس بها هاتان الصناعتان

وكان من ضروب المارستانات عندهم مارستان نقال يحملونه على الجمال او البغال على نحو المستشفيات النقالة في دول هذه الايام • فكان في معسكر السلطان محمود السلجوقي مارستان يحمله اربعون جملاً يستصحبه العسكر حيثما توجهوا [٣]

---

(١) طبقات الاطباء ٢٢٢ و ٢٢٤ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٥٥ ج ٢

(٣) ابن خلكان ٢٧٤ ج ١ وتراجم الحكماء

٣ - التنجيم والنجوم او الفلك

النجوم عند القدماء علمان علم طبيعي ينظر في النجوم من حيث مواضعها وحركاتها واحكامها بالنظر الى الخسوف والكسوف . وعلم ينظر فيها باعتبار علاقتها بحوادث العالم من حيث الحرب والسلم والولادة والوفاة والسعد والنحس والمطر والصحو ونحو ذلك . وتسهيلاً للبحث نسمي الاول علم النجوم او الفلك والثاني علم التنجيم . وقد علمت مما تقدم ان العرب كانوا يعرفون هذين العلمين فلما تمدنوا ونقلوا العلم اضافوا ما اخذوه عن اليونان والفرس والهند والكلدان الى ما كان عندهم فتولد من ذلك كله التنجيم والنجوم عند المسلمين

التنجيم

واول من عني بالتنجيم والنجوم في النهضة العباسية ابو جعفر المنصور فترجموا له السندهند كما تقدم واقتدى به خلفاؤه واصبح للتنجيم شان كبير عندهم حتى في ابان العصر العباسي وكان المنجمون فئة من موظفي الدولة كما كان الاطباء والكتاب والحساب ولهم الرواتب والارزاق(١) وكان الخلفاء يستشيرونهم في كثير من احوالهم الادارية والسياسية فاذا خطر لهم عمل وخافوا عاقبته استشاروا المنجمين فينظرون في حال الفلك واقترانات الكواكب ثم يشيرون بموافقة ذلك العمل او عدمها . وكانوا يعالجون الامراض على مقتضى حال الفلك وكانوا يراقبونها و يعملون باحكامها قبل الشروع في اي عمل حتى الطعام والزيارة . على ان علماء الشرع الاسلامي كانوا يبينون فساد هذا الاعتقاد و يخطئونه و يردونه والناس على اعتقادهم ولا يزال بعضهم على ذلك الى اليوم

علم النجوم او الفلك

كان للمسلمين حظ وافر في علم النجوم وفضل كبير عليه يكفيك انهم جمعوا فيه بين مذاهب اليونان والهند والفرس والكلدان والعرب الجاهلية شأنهم في اكثر العلوم الدخيلة . فقد رأيت ان محمد الفزاري نقل السندهند للمنصور ليكون قاعدة علم النجوم عند العرب وانه ظل معوَّلهم عليه الى عصر المامون . وفي ايامه نبغ محمد بن موسى الخوارزمي وكان منقطعاً الى بيت الحكمة وله علم واسع في النجوم فاصطنع زيجاً جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس والروم فجعل اساسه على السندهند وخالفه في التعاديل والميل فجعل تعاديله على مذاهب الفرس وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس واخترع فيه ابواباً حسنة فاستحسنه

(١) الفرج بعد الشدة ٩٠ ج ١

اهل عصره وطاروا به في الآفاق . ولكنه جعل تاريخه على الحساب الفارسي فنقله مسلمة بن احمد المرحيطي الاندلسي المتوفى سنة ٣٩٨ هـ الى الحساب العربي ووضع اواسط الكواكب لاول تاريخ الهجرة[١] والزيج كتاب فيه جداول حركات الكواكب يؤخذ منها التقويم

واشتهر منهم في علم النجوم بنو شاكر الثلاثة وقد تقدم ذكرهم . ومن اعمالهم المأثورة انهم قاسوا للمامون درجة خط نصف النهار واستعملوا فيها محيط الارض في حديث ذكره ابن خلكان وغيره . وقد الف بنو شاكر كتباً جليلة في الفلك والهندسة ونبغ في عصرهم ابو معشر البلخي المتوفى سنة ٢٧٢ هـ كان معاصرًا للكندي يغري به العامة ويشنع عليه بعلوم الفلاسفة فدسّ له الكندي من حسن له النظر في الرياضيات فدخل ذلك واستغرق فيه واتصل بعلم النجوم والف فيه كثيرًا . ومنهم حنين بن اسحق العبادي المترجم الشهير وثابت ابن قرة الحراني المتوفى سنة ٢٨٨ هـ واحمد بن كثير الفرغاني وسهل بن بشر كان يخدم طاهر ابن الحسين . ومحمد بن عيسى الماهاني ومحمد بن جابر الحراني المعروف بالبتاني وكان صابياً اصطنع زيجًا عرف بالزيج الصابي وهو نسختان الثانية اصح . ابتدأ بالرصد سنة ٢٦٤ الى سنة ٣٠٦ هـ واثبت الكواكب في زيجه سنة ٢٩٩ هـ وكان اوحد عصره في فنه وتوفي سنة ٣١٧ هـ[٢] وغيرهم . يليهم في القرن الرابع والخامس ابو الوفاء البوزجاني والبيروني ومعاصروه كثيرون . وامام فلكيي القرن السابع للهجرة نصير الدين الطوسي ونبغ في عصره المؤيد العرضي وابنه محمد والفخر المراغي بالموصل والفخر الخلاطي بتفليس ونجم الدين القزويني[٣] وغيرهم في عصور اخرى وتفصيل مؤلفاتهم ووصفها من شؤون « تاريخ آداب اللغة » وانما يهمنا في هذا المقام النظر في ما احدثه التمدن الاسلامي في علم الفلك

واول ما يستلفت انتباهنا من هذا القبيل ان العرب (او المسلمين) قالوا بابطال صناعة التنجيم المبنية على الوهم[٤] ولعلهم اول من فعل ذلك وان كانوا لم يستطيعوا ابطالها ولكنهم مالوا بعلم النجوم نحو الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كما فعلوا بعلم الكيمياء . وكانوا كثيري العناية بعلم الفلك يرصدون الافلاك ويؤلفون الازياج ويقيسون العروض ويراقبون السيارات ويرتحلون في طلب ذلك العلم الى الهند وفارس ويتبحرون في كتب الاوائل ويتممون ما نقص منها او يجمعون بين مذاهبها . ولعلم الفلك عند العرب تاريخ طويل لا يسعه هذا المكان فنذكر اولاً المراصد ثم نأتي على امثلة مما استنبطوه في هذا العلم

(١) تراجم الحكماء (خط) (٢) الفهرست ٢٧٩ (٣) ابو الفرج ٥٠١
(٤) ابن خلدون ٤٥٧ ج ١

المراصد

الرصد اساس علم الفلك وعليه المعوَّل في تعيين اماكن النجوم وحركاتها وكان له شان كبير عند اليونان فرصدوا الكواكب واصطنعوا آلات الرصد وفي القرن الثالث قبل الميلاد بنوا مرصداً في الاسكندرية بلغ قمة ارتقائه على عهد بطليموس القلوذي صاحب المجسطي . وظل المرصد الاسكندري وحيداً في العالم حتى نهض العرب وانشاوا المراصد في بغداد ودمشق ومصر والاندلس ومراغة وسمرقند وغيرها كما سيجيء

﴿ آلات الرصد ﴾ وللرصد آلات كان منها في عهد التمدن الاسلامي بضعة عشر شكلاً تختلف باختلاف الغرض منها وهاك اهمها :

(١) اللبنة : وهي جسم مربع مستو يستعلم به الميل الكلي وابعاد الكواكب وعرض البلد

(٢) الحلقة الاعتدالية : هي حلقة تنصب في سطح دائرة المعدّل ليعلم بها التحويل الاعتدالي

(٣) ذات الاوتار : هي اربع اسطوانات مربعة تغني عن الحلقة الاعتدالية و يعلم بها تحويل الميل

(٤) ذات الحلق : هي اعظم الآلات هيئة ومدلولاً وتركب من حلقة تقوم مقام منطقة فلك البروج وحلقة تقوم مقام المارة بالاقطاب تركب احداهما في الاخرى بالتنصيف والتقطيع . وحلقة الطول الكبرى وحلقة الطول الصغرى تركب الاولى في محدب المنطقة والثانية في مقعرها . وحلقة نصف النهار وقطر مقعرها مساو لقطر محدب حلقة الطول الكبرى . ومن حلقة الارض قطر محدبها قدر قطر مقعر حلقة الطول الصغرى . وهي توضع على كرسي

(٥) ذات السمت والارتفاع : هي نصف حلقة قطرها سطح من سطوح اسطوانة متوازية السطوح يعلم بها السمت وارتفاعه وهي من مخترعات الرصاد الاسلاميين

(٦) ذات الشعبتين : هي ثلاث مساطر على كرسي يعلم بها الارتفاع

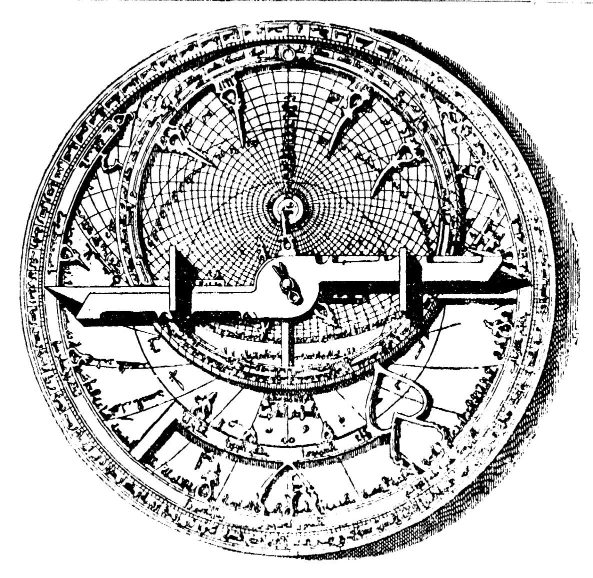
(٧) ذات الجيب : هي مسطرتان منتظمتان انتظام ذات الشعبتين

(٨) المشتبهة بالناطق : لمعرفة مابين الكوكبين من البعد وهي ثلاث مساطر

(٩) الاسطرلاب : وهو انواع كثيرة منها التام والمسطح والطوماري والهلالي والزورقي والعقربي والآسي والقوسي والجنوبي والشمالي والمبطح والمسرطق وحق القمر والمغني والجامعة وعصا موسى . ناهيك من آلات الرصد بالارباع واشكالها ولكل شكل تنوعات مما لا يحصيه عد [1]

---

(١) ابجد العلوم ٣٤٢



اسطرلاب عربي

المراصد في الاسلام لما اشتغل المامون في نقل علوم الاوائل الى العربية ووقف العلماء على كتاب المجسطي وفهموا صور آلات الرصد الموصوفة به نزعت به همته الى تحديه بجمع علماء النجوم في عصره وامرهم ان يصنعوا آلات يرصدون بها الكواكب كما فعل بطليموس صاحب المجسطي ففعلوا وتولوا الرصد بها بالشماسية في بغداد وجبل قيسون في دمشق سنة ٢١٤ هـ[1] ولما توفي المامون سنة ٢١٨ هـ توقفوا عن العمل وقيدوا ما كانوا قد تبينوه من رصدهم وسموه الرصد الماموني ٠ وكان الذين تولوا ذلك يحيى بن ابي منصور كبير المنجمين في عصره وخالد المروزي وسند بن علي والعباس بن سفيد الجوهري فالف كل منهم في ذلك زيجاً منسوباً اليه ٠ وارصاد هؤلاء اول الارصاد في الاسلام[2].

ثم بنى بنو شاكر مرصداً في بغداد على طرف الجسر عند اتصاله بالطاق ورصدوا الكواكب فيه واستخرجوا حساب العروض الاكبر من عروض القمر[3] وبنى شرف الدولة ابن عضد الدولة رصداً في طرف بستان دار المملكة في اواسط القرن الرابع للهجرة وقد رصد فيه الكواكب السبعة ابو سهل الكوهي[4]

(١) تراجم الحكماء (خط)   (٢) كشف الظنون ٥٧٣ ج ١

(٣) فوات الوفيات ١٥١ ج ١   (٤) ابو الفرج ٣٠٧

ولما ضعف شان الخلافة في بغداد وتشعبت المملكة العباسية الى فروع تحولت الهمم الى تلك الفروع واكبرها المملكة المصرية في ايام الفاطميين فأنشاوا رصداً (او مرصداً) على جبل المقطم عرف بالرصد الحاكمي نسبة الى الحاكم بامر الله المتوفى سنة ٤١١ﻫ وفيه استخرج ابن يونس الزيج الحاكمي[1] ثم اعيد بناءُ هذا الرصد في ايام الافضل بن امير الجيوش المتوفى سنة ٥١٥ ﻫ وذكر المقريزي خبر انشائه في حديث طويل . وانشأ بنو الاعلم ببغداد سنة ٤٢٥ ﻫ رصداً اعرف باسمهم . وذكر صاحب فوات الوفيات رصداً في حدود الشام سماه اليبناني (كذا)

وما زال الرصد الحاكمي عمدة الراصدين حتى نشأ نصير الدين الطوسي على عهد هولاكو التتري فبنى مرصداً في مراغة من بلاد تركستان سنة ٦٥٧ ﻫ اعدَّ فيه كل مايلزم من الآلات وأنفق فيه الاموال الطائلة وانشأ له مكتبة فيها ٤٠٠,٠٠٠ مجلد[2] ثم بنى تيمورلنك مرصداً في سمرقند وبنى غيرهم مراصد أخرى في اصبهان ومصر والاندلس وارصاداً خصوصية او عمومية لم يصل الينا تفصيلها

علم النجوم والاسلام

وفي هذه المراصد اشتغل المسلمون في رصد الكواكب ووضع الازياج واطولها الزيج الحاكمي المتقدم ذكره كتبه ابن يونس في اربعة مجلدات وكان عليه تعويل المسلمين بعد ما سبقه من الازياج البغدادية . ومن أشهر الازياج زيج الفزراي صاحب المنصور وازياج الخوارزمي وأبي حنيفة الدينوري صاحب رصد اصبهان وأبي معشر البلخي وضع زيجه على مذهب الفرس وزيج ابي السمح الغرناطي المتوفى سنة ٤٢٦ ﻫ وزيج ابي حماد الاندلسي والزيج الايلخاني لنصير الدين الطوسي وزيج ابن الشاطر الانصاري سنة ٧٧٧ ﻫ وغيرهم[3] وقد اصلحوا في هذه الازياج كثيراً من الارصاد اليونانية

وللمسلمين طرق جديدة ادخلوها في الرصد من عند انفسهم واخترعوا كثيراً من آلاته كذات السمت والارتفاع اللتين تقدم ذكرها وذات الاوتار والمشبهة بالناطق فانها من اختراع تقي الدين الراصد[4] . والبديع الاسطرلابي البغدادي المتوفى في اوائل القرن السادس للهجرة زاد في الكرة ذات الكرسي ما كمل عملها بعد ان مرَّت السنون على نقصها والف رسالة في ذلك وكمل الآلة الشاملة التي ابتدعها الخجندي وجعلها بعرض واحد واقام الادلة على انها لا تكون لعروض متعددة فنظر فيها البديع المذكور وعملها

(١) ابن خلكان ٣٧٥ ج ١ (٢) فوات الوفيات ١٤٩ ج ٢
(٣) كشف الظنون ١٣ ج ٢ (٤) ابجد العلوم ٣٤٢

لعروض متعددة غير ما اخترعه من المساطر والبراكير وغيرها [١]

وادخل الشيخ شرف الدين الطوسي تحسيناً في الاسطرلاب فاستنبط ان يقع المقصود من الكرة والاسطرلاب في خط فوضعه وسماه العصا وعمل فيه رسالة بديعة وهو اول من اظهر هذا في الوجود فصارت الهيئة توجد في الكرة وهي جسم وفي السطح وفي الخط ولم يبق غير النقطة [٢] وبيَّن البتاني نقطة الذنب للارض واصلح قيمة مبادرة الاعتدالين وقيمة ميل دائرة البروج على دائرة خط الاستواء وهو اول من استخدم الجيوب والاوتار في قياس المثلثات والزوايا [٣]

والبيروني اول من استنبط تسطيح الكرة وقد فصل ذلك في كتابه الآثار الباقية[٤] وللبيروني استنباطات جليلة في الفلك والرياضيات يستدل عليها من قراءة كتابه المذكور ومن فهرست مؤلفاته في مقدمة ذلك الكتاب • يكفيه انه نقل علوم اليونان الى الهند ونقل حكمة الهنود الى المسلمين • فقد دخل بلاد الهند واقام فيها عدة سنين وتعلم من حكمائها فنونهم وعلمهم طرق اليونانيين في فلسفتهم [٥] بظل السلطان محمود الغزنوي كما فعل نصير الدين الطوسي في نشر علم النجوم بين المغول في ظل هولاكو التتري وكما نشره عمر الخيامي بين السلاجقة ومرجع الفضل في ذلك للاسلام

فطار خبر فلكيي المسلمين في اقطار العالم وأصبح المرجع اليهم في تحقيق المسائل فان ملوك الافرنج كانوا يرسلون اليهم في حل المشكلات الفلكية فيعرضون عليهم المسائل ويطلبون حلها ليس في الاندلس فقط لقربها من بلادهم ولكنهم كانوا يوفدون الوفود الى ممالك الاسلام في الشرق لهذه الغاية •. ومما نقله ابن أبي أُصيبعة ان الانبرور ملك الافرنج انفذ الى بدر الدين لولؤ صاحب الموصل رسولاً وبيده مسائل في علم النجوم وغيره فبعث بدر الدين الى كمال الدين ابن يونس في حلها في حديث طويل [٦]

ويعترف الاسبان ان العرب علموهم الرقاص (البندول) لقياس الزمان ولا يخفى ما بني على الرقاص من الآلات الفلكية وغيرها • على انهم كانوا يعرفون عمل الساعات من قبل ويقال ان الرشيد اهدى الملك شارلمان ساعة بديعة تناقل الافرنج خبرها

ومن فضل العرب على الفلك وسائر الرياضيات انهم نقلوا عن اليونانية كتباً ضاع أصلها بعد نقلها وحفظت العلوم في ترجماتها العربية • منها مؤلفات تموخارس وارستلوس

---

(١) تراجم الحكماء (٢) ابن خلكان ١٨٥ ج ٢ (٣) القبة الزرقاء ٥

(٤) البيروني ٣٥٧ (٥) ابو الفرج ٣٢٥ (٦) طبقات الاطباء ٣٠٦ ج ١

وكرويات منيلاوس وكرويات ثاوون وشرحه للمجسطي [١] ولم يقتصر ذلك على كتب الفلك ولكنه تناول كثيراً من العلوم حتى كتب الادب فان كليلة ودمنة نقله ابن المقفع من الفارسية وقد ضاع أصله الفارسي فلما عمد أهل أوربا الى ترجمته نقلوه عن العربية

الحساب والجبر والهندسة

كان العرب في صدر الاسلام يستنكفون من تعلم الحساب لانه من شأن عمال الخراج أهل الذمة والموالي وكانوا يقتصرون على العمل بوصية عمر بتعليم أولادهم الشعر والفروسية والسباحة والمثل • فلما تحضروا ورأوا افتقارهم للحساب مالوا اليه وشاع فيهم قول ابن التوأم « علم ابنك الحساب قبل الكتاب » [٢] ثم ما لبثوا ان استغرقوا في طلب العلم كله على اختلاف انواعه ونقلوه الى لسانهم فكان الحساب في جملة تلك العلوم وهو مما اشتغل فيه الفلكيون والمهندسون ونحوهم وقلما انفرد واحد منهم بالحساب وحده

ومن اكبر مآثر التمدن الاسلامي في الرياضيات نقلهم الحساب الهندي والارقام الهندية من الهند الى سائر اقطار العالم • فالعرب يسمونها ارقاماً هندية لانهم نقلوها عن الهنود والافرنج يسمونها عربية لانهم أخذوها عن العرب [٣] واول من تناول تلك الارقام من الهنود ابو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي [٤] ومن اسمه اشتق الافرنج لفظ (Algorism) الافرنجية

وأما الجبر فللعرب فضل كبير في وضعه او تأليفه فقد رأيت في كلامنا عن نقل العلوم اليونانية ان العرب نقلوا كتابين في الجبر أحدهما لذيوفانتوس والآخر لابرخس • وقد وجد الباحثون بعد نهضة التمدن الحديث ان ما كتبه هذان ليس من الجبر في شيء او هي أصول ضعيفة لا يعتدُّ بها وهم يعتقدون ان الجبر من موضوعات العرب • والحقيقة على ما نرى ان العرب بعد ان اطلعوا على حساب الهنود اضافوه الى ما نقلوه عن اليونان وبنوا على ذلك علم الجبر • ومن اشهر كتب المسلمين في الجبر كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي المذكور فالظاهر ان الخوارزمي جمع بين ما عثر عليه من الاصول الجبرية عند اليونان والهنود

(١) القبة الزرقاء ٥ (٢) البيان والتبين ٢١٣ ج ١

(٣) راجع كتابنا الفلسفة اللغوية الطبعة الثانية ١١٦

(٤) تراجم الحكماء (خط)

والفرس فاستخرج منه الجبر العربي كما جمع في زيجه بين آراء الهند والفرس واليونان • وقد عني العرب بشرح كتاب الخوارزمي مراراً • والف ايضاً في الجبر ابو كامل شجاع ابن اسلم وابو الوفاء البوزجاني واكثر مؤلفاته في الحساب وابو حنيفة الدينوري المتوفى سنة ٢٨١ هـ وابو العباس السرخسي المتوفى سنة ٢٨٦هـ وغيرهم • ولما نهض الافرنج في تمدنهم الحديث اخذوا الجبر عن العرب

ومما احدثه المسلمون في الهندسة انهم طبقوها على المنطق وقد فعل ذلك ابن الهيثم في اوائل القرن الخامس للهجرة فانه الف كتاباً جمع فيه الاصول الهندسية والعددية من اقليدس وابلونيوس ونوع فيها الاصول وقسمها وبرهن عليها ببراهين نظمها من الامور التعليمية والحسية والمنطقية حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالي اقليدس وابلونيوس وأدخل في الجبر والحساب اساليب جديدة في استخراج المسائل الحسابية من جهتي التحليل الهندسي والتقدير العددي وعدل فيه عن اوضاع الجبريين والفاظهم[١]

والحسن بن موسى بن شاكر اشتغل في استخراج مسائل هندسية لم يستخرجها احد من الاولين كقسمة الزاوية الى ثلاثة اقسام متساوية وطرح خطين بين خطين ذي توالي على نسبة (كذا) وكان يحللها ويردها على المسائل الاخرى ولا ينتهي الى آخر أمرها لانها أعيت الاولين[٢]

الفنون الجميلة

الفنون الجميلة تسمية جديدة لما تنبسط له النفس من المصنوعات لجماله ورونقه لا لمنفعته ومتانته • والفنون التي تدخل في اعتبارهم تحت هذه التسمية قسمان الاول تظهر اشكاله محسوسة كالحفر والتصوير والنحت والتمثيل • والثاني ما لا يحس ولا يرى بل هو من قبيل الخيال كالشعر والموسيقى • او ان الفنون المذكورة ترجع بكليتها الى التصوير وابعضها صور محسوسة كالمنحوتات والمرسومات وللبعض الآخر صور خيالية كالشعر والموسيقى • والامم التي تمدنت قبل الاسلام اشتغلت في هذه الفنون على تفاوت في اتقانها • وممن أجاد فيها اليونان والرومان فانهم نحتوا التماثيل وصوروا الصور ومثلوا الحوادث ونظموا الشعر وضبطوا الالحان

---

(١) طبقات الاطباء ٩٣ ج ٢ (٢) تراجم الحكماء

ومن الاعتقادات الشائعة ان التمدن الاسلامي مقصر في هذه الفنون لانه لم يخلف ماخلفه اليونان أو الرومان من الآثار الجميلة كالابنية والتماثيل والصور ونحوها • ولو دققنا النظر لرأينا المسلمين او العرب من اكثر الامم استعداداً للفنون الجميلة والاجادة فيها لايقلون شيئاً عن اليونان والرومان وربما فاقوهما في بعضها • اما الجمال المحسوس فقد اجادوا في ما يتعلق منه بالبناء ولهم نمط خاص فيه مشهور ومن آثارهم البنائية الحمراء في الاندلس وجوامع القاهرة والشام وفارس والهند وهي تدل على تقدم عظيم في هندسة البناء مع ما فيها من زخارفه كالفسيفساء ونحوها مما يدهش النظر • ولهم نحو ذلك في الصياغة والنسج ونحوهما من الصنائع الجميلة • اما التصوير فلم يشتغلوا فيه لانه محرّم عندهم كما هو معلوم

اما الشعر فقد بينا في ما تقدم ان العرب اكثر الامم انطباعاً على الشعر واتقاناً له واكثرهم نظماً واوسعهم خيالاً

الموسيقى

واما الموسيقى فالعرب فاقوا سواهم فيها وقد وضعوا الالحان واخترعوا الآلات المطربة واتقنوا صنعها وكان للموسيقى عندهم شأن كبير • والمشهور ان العرب كان عندهم من الالحان شيء يوافق سذاجتهم وخشونة الجاهلية فلما ظهر الاسلام واختلطوا بالروم والفرس اقتبسوا الموسيقى عن تلك الامم قبل سائر العلوم الدخيلة لان اقتباسها لا يحتاج الى نقل أو ترجمة • واول من فعل ذلك عبد مكيٌّ اسمه سعيد بن مسجح كان حسن الصوت مغرماً بالموسيقى وكان في مكة عند حصار الامويين لها على عهد عبدالله بن الزبير في الثلث الاخير من القرن الاول للهجرة • واستخدم ابن الزبير بعض رجال الفرس في ترميم الكعبة فسمع ابن مسجح بعضهم يغني بالفارسية فطرب والتقط النغم منه ثم رحل الى الشام وفارس واخذ الالحان الرومية والفارسية والقى منها ما استقبحه من النبرات والنغم مما لا يألفه الذوق العربي وغنى على هذا المذهب وهو اول من فعل ذلك • واخذ عنه من جاء بعده من مغني المسلمين فنبغ منهم جماعة كبيرة • وكان الغناء يزداد اتقاناً و يزداد نبوغ المغنيين كلما قربت الدولة من الترف والقصف ولذلك كثروا في اواخر الدولة الاموية واواسط الدولة العباسية • ومن اشهر المغنيين ابن سريج والغريض ومعبد وحكم الوادي وفليج بن ابي العوراء وسياط ونشيط وعمر الوادي وابراهيم الموصلي وابنه اسحق وغيرهم • ومن المغنيات جميلة وحبابه وسلامة وعقيلة وغيرهن

ولما اشتغل المسلمون في نقل العلوم الدخيلة كان من جملتها كتب الموسيقى لليونان والهند فتناولها المسلمون ودرسوها واصبحت الموسيقى علماً عندهم باصول وقد جمعوا بين الحان اليونان والهنود والفرس والعرب فالفوا من ذلك علماً خاصاً بالتمدن الاسلامي بلغ درجة حسنة من الاتقان · فالفوا فيه المؤلفات المسهبة فضلاً عما استنبطوه من الالحان او اخترعوه من الآلات · وكان للخلفاء عناية كبرى في الغناء يبذلون الاموال في سبيل تنشيطه كما هو مشهور وكانوا يشترطون في المغني ان يكون حافظاً للاشعار والنوادر يحسن النحو والاعراب فكان المغنون في الدولة العباسية من احاسن اهل الادب وفيهم من يحسن الفقه فضلاً عن الادب واللغة كابراهيم بن اسحق الموصلي[1] وغيره و بعضهم كان عالماً بالنجوم مثل زرياب المغني · وكثيراً ما كان الخلفاء يجمعون المغنين للمناظرة بينهم في التلحين[2] ويجيزون المجيدين و يغدقون عليهم الرواتب والجواري · فقد كان راتب الموصلي عند الهادي ١٠,٠٠٠ درهم في الشهر غير الصلات وغلات الضياع وغيرها[3] ولما قدم زرياب المغني من العراق الى الاندلس ركب الامير عبد الرحمن بنفسه للقائه[4]

وقد ادخل الموسيقيون المسلمون في فن الموسيقى الحاناً لم تكن من قبل وفيها ما لم يسبق له مثيل في تأثيره · ذكروا منها الحاناً لا يقدر الشبعان الممتلئ على غنائها ولا سقّاء يحمل قربة على الترنم بها واخرى لايقدر المتكيء ان يغنيها حتى يقعد مستوفزاً ولا القاعد حتى يقوم[5]

الآلات الموسيقية والآلات الموسيقية اخذوا اكثرها عن الفرس والانباط والروم والهند فقد كان لكل من هذه الامم آلات خاصة يتغنون بها — كان غناء الفرس بالعيدان والصنوج وغناء اهل خراسان بالزنج ذات سبعة اوتار ايقاعه يشبه ايقاع الصنج · وغناء اهل طبرستان والديلم بالطنابير · وغناء الانباط والجرامقة بالعيروارات وهي كالطنابير · والروم كان غناؤهم بآلة يسمونها الاوعر عليها ١٦ وتراً والسلبان له ٢٤ وتراً واللوزا وهي كالرباب من خشب لها خمسة اوتار والقيثارة ولها ١٢ وتراً والصليح من جلود العجاجيل والارغن وهو منافخ من الجلود · وكان للهند الكنكلة بوتر واحد يمدّ على قرعة فيقوم مقام العود والصنج · وكان عند العرب الدف والمزهر · فالمسلمون جمعوا بين هذه الآلات الكثيرة كما جمعوا بين علوم تلك الامم واستخرجوا احسنها وزادوا فيها وحسنوها فضلاً عما استنبطوه من عند انفسهم كالآلة المعروفة بالقانون فقد اخترعها الفارابي الفيلسوف

---

(١) ابن خلكان ٦٦ ج ١ (٢) حلبة الكميت ١٨٠ (٣) حلبة الكميت ٦٣
(٤) نفح الطيب ١٦٣ ج ١ (٥) الاغاني ٢٠ ج ١

وهو اول من ركبها هذا التركيب ولا تزال عليه الى الآن

واصطنع الفارابي آلة مؤلفة من عيدان يركبها و يضرب عليها وتختلف انغامها باختلاف تركيبها ولكنها في كل حال غريبة في بابها — ذكروا ان الفارابي حضر مجلس غناء لسيف الدولة ولم يكن احد من الحضور يعرفه فعاب المغنين فسأله سيف الدولة هل يحسن الغناء ففتح خريطة واستخرج تلك الآلة وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس ثم فكها وركبها تركيباً آخر وضرب عليها فبكى كل من كان في المجلس ثم فكها وغير تركيبها وضرب ضرباً آخر فنام كل من في المجلس حتى البواب فتركهم نياماً وخرج[1]

وزاد المسلمون في العود وتراً خامساً زاده زرياب بالاندلس وكان للعود اربعة اوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الاربع فزاد عليها وتراً خامساً احمر متوسط ولون الاوتار وطبقها على الطبائع . وهو الذي اخترع مضراب العود من قوادم النسر وكانوا قبله يضربون بالخشب . وعباس بن فرناس في الاندلس اصطنع الآلة المعروفة بالمثقال يعرف بها الاوقات على غير رسم ومثال[2]

وبالجملة ان العرب لم يقصروا في الفنون الجميلة بل هم فاقوا سواهم في اكثرها وانما قصروا في بعضها مراعاة للدين

المدارس في الاسلام

التعليم

قد رأيت في ما تقدم ان القرآن اساس العلوم الاسلامية فتعليمه اساس التعليم الاسلامي واول دروس القرآن قراءته فاول المعلمين في الاسلام النبي علَّمهُ للصحابة وهم علموه للناس مع ما ترتب عليه او تفرع عنه من العلوم . ولهذا السبب كانت مدارس المسلمين في جوامعهم كما كانت مدارس النصارى في اديرتهم وكنائسهم . وكانوا يسمون التلامذة المجتمعين حول استاذ يتلقون علماً من العلوم « حلقة » . وتفرعت العلوم بتوالي الاعوام واتسعت دوائرها حتى اصبح للعلم الواحد عدة حلقات والغالب ان تنسب الحلقة الى استاذها فيقولون مثلاً حلقة ابي اسحق الشيرازي في جامع المنصور او نحو ذلك . وكانوا يجعلون في كل جامع خزانة كتب للمطالعة او الاستنساخ

(١) ابن خلكان ٧٧ ج ٢ (٢) نفح الطيب ٧٨٣ ج ٢

على ان التعليم لم يكن خاصًا بالمساجد فكثيرًا ما كانوا ينشئون حلقات التدريس في المارستانات او الربط او المنازل او غيرها . وكان الاغنياء اذا ارادوا تعليم اولادهم احضروا المعلمين الى منازلهم كذلك كان يفعل الخلفاء والامراء ولا يزال اهل الوجاهة يفعلون ذلك الى اليوم

واشهر الجوامع في التدريس على الاطلاق الجامع الازهر في القاهرة فقد بني مع القاهرة في اواسط القرن الرابع للهجرة وكانت تلقى فيه دروس القرآن والفقه على جاري العادة في سائر الجوامع . وكان جماعة من الطلبة يقيمون فيه ويسمَّون المجاورين ومنهم من جاء من اقاصي البلاد الاسلامية حتى تركستان والهند وزيلع وسنار ولكل طائفة منهم رواق باسمها كرواق الشوام او المغاربة او العجم او الزيالعة او السنارية او اليمنية او الهندية فضلاً عن اروقة اهل الصعيد . وبلغ عدد تلامذة الازهر في اوائل القرن التاسع للهجرة ٧٥٠ طالبًا من طوائف مختلفة وكانوا يقيمون في الجامع ومعهم صناديقهم وخزائنهم يتعلمون فيه الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق ومجالس الوعظ وحلق الذكر . وربما بات في الجامع كثيرون من غير الطلبة للتبرك او المأوى وللجامع المذكور تاريخ طويل ترى تفصيله في خطط المقريزي والخطط التوفيقية . على ان حاله كانت تختلف باختلاف المذهب السائد بمصر وباختلاف مناقب الحكام . وبلغ عدد مجاوريه في عهد العائلة الخديوية بضعة عشر الفًا والهمة مبذولة في ادخال بعض العلوم الحديثة فيه

المدارس

ومما لاحظناه من امر التعليم في التمدن الاسلامي ان العلم نضج على اختلاف وجهاته واثمر ونبغ العلماء والفقهاء والاطباء والفلاسفة وليس في الاسلام مدرسة مستقلة نحو مدارس هذه الايام . وقد اجمع المؤرخون المسلمون تقريبًا على ان اول من بنى المدارس في الاسلام نظام الملك الطوسي وزير ملك شاه السلطان السلجوقي في اواسط القرن الخامس للهجرة . ومن الغريب ان ينقضي العصر العباسي ويتم نقل الكتب وينضج العلم على اختلاف مواضيعه ولم ينشئ المسلمون مدرسة او ان ينشئوا المدارس ولا يرد ذكرها في تاريخهم . ولكننا رأينا الافرنج يذكرون للمسلمين مدرسة انشأها المامون في خراسان وهو والٍ هناك (١) ولا ندري من اين نقلوا ذلك ولم نرَ له ذكرًا في كتب العرب التي طالعناها . على اننا رأينا في ما ذكره المسلمون عدة مدارس انشئت في نيسابور عاصمة خراسان قبل زمن

(١) Encyclopaedia Brit. art. Al-Mamun

نظام الملك منها مدرسة ابن فورك المتوفى سنة ٤٠٦[١] والمدرسة البيهقية نسبة الى البيهقي المتوفى سنة ٤٥٠ ﻫ والمدرسة السعيدية بناها نصر بن سبكتكين اخو السلطان محمود الغزنوي الشهير ومدرسة بناها اسمعيل الاسترابادي الصوفي الواعظ واخرى بنيت للاستاذ ابي اسحق[٢] وكل هذه المدارس بنيت قبل بناء المدرسة النظامية في بغداد · حتى نظام الملك نفسه بنى مدرسة بهذا الاسم في نيسابور ايضاً قبل مدرسة بغداد بناها لامام الحرمين في سلطنة الب ارسلان[٣] فلعل السبب في اشتهار اسبقية نظام الملك في انشاء المدارس الاسلامية انه اول من بنى مدرسة كبرى في بغداد وجعل التعليم فيها مجاناً وفرض لتلامذتها الارزاق والجواري والمعاليم

وفي كل حال ان اول من بنى المدارس في الاسلام الامراء الاعاجم واذا صحت رواية الافرنج عن مدرسة المأمون في خراسان (او نيسابور) فقد بنيت في بلاد اعجمية لغرض اعجمي والا فلماذا لم يبن المأمون مثلها في بغداد لما تولى الخلافة واشتغل في نقل العلوم ؟ — فما هو السبب في اختصاص انشاء المدارس في الاسلام بغير الخلفاء : —

قد رايت في ما تقدم منزلة العلماء المسلمين عند الخلفاء والامراء لارتباط السياسة بالدين عندهم ولان العلماء هم حملة الدين والداعون اليه · فكان العلماء في اوائل الاسلام يشاركون الخلفاء في النفوذ على العامة ويساعدونهم فيه · فلما ضعف شأن الخلفاء وافضت الحكومة الى السلاطين والامراء من الفرس والاتراك والديلم والاكراد وغيرهم اصبح هؤلاء في حاجة الى اكتساب قلوب العامة لتأييد سلطانهم بما يقوم مقام نفوذ الخلفاء الديني · واقرب السبل المؤدية الى ذلك الاحسان الى الفقراء واكرام العلماء والفقهاء · فأصبح السلطان او الامير اذا تولى بلداً وكان حكيماً عاقلاً فأول مايسعى فيه تقريب العلماء والفقهاء واسترضاء العامة بانشاء الجوامع والربط والمارستانات ونحوها وتعيين الرواتب والارزاق للعلماء والفقراء وغيرهم فيكتسبون بذلك ثقة العامة ورضى الخاصة — غير مايرجونه من الثواب · كذلك فعل احمد بن طولون بمصر وعضد الدولة في بغداد ونورالدين في الشام وصلاح الدين بمصر · وآخر من نسج على هذا المنوال محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية وكان من نتائج مساعيه في هذا السبيل حدوث النهضة العلمية في مصر والشام

وذلك ايضاً مما حمل نظام الملك على انشاء المدارس لانه وزر للسلطان الب ارسلان عشر

(١) ابن خلكان ٤٨٢ ج ١ (٢) السيوطي ١٨٥ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٢٨٧ ج ١

سنين وكان بمنزلة والده وله النفوذ الاكبر عنده فلما توفي الب ارسلان وازدحم اولاده على الملك وطد المملكة لولده ملك شاه فصار الامر كله لنظام الملك وليس للسلطان غير التخت والصيد — اقام على ذلك عشرين سنة وكانت طائفة الباطنية قد استفحل امرها في ذلك العصر وكثر المزاحمون على السلطة • وكان نظام الملك عاقلاً حكيماً فبذل جهده في استمالة الاعداء وموالاة الاولياء فأكثر من الاحسان حتى عمَّ به العدو والصديق والبغيض والحبيب • وكان من اهم مساعيه في ذلك انه بنى دور العلم للفقهاء وانشأ المدارس للعلماء وأسس الرباطات للعباد والزهاد واهل الصلاح والفقراء ثم أجرى الجرايات والنفقات لطلبة العلم وغيرهم• وعمَّ بذلك سائر اقطار مملكته في الشام وديار بكر والعراقين وخراسان الى سمرقند فلم يكن فيها حامل علم او طالبه او متعبد او زاهد الاَّ وكرامة نظام الملك شاملة له سابغة عليه وقدروا ما كان ينفقه في هذا السبيل فبلغ ٦٠٠,٠٠٠ دينار في السنة • فوشى به بعضهم الى السلطان وقالوا « ان الاموال التي ينفقها نظام الملك في ذلك تقيم جيشاً يركز رايته في سور القسطنطينية » فعاتبه ملك شاه في ذلك فأجابه « يابني انا شيخ اعجمي لو نودي عليَّ في من يزيد لم احفظ خمسة دنانير وأنت غلام تركي لو نودي عليك عساك تحفظ ثلاثين ديناراً وأنت مشتغل بلذاتك منهمك في شهواتك واكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك وجيوشك الذين تعدُّهم للنوائب اذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان وقوس لاينتهي مدى مرماها ثلثمائة ذراع وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي والخمور والملاهي والمزمار والطنبور وأنا اقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل اذا نامت جيوشك ليلاً قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفاً بين يدي ربهم فأرسلوا دموعهم واطلقوا السنتهم ومدوا الى الله اكفهم بالدعاء لك ولجيوشك فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون وبدعائهم تبيتون وببركاتهم تمطرون وترزقون » فقبل ملك شاه وسكت [1] وتوفي نظام الملك مقتولاً سنة ٤٨٥ هـ

ومن الاسباب التي كانت تحمل الامراء غير العرب على انشاء المدارس والمساجد غير التماس الاجر والثواب انهم كانوا ينشأون في بلاط السلطان ويغلب ان يكونوا من صنائعه او مواليه فيكون له عليهم حق الولاء او الرق • فاذا توفي أحدهم عن مال او ضياع وأراد السلطان قبضها فعل وحرم ابناءهُ منها • فكان الرجل منهم اذا بلغ الامارة وكثر ماله خاف عادية السلطان على من يخلفه من ذريته فيبني المدارس او الزوايا او الربط ويقف

(١) سراج الملوك ٢٦٧

عليها الاوقاف المغلة من ضياعه او ابنيته ويجعل في شروط الاوقاف ان يتولاها بعض ولده وله نصيب منها والاوقاف ثابتة فيأمن بذلك على أولاده الفقر

وكان من أسباب انشاء المدارس أيضاً تأييد المذهب الذي يتبعه السلطان او الامير فقد كانت القاهرة شيعية منذ بنيت وكانت الدروس التي تلقى في الجامع الازهر على مذهب الشيعة فلما تولاها صلاح الدين الايوبي ابطل هذا المذهب واحيا المذهبين المالكي والشافعي فانشأ المدارس لتعليم هذين المذهبين فبنى المدرسة الناصرية سنة ٥٦٦ ﻫ للمذهب الشافعي وهي اول مدرسة حدثت بمصر [1] واقتدى به من جاء بعده من الاكراد والاتراك

ومهما يكن السبب فلا خلاف في ان نظام الملك أول من اشتهر بانشاء المدارس في الاسلام في اواسط القرن الخامس للهجرة ٠ فبنى المدارس في بغداد وأصبهان ونيسابور وهرات وغيرها وكل منها تنعت بالنظامية نسبة اليه أشهرها المدرسة النظامية في بغداد تولى بناءها أبو سعيد الصوفي سنة ٤٥٧ ﻫ على شاطىء دجلة وكتب عليها اسم نظام الملك وبنى حولها اسواقاً تكون محبسة عليها وابتاع ضياعاً وخانات وحمامات وقفها عليها فبلغت النفقة ما يقارب ٦٠,٠٠٠ دينار

وكان للمدرسة المذكورة شأن كبير في العالم الاسلامي وقد تخرج فيها جماعة من رجال العلم طار ذكرهم في الافاق ٠ اول اساتذتها الشيخ ابواسحق الشيرازي ثم الامام ابو نصر الصباغ صاحب الشامل ثم أبو القاسم الدبوسي وأبو حامد الغزالي والشاشي والكيا الهراسي والسهروردي وكمال الدين الانباري وغيرهم من اقطاب العلم ٠ فأصبح التعليم في هذه المدرسة من اكبر اسباب الثقة بالمعلمين وكانت تعلم فيها العلوم الدينية والفقهية واللسانية

واقتدى السلاطين والامراء بنظام الملك في انشاء المدارس المجانية على هذه الصورة في انحاء المملكة الاسلامية وأشهرهم على الترتيب السلطان نور الدين زكي صاحب دمشق المتوفى سنة ٥٧٧ ﻫ وهو تركي الاصل بنى المدارس في جميع بلاد الشام وغيرها مثل دمشق وحلب وحماه وحمص وبعلبك ومنبج والرحبة غير مابناه من المارستانات والمساجد ودور الحديث والربط ٠ ثم السلطان صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٩ وهو كردي بنى المدارس في مصر والاسكندرية والقدس وغيرها ٠ ثم الملك المعظم مظفر الدين صاحب اربل المتوفى سنة ٦٣٠ ﻫ فقد بنى كثيراً من المدارس ودور الايتام والملاقيط والارامل وغيرها ٠ واقتدى بالسلطان صلاح الدين من خلفه من أهله في مصر فتسابقوا الى انشاء المدارس

(١) الخطط التوفيقية ٨٧ ج ١

فيها فبلغ عددها بعد انقضاء ملكهم ٢٥ مدرسة ولما افضى الملك الى السلاطين المماليك ساروا على خطواتهم واقتدى بهم الاغنياء فبلغ عدد ما أنشأوه بمصر الى أيام المقريزي في أواسط القرن التاسع للهجرة ٤٥ مدرسة وصار المجموع ٧٠ مدرسة٠ ويقال نحو ذلك في الاصقاع الاخرى ٠ وأول من أنشأ المدارس في الدولة العثمانية السلطان اورخان المتوفى سنة ٧٦١ هـ واقتدى به سلاطين آل عثمان بانشائها وأشهرها المدارس الثمان التي انشاها السلطان سليمان [١]

وجاءَ في رحلة ابن جبير الذي طاف الشرق الاسلامي في القرن السادس انه شاهد عشرين مدرسة في دمشق و٣٠ في بغداد ٠ اما الاندلس فقد نقل الأمير علي صاحب تاريخ الاسلام في الانكليزية ان العرب أنشأُوا المدارس في قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة ومالقة وغيرها وان مملكة غرناطة وحدها بلغ عدد مدارسها ١٧ مدرسة كبرى و ١٢٠ مدرسة صغرى [٢] ولكن يظهر ان مدارس الاندلس أنشئت على غير مثال المدرسة النظامية — قال المقري صاحب نفح الطيب « وليس لاهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرأُون جميع العلوم في المساجد باجرة فهم يقرأون لان يتعلموا لا لان يأخذوا جارياً » [٣] فترى في عبارة المقري نفياً صريحاً للمدارس في الاندلس فالظاهر ان الامير علياً المذكور نقل كلامهُ عن الافرنج وهؤلاءِ ربما يعنون مدارس المساجد

والمدارس في الاسلام على اشكال منها حلقات الجوامع والربط والزوايا ومنها المدارس المجانية الكبرى للعلوم الاسلامية والمارستانات للطب والفلسفة غير ما قد يعقده العلماءُ من مجالس التعليم في منازلهم ٠ وعدد الطلبة في كل حال يختلف باختلاف شهرة الاستاذ في فنه فكان يجتمع في حلقة الفارابي مئات من المئين من الطلبة ٠ وقد يكون للاستاذ تلامذة تحتهم تلامذة — ذكروا ان أبا بكر الرازي الطبيب الشهير كان يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ أخر فكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لاول من يلقاه فان كان عندهم علم والا تعداهم الى غيرهم فان اصابوا والاَّ تكلم الرازي [٤] وكان الاستاذ يزداد شهرة ونفوذاً بازدياد تلامذته واذا مشى مشوا حوله وقد يركب وهم مشاة — كان الامام فخر الدين بن خطيب الري اذا ركب مشى حوله ٣٠٠

(١) الشقائق النعمانية ١٠٤ ج ٢

(٢) Ameer Ali's Short History of the Saracens 627

(٣) نفح الطيب ١٠٤ ج ١ (٤) الفهرست ٢٩٩

تلميذ من الفقهاء[1] • وكان الشيخ الاستاذ اذا قرأ عليه احد كتاباً كتب هو علامته على الكتاب شهادة بأنه قرئ عليه • ومن اكثر العلماء تلامذة الشيرازي والفارابي والرازي وابن خطيب الري وابن سينا والغزالي • وكان التعليم شاملاً كل طبقات الناس حتى المماليك والجواري والعبيد والمخانيث وغيرهم

المكاتب او خزائن الكتب

مابرح الناس منذ اخذوا في تدوين اعمالهم واخبارهم وعلومهم وهم يحرصون على استبقاء ما يدونونه لانهم انما دونوه رغبة في استبقائه . ويعبرون عن المكان الذي يحفظون الكتب فيه بالمكتبة او خزانة الكتب واقدم من انشأ المكاتب في العالم البابليون سنة ١,٧٠٠ قبل الميلاد ومن بقاياهم مكتبة عثر عليها علماء القرن الماضي في خرائب بابل واشور هي عبارة عن قرميدات من الطين المجفف عليها كتابة بالحرف الاسفيني . يليهم المصريون القدماء فقد وصف ديودورس مكتبة وجدوها في قبر ملك مصري اسمه اوسيمندياس . ثم اليونان وهم اول من انشأ المكاتب العمومية لفائدة الناس واقدم منشئيها بسستراتوس في اواسط القرن السادس قبل الميلاد . وذكر بلوتارخس مكتبة في برغاموس مؤلفة من ٢٠٠,٠٠٠ مجلد . وانشأ البطالسة مكتبة الاسكندرية الشهيرة . ثم الرومان واول مكاتبهم نقلوها عن مكدونية الى رومية سنة ١٦٧ ق م ثم استولوا على مكتبة برغاموس المذكورة سنة ١٣٣ ق م ثم نقلوا مكاتب اثينا سنة ٨٦ ولما عظم شان قسطنطين في القسطنطينية انشأ فيها مكتبة سنة ٣٥٥ م غير ماتقدم ذكره من خزائن الفرس في الرساتيق والازج . ثم كف الناس عن انشاء المكاتب حتى تمدن المسلمون وانشاوا مكاتبهم

المكاتب الاسلامية

لما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح احرقوا ما عثروا عليه من الكتب لاسباب تقدم بيانها لكنهم ما لبثوا ان تحضروا وذاقوا طعم العلم حتى اصبحوا احرص الناس على الكتب واكثرهم بذلاً في الحصول عليها واشدهم عناية في صيانتها . وقد رأيت ان العرب قضوا القرن الاول ونصف الثاني وابحاثهم قاصرة تقريباً على العلوم الاسلامية ولم يدونوها الاّ في اواخر تلك المدة . فكان ما يجمعونه من الكتب محصوراً في الاشعار والاخبار والامثال

(١) طبقات الاطباء ٢٣ ج ٢

مكتوبة على الرقوق او الجلود او الانسجة او نحوها — قالوا ان كتب ابي عمرو بن العلاء كانت تملأ بيته الى السقف وقالوا نحو ذلك في سائر رواة الادب والشعر كالاصمعي وحماد وابي عبيدة

غير ان ذلك لا يعدُّ من قبيل المكاتب العمومية التي انما يقوم بانشائها ولاة الامور او من يجري مجراهم . ومرجع الفضل في انشاء هذه المكاتب الى خلفاء النهضة العباسية وان كنا نرى ذكر خزائن الكتب في ايام بني امية التي اخرج عمر بن عبد العزيز منها كناش هرون فتلك على الغالب مما انشأهُ الاطباء او الفلاسفة الذين كانوا في خدمة تلك الدولة لانفسهم او لاولادهم

﴿ مكاتب بغداد ﴾ اما في الدولة العباسية فكان انشاؤها من جملة اسباب نهضتهم لنقل العلوم فأنشاوا مكتبة في بغداد سموها « بيت الحكمة » الغالب ان الرشيد انشأها وجمع اليها ما كان قد نقل الى العربية من كتب الطب والعلم وما أُلّف من العلوم الاسلامية مع ماسعى يحيى بن خالد في جمعه من كتب الهند وما وقع للرشيد من كتب الروم في انقره وغيرها . ولما تولَّى المأمون وانشأ مجالس الترجمة جمع في بيت الحكمة كتب العلم في لغاتها وفيها اليونانية والسريانية والفارسية والهندية والقبطية فضلاً عن العربية . وعلم الناس رغبته في ذلك فأتوه بالكتب على اختلاف مواضيعها واشكال خطوطها ولو لم يكن لها قيمة علمية ككتاب ذكر ابن النديم انه بخط عبد المطلب بن هاشم جد النبي على جلد وفيه ذكر حق عبد المطلب المذكور « على فلان بن فلان الحميري من اهل صنعاء عليه الف درهم فضة كيلاً بالحديدة ومتى دعاه بها اجابه شهد الله والملكان »[1]

وكان بيت الحكمة عبارة عن مجالس للترجمة او النسخ او الدرس او التأليف فيجلس النساخ في اماكن خاصة بهم ينسخون لانفسهم او باجور معينة وكذلك المترجمون والمؤلفون والمطالعون . ومن نساخ بيت الحكمة علاَّن الشعوبي اصله فارسي وكان راوية عارفاً بالانساب والمنافرات وكان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمامون والبرامكة وله كتاب في مثالب العرب هتك فيه العرب واظهر مثالبها[2] وممن كان يتردد الى بيت الحكمة للمطالعة او التأليف محمد بن موسى الخوارزمي المنجم ويحيى بن ابي منصور الموصلي احد اصحاب الارصاد في ايام المامون والفضل ابن نوبخت المنجم واولاد شاكر وغيرهم . وكان للبيت المذكور قيم يدير شؤونه يسمى صاحب بيت الحكمة واشهر مديريها سهل بن هارون وهو فارسي شعوبي

(١) الفهرست ٥ (٢) الفهرست ١٠٥

شديد التعصب على العرب وله في ذلك كتب كثيرة ومنهم سلم وله نقولٌ من الفارسي الى العربي . فترى من ذلك ان البيت او الخزانة المذكورة انشئت على يد الفرس وخدمتها والمترددون اليها من الفرس واكثرهم من الشعوبية الذين يكرهون العرب ولذلك سببٌ متصل بقيام الخراسانيين بنصرة المامون لاسباب ذكرناها في الجزئين الماضيين من هذا الكتاب

ثم انشأ البغداديون المكاتب على مثال بيت الحكمة اشهرها مكتبة وقفها سابور ابن اردشير وزير بهاء الدولة في محلة بين السورين في الكرخ سنة ٣٨١ ه وجعل فيها اكثر من عشرة آلاف مجلد كلها بخطوط الائمة المعتبرة وكان المؤلفون يقفون عليها نسخًا من مؤلفاتهم — واحترقت في ما احترق من محال الكرخ عند مجيء طغرل بك اول ملوك السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧ ه[١] وممن تولّى حفظها والاشراف عليها عبد السلام البصري اللغوي المتوفى سنة ٤٠٥ ه[٢] . واشتهر بجمع الكتب من بني العباس الخليفة الناصر بن المستضيء المتوفى سنة ٦٢٢ ه[٣]

﴿ مكاتب الاندلس ﴾ وكان المأمون مثالاً في انشاء المكاتب بالممالك الاسلامية كما كان مثالاً في سائر اسباب النهضة العلمية . فاقتدى به بنو امية في الاندلس واشبههم به الحكم بن الناصر الذي تولّى الخلافة سنة ٣٥٠ ه وتوفي سنة ٣٦٦ ه وكان محبًّا للعلوم مكرمًا لاهلها جماعًا للكتب على انواعها بما لم يجمعه احد من الملوك قبله . فانشأ في قرطبة مكتبة جمع اليها الكتب من انحاء العالم فكان يبعث في شرائها رجالاً من التجار ومعهم الاموال ويحرضهم على البذل في سبيلها لينافس بني العباس في اقتناء الكتب وتقريب الكتّاب . وكان ابو الفرج الاصفهاني صاحب الاغاني معاصرًا له وهو امويٌّ مثله فبعث اليه ان يرسل اليه كتاب الاغاني قبل اخراجه الى بني العباس وبذل له على ذلك الف دينار ذهب . وفعل نحو ذلك مع القاضي ابي بكر الابهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكيم وغيره فاجتمع له من الكتب ما لم يسبق له مثيل في الاسلام . فجعلوها في قاعات خاصة من قصر قرطبة اقاموا عليها مديرًا ومشرفًا ووضعوا لها الفهارس لكل موضوع على حدة . وذكروا ان فهارس الدواوين وحدها ٤٤ فهرسًا في كل فهرس عشرون ورقة[٤] فاذا قدرنا للصفحة ٢٥ اسماً فقط كان مجموع عدد الدواوين ٤٤,٠٠٠ كتاب فكيف بسائر الكتب ولا نظننا نبالغ اذا سلمنا

(١) ابن الاثير ١٤٥ ج ١٠ ومعجم ياقوت ٧٩٩ ج ١

(٢) طبقات الادباء ٤١٢ وابن خلكان ٣٥٠ ج ٢ (٣) ابن خلدون ١٤٦ ج ٤

(٤) ابن خلدون ١٤٦ ج ٤

مع ابن خلدون والمقري ان مجموع ماحوته تلك المكتبة ٤٠٠,٠٠٠ مجلد[١]

واقتدى بالحكم رجال دولته وعظماء مملكته وانشأوا المكاتب في سائر بلاد الاندلس حتى قالوا ان غرناطة وحدها كان فيها سبعون مكتبة من المكاتب العمومية . واصبح حب الكتب في الاندلس سجية في اهلها واصبح اقتناؤها من شارات الوجاهة والرئاسة عندهم . وقد يكون الرئيس منهم جاهلاً ويحتفل ان يكون في بيته خزانة كتب ليقال فلان عنده خزانة كتب والكتاب الفلاني ليس عند احد غيره والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به — قال الحضرمي « أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة اترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء الى ان وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به اشدّ الفرح فجعلت ازيد في ثمنه فيرجع اليّ المنادي بالزيادة عليّ الى ان بلغ فوق حدّه . فقلت له ياهذا ارني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه الى مالا يساوي — قال فاراني شخصاً عليه لباس رئاسة فدنوت منه وقلت له اعز الله سيدنا النقيه ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدّه . فقال لي لست بفقيه ولا ادري فيه ولكني اقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لاتجمل بها بين اعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم ابال بما ازيد فيه والحمد لله على ما انعم به من الرزق فهو كثير — قال الحضرمي فاحرجني وحملني على ان قلت له نعم لا يكون الرزق كثيراً الا عند مثلك يعطي الجوز من لا له اسنان وأنا الذي اعلم مافي هذا الكتاب واطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً وتحول قلة مايدي بيني وبينه »[٢]

وظل اهل قرطبة في كل حال احسن الاندلسيين رغبة في الكتب كما كان اهل اشبيلية ارغبهم في اللهو والطرب فاذا مات عالم في اشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها واذا مات مطرب بقرطبة فاريد بيع تركته حملت الى اشبيلية[٢] — اما مكتبة قرطبة فما زالت في قصرها حتى بيع اكثرها في حصار البربر ثم اتمّ عليها الافرنج

مكاتب مصر واقتدى بخلفاء بغداد والاندلس الخلفاء الفاطميون بمصر بدا بذلك منهم العزيز بالله ثاني خلفائهم تولى الخلافة سنة ٣٦٥ هـ وهو شاب فاستوزر يعقوب ابن كلس وكان يعقوب مدبراً ومحباً للعلم فرتب له الدواوين وقرب اليه العلماء على اختلاف طبقاتهم واجرى لهم الارزاق وحبب الى الخليفة اقتناء الكتب فجمع منها جانباً كبيراً اخصص لها قاعات في قصره وسماها « خزانة الكتب » وبذل الاموال في الاستكثار من المؤلفات

(١) نفح الطيب ١٨٢ و ١٨٦ ج ١ (٢) نفح الطيب ٢١٨ ج ١

المهمة في التاريخ والادب والفقه ولو اجتمع من الكتاب الواحد عشر نسخ او مئة نسخة او اكثر — ذكروا انه كان فيها من كتاب العين للخليل نيف وثلاثون نسخة منها نسخة بخط الخليل نفسه وعشرون نسخة من تاريخ الطبري واشتروا النسخة بمئة دينار ومئة نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد . وكان عدد النسخ المكررة يزداد بتوالي الاعوام حتى بلغ عدد النسخ من تاريخ الطبري عند استيلاء صلاح الدين الايوبي على مصر ١,٢٠٠ نسخة وكان فيها ٣,٤٠٠ ختمة قرآن بخطوط منسوبة محلاة بالذهب . فلا عجب اذا قالوا انها كانت تحوي ١,٦٠٠,٠٠٠ كتاب[1] في الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات والكيمياء منها ١٨,٠٠٠ كتاب في العلوم القديمة فيها ٦,٥٠٠ جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة[2] غير ادوات الهندسة والفلك

على اننا نرى في تقدير تلك الكتب مبالغة . وقد قدَّرها آخرون ٢٠٠,٠٠٠ كتاب وغيرهم ١٢٠,٠٠٠ ونظن في تقديرهم التباساً من حيث المراد بخزانة الكتب او خزائن الكتب . لان العزيز بعد ان انشأ خزانته بقصره اقتدى به جماعة من اهله فأنشاوا مثلها في قصورهم . فالظاهر ان المراد بالتقدير القليل عدد الكتب في خزانة العزيز خاصة وبالكثير عدد ما في خزائن القصور كلها . وبهذا الاعتبار لا يقلُّ عدد الكتب في خزائن القصور عن ١,٠٠٠,٠٠٠ مجلد او كتاب

وكان للعزيز عناية كبيرة في خزانته يتعهدها بنفسه حيناً بعد حين وقد رتب لها قيماً يتولى شؤونها ويجالسه ويقرأ له الكتب وينادمه . وممن تولى ذلك ابو الحسن الشابشتي الكاتب المتوفى سنة ٣٩٠ هـ[3]

وقد اصاب هذه الخزائن من الاحن بتوالي الفتن مثل ما أصاب مكتبة الاسكندرية في عهد الرومان . فالقي بعض كتبها في النار والبعض الآخر في النيل وتُرك بعضها في الصحراء فسفت عليه الرياح حتى صار تلالاً عرفت بتلال الكتب . واتخذ العبيد من جلودها نعالاً مما يطول شرحه . وبالاجمال فقد طرح ما بقي منها عند دخول الاكراد للمبيع في أواسط القرن السادس وكان في جملة ما أخرجوه من تلك القصور نحو ١٢٠,٠٠٠ كتاب اعطاها صلاح الدين للفاضل عبد الرحيم البيساني[4]

(دار الحكمة) وتسمى أيضاً دار العلم وهي غير خزانة العزيز او خزائن القصور

(١) المقريزي ٤٠٨ و ٤٠٩ ج ١ (٢) تراجم الحكماء

(٣) ابن خلكان ٣٣٨ ج ١ (٤) ابن خلدون ٨١ ج ٤

كما توهم الاكثرون • انشاها الحاكم بامر الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥ ه بجوار القصر الغربي بالقاهرة وحمل اليها الكتب من خزائن القصور ووقف لها اماكن ينفق عليها من ريعها • ففرشوها وزخرفوها وعلقوا الستور على أبوابها وممراتها وأقاموا عليها القوام والمشرفين • والغرض من دار الحكمة مثل الغرض من بيت الحكمة الذي انشأه العباسيون اي لخدمة الناس في المطالعة والدرس والتأليف • وهي طريقة القدماء في تعليم الناس اذ يتعذر على غير الاغنياء اقتناء الكتب الكثيرة نظراً لغلائها فمن احب تعليم رعيته انشأ مكتبة جمع فيها الكتب وفتح ابوابها للناس كما فعل البطالسة في مكتبة الاسكندرية والعباسيون في بيت الحكمة ببغداد • وقد عدَّ بعضهم دار الحكمة مدرسة لان الحاكم اقام بها القراء والمنجمين واصحاب النحو واللغة والاطباء وأجرى لهم الارزاق واباح الدخول اليها لسائر الناس على اختلاف طبقاتهم من محبي المطالعة ليقرأوا او ينسخوا ما شاؤا وجعل فيها ما يحتاجون اليه من الحبر والاقلام والورق والمحابر • وكان الحاكم يستحضر بعض علماء الدار المذكورة الى ما بين يديه ويأمرهم بالمناظرة كما كان يفعل المأمون ويخلع عليهم الخلع • وقد اباح المناظرة بين المترددين الى دار الحكمة فكانوا يعقدون المجتمعات هناك وتقوم المناظرات وقد يفضي الجدال الى الخصام • واتخذ بعض أصحاب البدع تلك الاجتماعات وسيلة لبث آرائه فاضطر الافضل بن أمير الجيوش في أوائل القرن السادس للهجرة الى ابطالها دفعاً للاسباب • فلما توفي الافضل أمر الخليفة الآمر باحكام الله وزيره المأمون بن البطائحي فأعادها سنة ٥١٧ ه ولكنه اشترط فيها المسير على الاوضاع الشرعية وان يكون متوليها رجلاً ديناً وان يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن • ولا نظن عدد كتبها يقلُّ عن ١٠٠,٠٠٠ كتاب ولما أفضت الحكومة الى صلاح الدين الايوبي هدم دار العلم وبناها مدرسة للشافعية [1]

(مكاتب الشام) لما كانت الشام مركز الخلافة في أيام بني أمية لم يكن للخلفاء رغبة في العلم ولا التفت العباسيون اليها • ولكنها اشتهرت في عهد الدولة الفاطمية بمكتبة كانت في طرابلس الشام حتى فتحها الافرنج سنة ٥٠٢ ه فانتهبوها [2] وذكر جبن ان عدد كتبها ٣,٠٠٠,٠٠٠ مجلد احرقها الافرنج [3] • فلما تولى نورالدين الشام وأنشأ المدارس في مدائنها جعل فيها خزائن الكتب وتعرف بالخزائن النورية وهكذا فعل صلاح الدين

(١) ابن خلدون ٧٩ ج ٤ (ويسميها دار المعرفة) (٢) ابن خلكان ١٢٨ ج ٢

(٣) Gibbon's Rom. Emp. II,505

اما بلاد فارس فقد تقدم في غير هذا الباب ما كان فيها من الخزائن المخبأة في الرساتيق والازج والقباب مكتوبة بالاحرف الفهلوية على الجلود ونحوها قبل الاسلام . فلما نضجت الحضارة الاسلامية في بغداد كان الفرس من اكبر العوامل فيها وفي جملة مساعيهم انشاء بيت الحكمة وغيره كما تقدم

وأما خراسان فقد كانت بلاد علم وأدب لما علمته من انشاء المدارس فيها قبل سائر بلاد الاسلام . وأما المكاتب فلم يتصل بنا من اخبارها الا القليل فقد ذكر ياقوت في معجمه انه ترك مرو الشاهجان اشهر مدن خراسان يومئذ سنة ٦١٦ ﻫ وفيها عشر خزائن للوقف لم ير في الدنيا مثلها كثرة وجودة وقد فصل اخبارها واخبار واقفيها وذكر ان واحدة منها كان فيها ١٢,٠٠٠ مجلد وانه أخذ علمه منها (١)

اما ماوراء النهر فقد ذكروا في بخارى مكتبة اشتهرت باقتباس ابن سينا علمه عنها وكانت لنوح بن منصور سلطان بخارى — قال الشيخ الرئيس « ورأيت فيها من الكتب مالم يقع اسمه الى كثير من الناس وما كنت رأيته من قبل الخ » وأنشأ هولاكو التتري لنصير الدين الطوسي في مراغة مكتبة فيها ٤٠٠,٠٠٠ مجلد مما نهبه التتر من بغداد والشام والجزيرة

هذا ماعثرنا على خبره من المكاتب العمومية التي أنشأها الخلفاء او السلاطين لمنفعة الناس غير خزائن الكتب التابعة للمدارس او المارستانات او الجوامع فانها كانت كثيرة جداً ومنها ما لاتقل كتبها عن المكاتب الكبرى وهي مرتبة ابواباً حسب المواضيع وعليها الوكلاء والقوام . وغير الخزائن الخصوصية التي كان يقتنيها العلماء لانفسهم وهي كثيرة وعظيمة فقد كانت كتب الصاحب بن عباد تنقل على ٤٠٠ جمل وخلف افرايم الطبيب المصري ٢٠,٠٠٠ مجلد ولما مات موفق الدين بن المطران كان في خزانته ١٠,٠٠٠ مجلد غير ما استنسخه وكان له ثلاثة نساخ يكتبون . وكان عند أمين الدولة ٢٠,٠٠٠ مجلد وقس عليهم كثيرين كالفتح بن خاقان وابن القفطي وغيرهما

ولا تتضح فخامة تلك المكاتب الا اذا قابلناها بمكاتب هذا العصر مع اعتبار الفرق بين العصرين وماكان لانتشار الطباعة من تسهيل اقتناء الكتب مع مرور الازمنة الطويلة على مكاتب هذه الايام وكثرة الوسائل المساعدة على اقتناء الكتب لقلة النفقة وغير ذلك . ونقتصر على المكاتب الاسلامية الكبرى التي عرفنا عدد مجلداتها ونقابلها باشهر مكاتب اوربا اليوم :

(١) معجم ياقوت ٥٠٩ ج ٤

أشهر مكاتب المسلمين في عهد التمدن الاسلامي

عدد المجلدات	
......	بيت الحكمة في بغداد
١٠,٠٠٠	مكتبة سابور «
٤٠٠,٠٠٠	« الحكم بقرطبة
١,٠٠٠,٠٠٠	خزائن القصور بالقاهرة
١٠٠,٠٠٠	دار الحكمة «
٣,٠٠٠,٠٠٠ ؟	مكتبة طرابلس
٤٠٠,٠٠٠	« مراغة

أشهر مكاتب هذه الايام في عواصم اوربا الكبرى

عدد المجلدات	
٢,٧٠٠,٠٠٠	مكتبة باريس الاهلية
١,٦٤٨,٠٠٠	« المتحف البريطاني في لندن
١,٣٦٠,٠٠٠	« بطرسبرج القيصرية
١,٢٣٠,٠٠٠	« برلين الاهلية
٩٢٤,٠٠٠	« فينا الملوكية
٦٧٧,٠٠٠	« رومية الاهلية

وفي الولايات المتحدة ٤,٠٢٦ مكتبة مجموع عدد كتبها ٣٣,٠٥١,٨٧٢ مجلداً

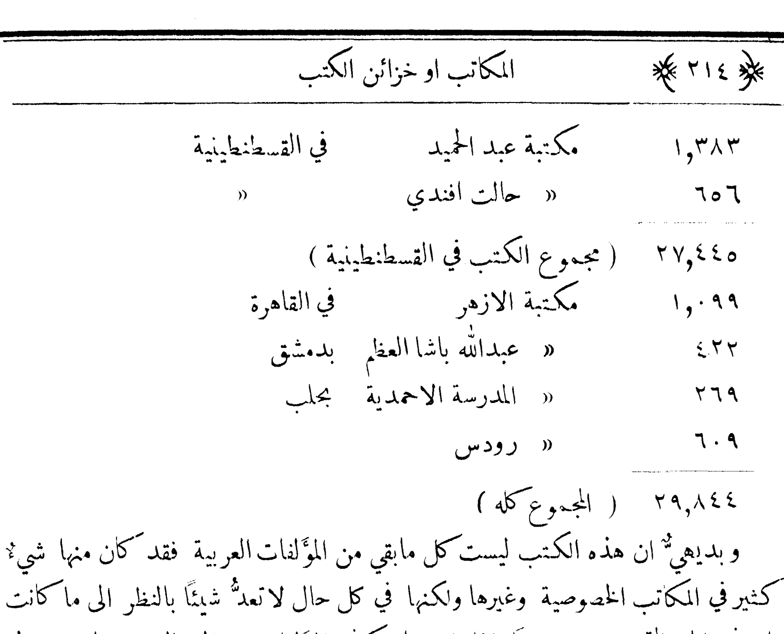
و بالجملة ان المسلمين جمعوا في مكاتبهم العمومية والخصوصية من الكتب على اختلاف مواضيعها ما يعدُّ بالملايين . ولم يبق منها الاَّ جزء صغير جدًّا وقد ضاع معظمها في اثناء القرون الوسطى وذهب بذهاب ذلك التمدن

اما الباقي من تلك الكتب فاكثره تجمَّع في عاصمة الاسلام في اثناء تلك القرون وهي القسطنطينية . وقد توفق المستشرق غوستاف فلوغل ناشر كتاب الفهرست وكتاب كشف الظنون الى احراز قوائم المكاتب العربية على ما بلغت اليه قبل النهضة الاخيرة

وشيوع الطباعة في الشرق وذيَّل كتاب كشف الظنون باسماء تلك الكتب بحسب مواضيعها . فبلغ عدد تلك المكاتب بضعاً وعشرين مكتبة منها ٢١ في القسطنطينية بلغ مجموع كتبها ٢٧,٤٤٥ كتاباً . واما ما بقي ففي مصر ودمشق وحلب ورودس ومجموع كتبها ٢,٤٠٠ كتاب فيكون الباقي من كتب التمدن الاسلامي في المكاتب العمومية نحو ٣٠,٠٠٠ كتاب هاك تفصيلها باعتبار اماكنها :

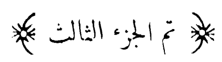
مكاتب المسلمين في اواخر القرون الوسطى وكتبها

عدد المجلدات	
١,٥٣٧	مكتبة السلطان محمد الثاني في القسطنطينية
٨٠٣	« « سليمان «
٧٥٢	« قليج علي باشا بالطبخانة «
٤١٢	« حافظ احمد باشا «
١,٤٤٨	« كبوبريلي اوغلو «
٢,٩٠٦	« شهيد علي باشا «
٨٣١	« ابراهيم باشا «
٧٣٢	« والده سلطان «
٥٥٢	« بشير اغا «
١,٣٣٦	« عاطف افندي «
١,٤٤٥	« ايا صوفيا «
٥٥٦	« سراي غلطه «
٢,٤٢١	« عثمان الثالث «
١,٠٧٧	« محمد راغب باشا «
٩٨٠	« لعله لي دفتر اول «
١,٩٤٧	« « « « ٢ «
٩١٦	« سراي همايون «
١,٧٦٩	« ولي الدين افندي «
١,٨٧٧	« عاشر افندي «
١,١٠٩	« داماد زاده محمد مراد افندي «

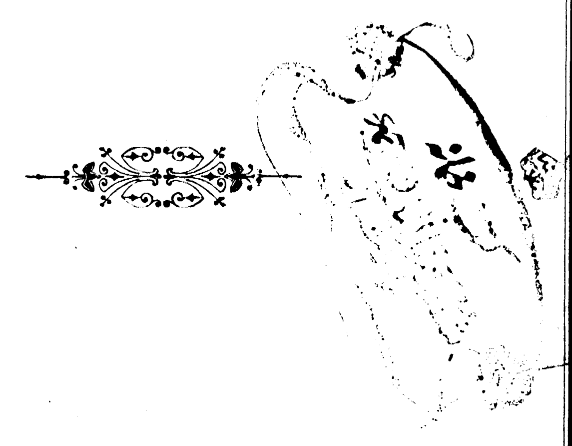


١,٣٨٣	مكتبة عبد الحميد	في القسطنطينية
٦٥٦	« حالت افندي	«
٢٧,٤٤٥	(مجموع الكتب في القسطنطينية)	
١,٠٩٩	مكتبة الازهر	في القاهرة
٤٢٢	« عبدالله باشا العظم	بدمشق
٢٦٩	« المدرسة الاحمدية	بحلب
٦٠٩	« رودس	
٢٩,٨٤٤	(المجموع كله)	

وبديهيٌّ ان هذه الكتب ليست كل مابقي من المؤَلفات العربية فقد كان منها شيءٌ كثير في المكاتب الخصوصية وغيرها ولكنها في كل حال لا تعدُّ شيئاً بالنظر الى ما كانت عليه في ابان التمدن . وخصوصاً اذا اعتبرنا تكاثر المؤَلفات بتوالي القرون مما يدعو الى زيادة عدد الكتب الباقية في القرون الوسطى كما لا يخفى لا الى نقصانها ولكن لكل شيءٍ أجلاً لا يتعدَّاهُ سنَّة الله في خلقه



تم الجزء الثالث



الفهرست